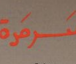
THAQAFA ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

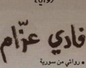
FADI AZZAM
فادي عزّام

سَرمَدة
SARMADA

رواية
NOVEL



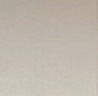




• روائي من سورية

ثمل بالبهجة وهو يدوّن حياة الصخور وأشكالها. علاقتها مع المطر والشمس. ألوانها، كيف تتغير بتغير ساعات الظل والضوء، وأنفاسها وهي تلتقم الإضاءة وتزدرد العشب، وتجمع بعد زخة من مطر أحواضاً صغيرة تؤمها عصافير عابرة، أو زيزان وحشرات مقيمة بدت له هذه العوالم أقرب إلى الكمال؛ مفتوحة تحت سماء شديدة الزرقة نهاراً، نقية باذخة بجلاء النجوم المرشوقة كنمش على جسد السماء في الليل.

كتب في دفتره عن الصخرة الحبلى بحَصيّات صغيرة، ورسم بكلمات كيف تشرب الأرض من فم القمر حليب سوائل النجوم. كتبَ عن نزق حصاة ظلت جاثمة بجوار أحفورة ماء مائتين وتسعين عاماً، وهي تتحمل سلح العصافير العطشى. دوّن هسيس الصمت بجمل مشبعة بنتوءات وجه مجدور لحجر غاضب. أرشف أرق الحجارة وهسيس الثبات، ودوّن اختمار الطمي ورقص الفالس لصخرة مكرشة، وخط روائح المكان موثّقاً تلك الأنسام المغموسة بنترات الرسوخ في قصيدة أسمها قواميس الريح والخدوش.









ISBN 978-9948-446-23-1





الخطوط: حمد الحناوي - صورة الغلاف: باسل المحيثاوي - تصميم الغلاف: سامح خلف



الطبعة الأولى
1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-9948-446-23-1

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

أبوظبي هاتف: 6345404 (2-971+) فاكس: 6345407 (2-971+)
دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

إن دار الثقافة للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار.

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

إهداء ..

إلى رفيق شامي وهل تكفي المحبة؟

الفصل الأول

عــزّة

لم يكن بها ما يلفت الانتباه، أصلا لم ألحظها، حتى عرَّفني صديقي بالعربية إلى رجل من سورية يقف إلى جوارها، تبادلنا المجاملات العادية لأهل البلد الواحد حين يلتقيان في الغربة. مجاملات متحفظة ومشكوك بنواياها.

يسألني من أين؟ قلت: من الجبل.

وحين استوضح من أيِّ مكان في الجبل، أجبت: سرمدة!!

وما أن لفظتُ: إني من بلدة سرمدة، حتى استدارت إلينا وكأن للكلمة وقعاً خاصاً عليها. رمقتني بتلك النظرة المحيرة، واعتذرت لاقتحامها تعارفنا.

– هل قلت إنك من سرمدة؟

أجبت بهدوء الحائر:

– نعم، هل تعرفين أحداً منها؟

تساءلت وأنا أحاول تقصي نظرات هذه السيدة الأربعينية، المرتدية فستاناً أسودَ مطرّزاً بخرز لمّاع، ومن نفس اللون. وفي وجهها دهشة مطفأة، وتحمل نظرة حادة صارمة تتفحصني بها.

ابتسمت بهدوء.

– الغريب مصادفة أحداً من سرمدة في باريس. هل تقيم هنا؟

– لا أبداً، في زيارة عمل سريعة، سأسافر غداً.

– كيف سرمدة؟ كيف أحوالها؟ وصارت نظرتها أقل صرامة

– بخير ولكن بالحقيقة لا أزورها كثيرا لأني مقيم في دبي...!

قاطعني تصفيق حادٌّ اندلع في القاعة حين دخل إعلامي فرنسي بارز، ليبدأ حفل تكريمه في معهد العالم العربي. غاب صوتها، وتقدم

منها أحد الكهول المتأنقين يحثها على إنهاء المحادثة والاهتمام بالحفل. وقبل أن تغادر قالت:

– اسمي عزّة توفيق.. معك قلم؟

فتشت جيوبي فلم أجد. استعارت من الرجل الكهل المتأنق الرصين، وهو يرمقني بنظرات باردة. خطّت رقم هاتف على محرمة كلينكس. أعطتني إياها، وعينها الفاحصة تعج بكلام كثير.

– اتصل بي، ضروري.. وغابت في زحمة الاحتفال.

القاعة مكتظة، والكل يتكلم الفرنسية التي لا أفهمها. وانشغل صديقي بالاحتفال، فتسللت خارجاً بهدوء.

مشيت بمحاذاة السين، بخطوات بطيئة.مراقبا المراكب العابرة وحركة الطريق مستمتعا بالمشي الباذخ في باريس، تلمع في رأسي صور بلدتي.

كيف أعادت هذه المرأة سرمدة دفعة واحدة إلى ذاكرتي؟ فهذا الحنين الفارغ لم يستطع يوما أن ينال مني. تحصّنت ضده منذ خروجي قبل سنوات طويلة من بلادة الفراغ. ومطحنة الأعمار ولزوجة الانتظار لما لا يأتي.

لم تكن سرمدة بالنسبة لي سوى مكان أجوف مررت به. عشت فيه مرارة أيامي، دمغني بالألم والخوف والخفوت. احتجت لسنوات لأخرج منه وأخرجه مني.

لكن الآن على ضفة "السين" فثمة شيء مختلف يبرق في داخلي. ويجعل سرمدة تعود إلي.أو لأقل ما تبقى منها: بضعة وجوه مغبرة وذاكرة بلا ملح التذكر. بلا طعم ما أو مذاق يثير الشوق لأي أحد. ومع خطواتي المتسارعة كنت أقع في حيرة الممسوس بلوثة نقاء مباغتة.

كيف يمكن أن ينكر المرء منبته أو يحاول التخلص منه، التنصل من

وعثائه؟ بدأ الأمر مثل وكسة في حمأة طين لزج.

دخلت فندق "ألبا" في سان ميشيل. الساعة تجاوزت الحادية عشرة. جهزت حقيبتي. أخذت حماما دافئا، وابتلعني النوم.

كنت نشيطاً تماماً بعد ليلة نوم مذهلة. نزلت إلى الاستقبال، تناولت فطوري، وحاسبت وأنهيت إجراءات الإقامة. وضعت حقيبتي في غرفة الأمانات، واتصلت بها. صوت من الطرف المقابل ما زال مغموساً بالنعاس مشبعاً بالأنوثة.

– أنا رافي عزمي.

– مين؟

– التقينا البارحة في تكريم الأستاذ "ألان غيوش" وأعطيتني رقمك.

– شيء ما مسها من جديد، فانتعش صوتها.

– أهلا أهلا، أين نتقابل ومتى؟

– طائرتي ستقلع اليوم مساء من شارل ديغول. الآن إذا لم تكوني مشغولة.

– لا.. أوكي، أين أنت؟

– نلتقي في مقهى "لي ديبار" سان ميشيل.

– نصف ساعة وأكون هناك.

إنه يومي الأخير في باريس، وبعدها علي السفر إلى دمشق لمتابعة أبحاثي عن الفيلم الوثائقي حول" جسور التواصل بين الشرق والغرب" فعملي كمعد ومنتج للفيلم، يستدعي مني السفر إلى مجموعة من البلدان لتهيئة وإعداد المقابلات ومواقع التصوير. من الجيد أنني أنهيت كل الأعمال البارحة، وختمت يومي بلقاء صديق من أيام الجامعة دعاني إلى الحفلة فقابلت هذه السيدة.

على الطاولة الموجودة في الزاوية المقابلة لمكتبة "جلبرت" جلسنا.

العينان البنيتان الواسعتان، فيهما جدية صارمة، وحزن هامس. ومسحة من النبل تعتلي معالم هذه السيدة ذات اللهجة اللبنانية.. بعد بضع كلمات دخلت بالموضوع مباشرة.

– أنا من الشوف، ولي أقارب في سرمدة.

– أه، إذاً هذا يفسر كل شيء. أجبتها وأضفت بمثاقفة واستعراض:

– يعني نستولوجيا الطائفة.

– لا أبداً، الموضوع غير هذا.

وصمتت قليلاً، ثم ثبتت نظرتها علي وقالت بجدية تامة:

– أنا – في حياتي السابقة – عشت في سرمدة. إذا كنت تؤمن بالتقمص أو سمعت عنه، سوف تفهم ماذا أقصد!

لم أجب، كنت مصعوقاً بدهشة مباغتة. صحيح أنني نشأت وتربيت في جو يعتبر التقمص جزءاً لا يتجزأ من الإيمان العام، ويضج بحكايات لمتقمصين يروون قصصاً تتراوح بين التسلية الساذجة وتهويل المبالغة، لإثبات حقيقة تميز الدروز كفرقة ناجية تؤمن بالتقمص وتختلف عن باقي الفرق الباطنية التي تؤمن بالنسخ والمسخ والفسخ والرسخ. أي بالتقمص الروح من أنسان لأخر أو مسخها ووضعها في جسد حيوان أو فسخها وتحويلها إلى نبات، أو الرسخ وتلك أقصى عقوبة تتلاقها الروح معذبة في أسفل السافلين. مرسوخة ومقيدة في حجر أو جماد. كعقوبة سرمدية حتى يشاء لها أن تخرج من رسخها.

والتقمص أحد أركان المذهب الدرزي الغامض يوفر للطائفة فكرة نقاء واصطفاء الدم والسلالة. فالدروز لا يتقمصون إلا دروزا. ولكني في حياتي كلها، لم أعر هذا الموضوع اهتماماً، وأعتبره واحدة من الشطحات الدينية الجميلة التي تحفل بها سوريا.

تابعت السيدة كلامها بثقة وهي تقول:

– أنا متُّ قتلاً، الساعة الرابعة والنصف مساء يوم الثلاثاء الأول من شهر كانون أول عام 1968. اسمي في حياتي السابقة هيلا منصور، وبعدني بتذكر الكثير من حياتي الماضية و – إذا بدّك – الكثير من تفاصيل أخر ساعتين ونصف من عمري أراها بكل وضوح وكأن الأمر حدث البارحة.

فغرت فمي أطالع وجه هذه السيدة الذي تعكر بفعل حديثها المضطرب.

– بصراحة لا أعرف ماذا أقول: ولكني حقيقة، لا أؤمن بالتقمص.

وإنْ شئت أكثر. لا أؤمن إلا بالعقل والعلم، وأعتبر حكايات التقمص من الذاكرة الاسترجاعية. من يتذكر حياته الماضية يتذكر بضعة أحداث بسيطة عامة.

وحاولت أن أضيف إلى حديثي نكهة العارف الثقيل الوزن، ولكن شيئاً ما في نظراتها، مع ابتسامة ساخرة منها، أوقف منطقي البارد.

– اسمع يا أستاذ رافي: أنا برفسورة في مكانيك الكم. أدرّس في السوربون، وموضوع الدكتوراه الخاص بي، يعتمد على تطوير نظرية الفوضى في الفيزياء(الشاواش)، وأضافت متهكمة: إذا كنت سمعت بها.

وها أنا أقول لك: إني عشت سابقاً، وقتلت على يد أشقائي.. أريد أن أسألك عنهم: كيف هم، وما هي أحوالهم؟ وقبل هذا وذاك لا يهمني كل منطق العلم في حياتي الخاصة. وما سأقوله لك الآن لم أروه سابقاً، كما سأرويه لك، ودعني أستشهد بمقولة أينشتاين: "إذا لم يوافق الواقعُ النظريةَ، غيِّر الواقع".

عقبت على حديثها متهكماً بنفس النبرة:

– يعني تملكين نظرية عن التقمص!

أجابت بهدوء: **لا أبداً، فغروري الشخصي وعقلي البارد كانا يرفضان دائماً الاعتراف بحياتي السابقة وفكرة التقمص. ثم إني لا أستطيع إثبات**

ذلك بالعلم. ولكنّ حقيقةً أدركها بداخلي وتعيش معي، تجعلني أحمل في داخلي حياتين على الأقل، وهذا الأمر لم يعد يزعجني فبعد هذه العمر بتّ أرى الأشياء بصورة أوضح وأقلّ حدّة. وعلى كلٍّ، أينشتاين -أيضاً- يقول:

"الخيال أهم من المعرفة، لأن المعرفة لها حدود".

أسعفتني ذاكرتي بعبارة للمدعو أينشتاين أضفتها إلى الحديث ليس رغبة بالمناكفة بل بالاستعراض

- "الحقيقة ليست سوى وهم، لكنه وهم ثابت".

وأردفت مشاكسةً:

- وعملياً، الوهم الثابت خير من الخيال عابث.

كنت أشعر بأن أحداً يريد خلخلة مسلماتي، وإعادتي إلى مرحلة قلق كبير تخلصت منه منذ زمن طويل دفعة واحدة؛ فلا الله ولا شعوذات الآخرة ولا كل ما ينتجه الدين، يمكن له أن يهزني أو يشغلني مرة أخرى؛ ولكنها قطعت علي محاكمتي الصامتة لنفسي، مستشهدة بعبقري النسبية أيضا، تستحضره بانسياب العارف:

- كلما اقتربت القوانين من الواقع، أصبحت غير ثابتة، وكلما اقتربت من الثبات، أصبحت غير واقعية.

تراجعت أمام هذا الحزم المباغت. وبصراحة أكثر، لم يكن أحد في العالم يستطيع دحض الثقة والحزن في عيني هذه السيدة الجميلة.

فاستسلمت للإصغاء مؤجلا محاكمة روايتها لوقت آخر.

كانت تسأل عن تفاصيل في البلدة، عن أناس أعرف بعضهم، وآخرين سمعت بهم، وقلة لا أعرفهم أبدا.

ورويداً بدأنا نستعيد معا المكان. نروي حكايته ونُحضر أناسه هنا إلى هذا المقهى الباريسي مقابل تمثال القديس ميشيل، وصار الحديث

أليفاً فيه الكثير من الفرح الغامض. كنت محتاجاً فعلا إلى هذه السيدة لأستطيع رؤية البلدة التي نشأت فيها وغادرتها منذ سنوات طويلة، ولا تعدو بالنسبة لي سوى مكان ضيق أحبّ زيارته كل بضعة أعوام لألتقي أهلي وما تبقى من أصدقائي، وأغادر على عجل.

مرت الساعات الستّ التي جمعتنا بسرعة، وكان علي المغادرة بسرعة إلى المطار. أخبرتها أنني سأعود قريبا لمتابعة عملي باريس. وسأكون سعيداً بلقاء واعدا إياها إن أزور سرمدة وأحمل لها من هناك ما تريد من الأجوبة.

حضنتني وقبلتني على وجنتي. فشعورنا أننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل. تمنت لي السلامة، وكنت كمن أودع أحداً من عائلتي.

في الطائرة، وعلى مدى خمس ساعات ونصف، لم تبارح حكاية السيدة عزَّة توفيق رأسي؛ بالطبع لم أصدق حرفا واحدا مما حكته، ولكن ثمة مسّ من الرأفة والحزن يجعلني أتنازل عن برودة عاطفتي، ويتلبسني شوق حار بدأ ينمو في داخلي، لأول مرة مذ غادرت سرمدة قبل سنوات عديدة. شيء ما حدث فيّ، لحظة إشراق أو كشف تشعرني أنني شخص آخر. أخرجت دفتر ملاحظاتي. وبدأت أدون – ولا أريد أن أقول أكتب – حكاية عزَّة توفيق أو هيلا منصور.يدفعني شغف جديد أزاح سلم أولوياتي.

وصلت سرمدة..

حملت حكاياتها معي. تقصّيت وبحثت، قارنت وقاربت. كل ما جمعته في البداية لا يثبت شيئاً، فهيلا منصور ربما تكون عزَّة توفيق، و يمكن أن تكون أيّة امرأة أخرى.

أسبوع كامل وأنا ألوب بين الخرائب والأماكن، أتقصى عن الحكاية، أدوّن وأقارن. يأتيني صوت السيدة عزَّة وهي تروي. فأرى أصداء كلماتها

على المكان ووجوه الرجال والنساء ممن بقوا أحياء بعد كل هذه السنوات، أستفز ذاكرتهم، وأروي الحكاية من البداية.

* * *

– بيدين خاليتين من "التأليل" وبنفس طريقة المشي التي نزلت بها "نبع الملح" قبل ثلاثة عشر عاماً، عند الظهيرة، يوم الثلاثاء، عقب زخة واهية من المطر. وصلت أنا هيلا منصور إلى "سرمدة" من الجهة القبلية.

أبطأتُ خطواتي فوق"جسر الخشخاش"، تأملتُ الوادي المنساب من تحتي، وجالت عيناي على بيوت البلدة ومعالمها التي لم تتغير كثيرا. لملمت نفسي، وكنت مصرّة على البقاء متماسكة في هذه اللحظات، قبل مواجهتهم، فأنا أعرف جيداً قوانين المكان. كل امرأة تتزوج خارج إرادة الطائفة الدرزية سيكون دمها بمثابة القربان المقدس، أو النزوح النهائي، وإلى الأبد.

لم أكن أعبأ بالكثير من التفاصيل، فحين هربتُ بصحبة أزادي، كنت في الثامنة عشرة. تركت أشقائي الخمسة بألم وافر، وشعور كبير بالمهانة.

لكني لبيّت نداءات القلب، ومضيت مدفوعة بفرح غامض تجلله قشعريرة الخوف المضطرم اللذيذ، خارقة قانونا صارما مضى على وجوده أكثر من تسعمائة عام.

* * *

– هيلا منصور.

ردد العم سلامة الاسم وكأنه يلفظ حزناً عميقاً باغته فجأة. صمت قليلا وأضاف:

– كانت أجمل بنت في سرمدة، ما زلت أتذكر ذلك اليوم، كيف أقفرت الشوارع: سحبت النسوة أطفالهن إلى داخل البيوت، صعد بعض الكبار إلى سطوح المنازل، ولف الانتظار والترقب سرمدة كلها.

كنا نظن أنهم لن يفعلوها، ولكن شيء في وجهها يؤكد غير ذلك. فهي تحمل موتها باعتزاز، تمشي بكبرياء وكأنها غير خائفة. الله يرحمها ويرحم أبوها كانت بنت لم يولد مثلها.

أسهب العم سلامة في سرد تفاصيل ذلك اليوم الشتوي. الكثير مما يرويه يتقاطع مع ما روته "عزَّة توفيق" لي في باريس. ولكن كان علي أن أجمع كل ذلك معا بهدوء.

فأنا لا أريد تصديق أن التقمص واقعا، ولا الواقع متقمصا. وأعرف تماما أن حياتنا تتكرر دائما في مدار ثابت لم يمسه زمن، وإن سرمدة – كما بلدات الشرق جميعا – بلدة مكتفية بذاتها لا تتغير كثيرا مهما مرّ عليها الزمن.

معي، حكاية عزَّة توفيق تعود وتختفي. أقارن بينها وبين حكايات الناس فأجد الكثير من التطابق والاختلاف وقررت أن لن أحكم أو أحاكم أحد. فما علي سوى تدوين كل ذلك بأمانة وثائقية، ولكنّ شعوراً غامراً يتلبسني بأن ما ينتظرني، أكبر بكثير من قدرتي على الاستيعاب. على كلٍّ، أعتقد أنني محصن وبعيد عن فلك هذه الحكاية. ما سيحدث لاحقا سيثبت العكس تماما، فحياتي بدأت بالخروج عن سياقها. ابتعدت عن سِكَتها، وخطت مساراً آخر في دغلّ الماضي والمستقبل، واختفى الحد الفاصل بين الأزمنة.

لمعرفة ما حصل لهيلا منصور فعلا. كان يجب فتح المكان المغلق على مصراعيه أمام تهوية من هذا النوع، فالخدر والرطوبة ورائحة التعتق تفوح من سرمدة. كلّ ذلك جعلني أتساءل: هل ولدت هنا؟ هل عشت في هذه الأرض؟

وعلى مدى ربع قرن فيها ظلّ الحافز لمغادرة البلدة النائية يحجب عني رؤية حقيقتي أنا أولا وأخيرا. فبدأت أجمع الصور المتنوفة من

المشهد وتركيب الحكاية. بينما حكايات أخرى صارت تستعد لتنهض من عتمتها.

و إذا كان لي أن أقارن بين ما جمعته من ذاكرة الناس في بلدتي وما روته لي برفيسورة الفيزياء، فقد تشكل أول مشهد أمامي؛ ولو كنت مولعاً بالعنونة لكتبت عنوانا لهذا الفصل: "عودة هيلا منصور إلى البلدة في شتاء 1968 بعد فرار دام خمس سنوات".

فهي تابعتْ المسيرَ بهدوء بيديها الخاليتين من التآليل. تمرُّ وسط البيوت القديمة معززة بشمم قديم ورثته عن أبيها، أحد مقاتلي الثورة السورية الكبرى الأكثر احتراما في البلدة.. وبدأت تدخل في أزقة البيوت الحجرية.

كانت همهمات الناس وهمسهم تصلها نتفا، واكتظت سرمدة بحالة من الترقب اللزج.

- **كم هي جريئة؟** رددت إحدى النسوة.

- **هذه وقاحة وليست جرأة، أجابت الجارة. كان لازم تروح خطيفة. ما عاد في شباب بالبلد.**

- **الله يخزيها.**

- **يا عذرا دخيلك.**

- **ليسعدنا الرب.** ورسم إشارة صليب.

- **سبحان الذي خلقها، صارت أكثر جمالاً.**

- **يقولون: إنه رماها مثل الكلبة بعد ما شبع منها**

- **الله يستر علينا.**

- **حرام عليهم..**

- **يحرِّم جِلْدُها عن عَظمها.**

اجتازتْ الهمهمات المبثوثة عبر دروب البلدة باتجاه دار أهلها

القديمة التي أضحت خرابا بعد أن هجرها إخوتها ليستقروا على تخوم سرمدة معزولين مع عارهم، مخترقة فضاء مكتظا بالعيون المشرعة والأنفاس المرتبكة.

يتخلل ذلك الفضاء همس المترقبين بشوق ممزوج بحامض الخوف اللاذع لنهاية هذه المرأة التي قررت العودة ببساطة لتموت بعد أن وكست رأس عائلتها، ومرغت اسم أبيها وتاريخه بالتراب، وأهانت سرمدة، ونجحت بالإفلات من كل فخاخ الموت التي نصبت لها من قبل إخوتها طوال السنوات السابقة.

الحكاية تبدو متشعبة قليلا، ومن لا يعرف تفاصيلها، سيبدأ بالشعور بعدم الارتياح. لذلك سأسلم الحديث لعزَّة توفيق وأعود لوجهها في مقهى "لي ديبار" يوم جلسنا معا، وننصت لها، حتى يتلاشى ضجيج الموسيقى، المنبعث من الحي اللاتيني. أتابع صوتها. حركات يديها. انسياب الحديث من شفتيها المكتنزتين

مراقبا عينيها اللتين امتلأتا بالدهشة والغموض.

توقّفت فجأة. طلبت من النادل تجديد فناجين القهوة ومياه غازية، نظرت إلي من جديد، بحنوّ ولا مبالاة معا.

- **عندما تجوع أخبرني، سأعزمك على الغداء.**

كان لدينا بضع ساعات قبل مغادرتي. شكرت نفسي لأني حاسبت الفندق ووضعت حقيبتي في غرفة الأمانات. أشرت برأسي علامة الموافقة؛ لم أكن أريد التشويش على حضور صوتها. بأي حركة تصدر مني، كنت أمتصّ كل كلمة تقولها، أخزّنها في ذاكرتي بسهولة، وأجد لها على الفور ملمحا أو مقابلا، مكانا، شاهداً، شيئاً من اصطفاف العلامات تصنع عالما موازيا.

وبهدوئها الحار، تابعت توصيف رحلة البنت القتيلة وكأنها تشرح

صورة واضحة المعالم تراها الآن.

فالدار التي تتحدث عنها أعرفها، وشجرة التوت التي يحرسها نواف منصور، كانت تشكل واحدة من أهم غزواتنا لسرقة الأشجار ونحن صغارا، وهي تحاذي "حوش فريدة" آه.. علي هنا أن أشير إلى أن فريدة وابنها بلخير، سيكونا حاضرين لاحقا، مثل سباق التتابع في الجري حيث كل عدّاء يسلم الراية لمن بعده.

أعود لعزَّة وهي تتكلم عن "تل الريح"، و"جل الضبع" و "جسر الخشخاش"، وشكل البلدة في الشتاء. كيف لهذه السيدة الباريسية الباهرة ذات اللهجة اللبنانية الأصيلة أن تلفظ أسماء الجهات والدروب، وتقص حكاية بلدة مهملة ومغموسة بالنسيان والغبار والملل!؟

كنت أجد متعة لا تضاهى. فرحة تخز القلب وأنا أسمع كل هذه المفردات مخزونة ومدونة في ذاكرتي. بعضها ناقص أو مغاير، ولكنها موجودة وحاضرة، وكأننا نتشارك ذكريات الطفولة فعلا.

على كل سأترك السيدة عزَّة تروي، محاولا تأجيل ذاكرتي التي انفتحت مغاليقها وأبوابها الموصودة فجأة، لأرى سرمدة بطريقة لم أعهدها. وعلى إيقاع صوتها الناعس، وصفت السيدة عزَّة حياتها الماضية، وكيف وصلت إلى بيت أهلها، وهو بيت استحال أقرب للخراب بعد أن تركه إخوتها، فهم لم يتقبّلوا البقاء تحت الأنظار، فتنحوا إلى طرف البلدة تاركين دارهم القديمة عرضة لجيوش النمل، الصراصير والعناكب والعث، وموسومة بالعار الأشوه.

وصفت بروفيسورة الفيزياء وصولها، أو وصول هيلا منصور قائلة:

– وصلتُ خرائبَ الدار. دخلتُ البوابة المصنوعة من "تنك" أكله الصدأ. نظرت إلى الجدران. كنتُ مشتاقة لكل حجر فيها شممت روائح طفولتي المخزونة بين الخرائب وأخذت أدعو الله أن لا يأتوا الآن

فيمهلوني حتى أخرج منها. لم أكن أريد أن أموت هنا. أخاف أن يتسرب شيء من دمي إلى شجرة التوت. فهذه الشجرة كانت صديقة طفولتي، رفيقة أحلامي.. أنا وشجرة التوت وأمي، كنا الإناث الوحيدات في بيت يعج بالرجال والرجولة. وجسد أمي مدفون هنا بجوار الشجرة. فالجميع رفض أن تدفن بعيدا في مقبرة العائلة، في "الخشخاشة". لم أكن أقوَ على جعل أمي تتذوق دمي في عتمتها.

حزنت على الشجرة الهرمة كالحة الأغصان. بدت وكأنها أصغر مثل عجوز كركوبة منزوعة الأوراق. يمكن لك أن تتصور ماذا يعني أن تعرف أنك بعد ساعة ستموت؟

– ماذا يمكن لك أن تفعل بهذه الساعة؟

في الحقيقة، يمكن أن تصنع منها عمرا كاملا. وهذا ما فعلت.

نبشتُ التراب الموحل حول الجذع العملاق حتى نصف ذراع، وأودعت الحفرةَ وصيتي. لم تكن وصية مهمة، ولهذا لا أتذكر ماذا كتبت فيها. إنما نوع من الرغبة بترك أثر ما، فوق أو تحت هذه الأرض. ودفنت أساور أمي الفضية، وجرساً صغيراً كان يعلق برقبة البقرة صديقة طفولتي وحزني الأول. وطلبت السماح من روح أبي وأمي، وغفرت لإخوتي على ما سيفعلونه بي بعد قليل!

والمضحك حتى اليوم حين أتذكر دخولي إلى الدار أشعر بالحزن لأني لم أكنسها وأرتبها من جديد، وأسقي الزرع، وأهتم بنبتة بالكاميلة والنرجس والعطيرة وأشذب الياسمينة وأعيد لها الحياة.

نعم، أنا هربت مع غريب قبل سنوات، شردت معه لأني أحببته. ولكن يوم هربي معه، كان فعلا مصادفة. كان خوفا أو رغبة، لا أعرف ولا أتذكر، وربما لن أقدر يوما على تفسيره.

صفعني أخي نواف بكفه العملاقة. كان الرعاة قد وشوا بي على أني

أقابل أزاداي عند الكروم الشمالية. وضبطونا متعانقين نتبادل قبلة. كانت أول قبلة لي تحولت إلى الفضيحة عمت البلدة. واشتعلت كالنار في الهشيم، وأيضا أول صفعة لي في حياتي. لم يفعلها أحد من قبل.

نزف أنفي يومها. تراجع أخي لمّا رأى الدم يُحنّي وجهي. تركني غاضبا وغادر.

أمي ماتت وهي توصيهم بي: أنا صغيرتهم المدللة وأختهم الوحيدة. رائحة أمهم مشبعة في مساماتي. كانوا يتسامحون معي غير كل الإخوة في سرمدة. يوم طارت فضيحة تقبيلي للرجل الغريب، صار بمثابة يوم كارثة لهم.

ففي سرمدة يمكن إخفاء أي شيء للأبد، كتم أي سر مهما كان. إلا الحب، فهو مفضوح! ليس الجنس ولا العلاقات الجسدية، فالكل له علاقة ما. ولكن مادامت جسدية لا تفضح. أما الحب، فشيء ما يساعد على كشفه وإظهاره؛ يطيّره من مكانه ويجعل الآخرين يلوكون المحبين. فأصبحت على كل لسان..

في الغرفة التي تطلّ على الحاكورة، كنت أبكي وأنفي ينزف، بينما هم يناقشون ماذا سيفعلون به؟ كانوا يهددون بقتله وفي أحسن الأحوال سيضربونه بقسوة حتى يهروا جلده. لم أكن أحتمل فكرة رؤيته يتعذب، فصار لزوما عليّ أن أحذره ليهرب.

كان خائفا وحائرا ولا يعرف ماذا يفعل، ولكني متأكدة من أنه لن يهرب.

توجهت بهدوء إلى سطل الماء في العتبة. اغتسلت وسرحت شعري المعربس والمتلبد بتخثر الدم. رفعته إلى الأعلى وعقصته على هيئة ذيل حصان. حملت كيساً صغيراً وضعت فيه بضع حاجات بلا معنى، ولا أعرف لماذا دسست جرس البقرة فيه وخرجت بهدوء. أصواتهم العالية وحنقهم المحموم منعهم من الانتباه لي. لم يكونوا يتخيلوا أنني أملك

جرأة الخروج بعد الفضيحة.

سمعتهم يرتجلون النخوات ويتصارخون. عبرتُ من خلفهم؛ كان يكفي أن يلتفت أيّ منهم ليراني خارجة، لكنهم تابعوا صخبهم. مشيت وسط سرمدة غير مرئية.عرفت أين أجده. فقد اعتدنا الأيام الماضية على توخي السرية وصرنا نعرف كيف نلتقي بغفلة من العيون الشرهة. لم أبحث طويلا. وجدته بالقرب من الكروم. تعانقنا بخوف، وأذكر أنني رأيت دموعه، رجوته أن يغادر بسرعة. أخبرته بنية إخوتي في قتله أو تأديبه، وأنه من غير المجدي مقاومتهم. طلبت منه الرحيل فورا من سرمدة وأكّدتُ له بأنني سأظل أحبه للأبد. دفعني بقوة ثم أمسكني من كتفي وقال: "لن أتركك. أموت هنا، أو تأتي معي، ولن يفرقنا سوى الموت" صرخ بي معلنا أنه لن يتزحزح، لن يغادر إلا معي، كان جادا واثقا ومصرا.

كانت له أجمل عينين غاضبتين في الدنيا. حضنته نعم، ذبت به وكل ما أذكر أنني أسلمته روحي وجسدي، وسلمني روحه وجسده. كانت بضع قطرات من الدم كافية لأفقد عذريتي. معها أخسر كل قيودي دفعة واحدة. لم تكن نزوة ولا لحظة ضعف أبداً، بل حقيقة اخترتها دون أن أفهمها. بقيت بين يديه شبه عارية معفرة بالتراب والغبار واللذة.

نظرت إليه وقلت: مشّي. رايحة معك!

مشينا معا طوال سنوات تشردنا، وأكلت أقدامنا الدروب والمدن والقرى. حاولنا أن نهرب خارج البلاد دون جدوى. لكن كنا نمشي ونمشي. أجمل ما أذكره، ما بقي عالقاً في ذاكرتي: إننا مشينا معا.

ومن يومها شعرت أنني خلقت لأمشي. وبقيت مسافة قصيرة كان علي قطعها لأصل النهاية المحتومة، فتركت الدار بعد أن دفنت وصيتي وجرس البقرة وأساور أمي ومشيت باتجاههم...

* * *

كل ما جمعته من دلائل، يؤكد أن صباح اليوم التالي لفرارها، كان بمثابة كارثة لأولاد "حمد منصور". تجمع أهل البلدة في ساحتها. بعضهم للشماتة، وآخرون للمساعدة، وقام الإخوة بوضع كتب الحكمة والقرآن والإنجيل فوق بعضها وأقسموا قسمهم الغليظ.

حلفوا- بعد انتشار خبر فرارها بصحبة "خرندعي" كما لقبوه - أن لا توقد لهم نارٌ، أو ينزل عندهم ضيف، ولا يكون لهم رأي، ولا تحلق لأحدهم لحية حتى تجزَّ رقبتها.

قال العم سلامة، وهو يتذكر تلك الجمهرة التي حضرت لتتفرج على الفضيحة:

– قَسَمٌ التحفوه ليستر شرفهم المفضوح، ويسكت نميمة الشماتة، في مكان لا يرحم – ليس من يخرج عن العرف فقط– بل كل ما يتصل بها بصلة.

فاستمرت حياتهم طوال السنوات الخمس تزداد عزلة، ولحاهم بالاستطالة، حتى غدت أيامهم وأشكالهم متشابهة لدرجة التضليل. يعني ليس من الممكن أن تفرق بعضهم عن بعض. كانوا عندما يمشون معا، يثيرون الاستغراب. نفس الملابس، نفس الوجوه، نفس القتامة، ولحاهم الطويلة تغطي وجوههم.

كانوا جادين بقتلها. بالأحرى لم يعد لهم من عمل سوى ذبحها.

الخوري إلياس، صاحب الروح الطريفة والبديهة الحاضرة، أخذني بالأحضان، سألني عن أحوالي. كنت – فعلا – مشتاقا إليه؟.

فهو بمثابة عرّاب لكل جيلنا. عمّد أطفال سرمدة، ورعاهم جميعهم، مسيحيين، دروز، ومسلمين وكأنهم كلهم خراف الرب، كما أنه جعل كل الأطفال المسيحيين يتطهرون ويختتنون مثلهم مثل باقي الأطفال الدروز والمسلمين. فهو معروف بخفة ظله ورقة روحه، وقدرته على خلق النكتة

والفرح من أي موقف مهما كانت مرارته.

ومن عادة أهل سرمدة تعميد أطفالهم منذ سكن الجميع هنا قبل ثلاثمئة سنة قادمين من لبنان، فأصبح طقسا دينيا خاصا واجتماعا لكل الطوائف الموجودة هنا. شيء لم يستطع أحد فك سره؛ ففي لبنان أيام الحرب الأهلية، والذبح الطائفي يتم على الهوية، والتنكيل بالجثث، وفغر جماجم الآخرين بالكمبريسات، والذبح بشفرات الحلاقة، والاغتصاب بقناني الويسكي! كانت سرمدة تتعايش ببساطة. ومازلت أذكر أنه في عام 1983 هربت عائلتان، مسيحية ودرزية، من جبل لبنان وجاءتا إلى سرمدة حيث الأقارب طلبا للأمان. ما لم يستطع العقل الطائفي اللبناني فهمه: كيف لبلدة درزية أن يكون مختارها مسيحيا! وكيف لمسيحيي سرمدة أن يتبرعوا لبناء مجلس، مكان العبادة الخاص بطائفة الدروز، في البلدة!.

والدهشة كانت كبيرة بعد تدشين كنيسة البلدة. إن أول عرس فيها كان عرسا درزيا. على أيٍّ حال، لا يمكن أن يفهم سرهم وتركيبتهم الخاصة، إلا لمن عاش في سرمدة، أو في بلدات سورية التي تشبهها.. فحتى أثناء الثورة السورية الكبرى. كان مجلس القيادة يضم بطلا مسيحيا،العقل الاستعماري الفرنسي الذي قسم البلد إلى دويلات وطوائف، لم يفهم كيف لمجاهد أو ثائر أن يكون مسيحيا، فكانوا يدعونه خائنا..وحين يشتد الخوف على الكتب الحكمة السرية الدرزية والخوف من حملة المصادرة لها، كانت تحمل لبيوت المسلمين والمسيحيين خوفا من التفتيش والمصادرة.

نعم، كبر الخوري إلياس بسرعة. لم أره منذ سنوات، ولكن تلك الطيبة الآسرة ما زالت تشع من عينيه الباسمتين. وحين سألته عن مقتل هيلا منصور وإن كان يذكرها، أجابني بحسرة:

– شو بدك بنكش الماضي.

قلت: محتاج اسمع الحكاية عن جد. وماذا حدث بالضبط. يمكن نصور فيلم عن الموضوع.

– من كان منكم بلا خطيئة.

ردد العبارة الشهيرة للسيد المسيح، وتابع بعد أن أخذ شهيقا، وزفره بحزن.

– بتعرف يا رافي أنو أقسى أنواع الموت هو الموت بداعي الشرف. المسيحية تطهرت من الزنا الحسي. وقشور الجسد. ورغم هيك مازلنا نشهد مثل هذه الحالات. ولكن هيلا منصور كانت غير، فعلا. كان قتلها أقسى شيء مر بحياتي.

تعكر وجهه وعاد إلى ذلك اليوم. يخطو خطواته الأولى باتجاه الخورنة:

– نعم لا زلت أذكر رائحة ذلك المساء. زنخة الموت زكمت المكان، وصلهم الخبر، وأنا ركضت إليهم مع بعض شباب البلدة. في البداية فكرت أن ألوذ بالكنيسة فأكتفي بالصلاة وتجنب رؤية الموت العلني. ولكن بعد أن رأيتها أحسست أنه يجب منع الأخوة من ارتكاب الحماقة. وصلنا بيتهم المعزول جوار المطحنة. كان نوّاف – أخوها الأكبر – وحيدا. رمقنا بلا مبالاة. جاء إخوته يهرلون. توافدوا تباعا. كانوا متوترين يدخنون بشراهة لما تجمعوا. قال أحدهم: وصلتْ.....؟

أين هي الآن؟استفسر نوّاف: راحت إلى الدار. أجاب الصغير.

وبسرعة وكأنّهم تدربوا على المشهد آلاف المرات: توزعوا بين أرجاء المكان المكتظ بأكياس الخيش ومناجل الحصاد ومناكيش الفلاحة. بحثوا عن الأدوات الصّدئة. صاروا يكشطون عنها الصدأ و شرعوا بشحذ وسَنّ أمواس الحلاقة والسكاكين والسواطير بهدوء.

كنا نرجوهم أن يحكموا العقل، أن يدعوها بسلام، ونحن نتولى

طردها من سرمدة. فما كان من نّواف إلا أن لقّم "الجفت"، وأطلق "صوابين" في الهواء. ثم انفجر صائحا بنا: يالي بدو ينقبر اليوم، يظل واقف دقيقة بعد.

كان مصراً مليئاً بالوجع، وقلبه لم يصفُ أبدا.. غادرنا خائفين. وبعد أن مضينا، نادى بصوت مخنوق: ليكو، اسمعوني مليح.

وبعد أن استدرنا إليه.. غصّ "الأبونا إلياس" قليلا، أخذ رشفة من كأس الشاي الثقيل وتابع تذكر تلك اللحظات القاسية، بينما معالم وجهه السمحاء قد تعكرت تماما وهو يروي لي تفاصل ذلك اليوم المحفورة في قلبه.

من سوف يحميها، راح تنتكل أمه اليوم. ما حدا يتدخل، وأطلق طلقتين أخريين من "جفته" تأكيدا على جديته.

صليت للعذرا. سرمدة – جميعها – صلت من أجلها ومن أجلهم. هذا أقصى ما كان يمكن أن نفعله. ربما كان يمكن أن نفعل شيئا أخر. ولكن يومها، لم يكن أحد يستطيع أن يفعل شيئا.

تركت أبونا إلياس وقد استرد بعضا من بشاشته ووعدته بزيارة أخرى إلى البيت والسلام على العائلة التي اعتبرها عائلتي. ومشيت متسائلا: هل توضحت الصورة، أم لا؟ وهل مهم أن يكون هناك صورة أو حكاية أصلا؟! ولكن ثمة إغراء يقرب حدود الإغواء في بوح الناس؛ فهو مزيج من الاعتراف والتكفير، أو الثرثرة الساذجة بلا هدف.

قصدت دكان البلدة الأقدم، مكان يجتمع فيه الناس يتبادلون النمائم والأخبار. ممدوح "الدكنجي" يستقبلني بفرح كالعادة بعد كل غياب، نجلس على مصطبة الدكان. سألته عن إخوة هيلا، أجاب: شو جابن على بالك؟

– قلت: ما بعرف، حابب أعرف عنهن وين صاروا؟ من هم؟ أي شيء!

سكب فنجان القهوة وراح يحدثني:

– كنت ولد صغير، يعني سبع أو ثمان أعوام. أتذكرهم وهم يأتون إلى هذا الدكان أيام الوالد. كنت أخاف منهم، ولكن الوالد –الله يرحمه– كان لطيفا معهم. ويوم سألته عن أحوالهم قال لي: يا ابني، ما أغلى من الحياة نفسها غير العرض والشرف. الله يعينهم.

كانوا يأتون إلى الدكان، يسلمون بكلمة واحدة، وأحيانا كثيرة لا يسلمون ولا يردون السلام. يشترون حاجتهم، يقايضونها في الأغلب بالبيض والحليب، ثم يختفي بعضهم لفترة. كانوا يطاردونها. يتقصون أخبارها، ويدفعون لمن يجيء بخبر عن مكانها. أنا رأيتهم في هذا الدكان هنا "مطرح" ما أنت جالس. دفعوا مئة ليرة لأحد البدو ووظفوه ليقصّ أثرها.

يأتي العم سلامة وبيده مجرفته التاريخية؛ نادرا ما كنت أرى العم سلامة بلا مجرفة.. ينضم إلينا أمام الدكان، وكالعادة يستلم الحديث من ممدوح بعد مناكفات ساخرة.

ويوضح لنا بأنّ سرمدة هي السبب، وأنّ جميع أهل البلدة مسؤولون بطريقة أو بأخرى عمّا حدث:

– فبعد السنة الأولى من فرارها خطيفة مع الغريب، لم يكن أحد يرغب بالحديث عنها أو الشماتة بهم. ويضيف العم سلامة:

ولكن الأوان قد فات.. الناس أكلت وجههم، تندروا عليهم، سخروا منهم، ورويداً رويداً حلّت الشفقة على ما أصابهم، ولاحقاً صار الجميع يشعر أنهم مذنبون بحقهم. حاولنا إقناعهم بالعودة إلى حياتهم، وأنّ أحداً لا يشك برجولتهم. فشكلنا وفدا من عقلاء الجبل وشيوخ سرمدة والخوري إلياس ومطران الجبل. زرناهم..

وبدأ العقلاء والمتحدثون والوجهاء يروون ويقصّون الأمثلة الباهرة عن إرادة الله. وأن القضاء والقدر لا مواربة فيه. طالبوهم بالتحلي بالعزيمة

لنسيانها، ويكفي أن يعلنوا براءتهم منها ويتركوها لخالقها، هو يحاسبها على أعمالها.

ففي الآخر كل شيء مقدّر، وعليكم أن تسلموا بقضاء الله.. كان رد نوّاف – الأخ الأكبر – حازماً قارساً.

يتذكر العم سلامة تلك الكلمات التي أطلقها نواف بخوف ورهبة ممزوجة بالحزم وهو يرد على أحد الشيوخ، الذي دعاه للتحلي بالعقل والبصيرة، ويسلم الأمر لقضاء الله وقدره:

– الموضوع ما إلو دخل بالله يا شيخ. الموضوع أكبر من الله بكثير!.

يتابع العم سلامة وهو يحرك ذراع مجرفته بشكل دائري يعكس توتره:

فخرج يومها الشيوخ والوجهاء منزعجين من هذا التجديف العلني، تاركين الإخوة الخمسة يختاروا ما يشاؤون لإنهاء مقطوعية الندم والعودة إلى صواب الواقع.

بعدها هجروا دارهم القديمة في وسط البلدة بجوار "مجْلس حمزة"، ليتجنبوا الناس.

وحين سألت الحاضرين عن "أزاداي" الشاب الخاطف، تحدثوا عنه مرة باحتقار، وأخرى بغموض وهيبة؛ ومع تزايد عدد الحاضرين والحاضرات أمام دكان ممدوح، تحولت الجلسة إلى حكايات أخرى. الكل يدلي بدلوه. بعضهم يتذكر رواية أهله. بعضهم عايش الحدث، وبعضهم سمع عن الحدث ويبارك فعلتهم القاسية.

وهنا يتدخل الشيخ شاهين، كبير البلدة وسائسها: **القتل حرام وممنوع أصلا عند خروجها والزواج من غير الملة، فهي تعود لأصلها.**

تساءلت مع الحاضرين: **كيف ذلك يا شيخ، شو يعني تعود لأصلها؟**

حينها صارت كلمات الشيخ منتقاة بعناية، فمن غير المباح أن يعرف الجهّال: أي نحن الذين لم يتسلموا سر الدين، معلومات دقيقة عن أسرار الطائفة الغامضة.

فالمجتمع الدرزي مقسوم دينيا، إلى عقلاء يكدون لمعرفة الحقيقة وتمثلها، وجهال ممن لا يطلعون على الكتب المقدسة الستة وشروحها.

قال الشيخ: إن الدعوة الدرزية أعلنت سنة 408 هـ. \1018 م. لجميع الطوائف والملل والنحل في مصر الفاطمية، ونشرت الدعوة في الشام ووادي التيم على الوجه الأخص. وضع فلسفتها حمزة بن علي الزوزني. منشقا عن الإسماعيلية، وكان يسميهم الشيوخ المتأخرين، مطلقا لأول مرة في التاريخ الإسلامي، تحريم الزواج أكثر من امرأة واحدة، وأقفلت الدعوة على من فيها سنة 436 هـ. بعد أن كتب الداخلون وثائق انتساب على أنفسهم، يتعهدون من التبرؤ من جميع المذاهب والملل، إلى أبد الدهر وفي كل أدوار التقمص التي سيتعرضون لها، وهي تسمى أدوار الكشف، لأنه أثناء انتسابهم للدعوة اندس بين المنتسبين مجموعة من أهل الشك والبهتان، وهكذا في كل جيل أو حياة، يتم تشذيب غير الدروز من الملة بأن يعودوا إلى أصلهم، ويتزوجوا من خارج الطائفة. ومن هنا يحرم قتل أي درزية تخرج من الملة، بل على العكس، يجب الاحتفاء بذلك. لأن هذا بمثابة تطهير لنقاء الدم ونقاء الفكرة. كعملية تنقية ذاتية أوتوماتيكية.

كان هذا الرأي المستند إلى نصوص الحكمة المقدسة. يعطي تبريرا دينيا، ومساحة للخروج من أسر الطائفة المغلقة. ويبرر الخطيفة والخروج على الملة. دون الحاجة لسفك الدماء.

ولكن لماذا لم يستمع آل منصور له؟ سألت الشيخ شاهين مستفهما.

– إنها العادات والتقاليد أقوى من الدين نفسه لمن لا يفهم ولا يقدر قيمة العقل.

استفسرت أكثر.

– وهل يوجد تشريع بالقتل في كتب الحكمة الدرزية ومتى يجوز وفي أي حالة؟.

أخذ الشيخ وضعية العارف الحازم وأسمعنا أجابته القاطعة:

– ولا حتى الصفع أو الزجر. فهذا غير مقبول وحرام أيضا.

ففي عرف التوحيد والمذهب الدرزي، الرجال والنساء متساوون. والرجال ليسوا قوامين على النساء. ولا يحق للرجل الزواج إلا من امرأة واحدة، ولها حق بالميراث مثلها مثل الرجل أو حسب وصية المُورث. ولها نفس الحقوق وعليها نفس الواجبات كدرزية موحدة؛ وأكثر من هذا، لا يمكن للرجل التطليق أو الحلفان بالطلاق على المرأة. وإن فعل لا ترد إليه، ولا يمكن التكفير عن النطق بهذه الكلمة. لكي لا يستسهل الطلاق.

وقبل توديعي الحاضرين أمام الدكان، تقدمت رئيفة أم إبراهيم. **همست لي: – أنا كنت صديقة هيلا. وكنت أعرف كل شيء عنهما. ورافقتها عدة مرات لرؤيته، كان شابا رائعا. لا يقاوم.**

تمشيت مع رئيفة حتى جسر الخشخاش. وخلال الدرب، كانت رئيفة تحضر لي صورة الشاب الخاطف: كم كان طيبا. سره وسحره إنه **غريب وكل غريب مرغوب. وليست هيلا وحدها من أحبته، لقد فتن كل صبايا سرمدة. فهو بمثابة نافذة على عالم ملون لا يشبه بلادة وروتين مكانهم.**

صارت نُتَف الصور تتجمع لتشكل فسيفساء المشهد. بت على يقين من أني أقترب من هيلا منصور، ففي الآخر، خرجت بالصورة تشابه بالسطح ما روته السيدة عزَّة توفيق، ولكن هذا يحير فعلا لأنه يمكن لمثل هذه الحكاية أن تتناقل بسهولة فيتبناها أو يتقمصها أي أحد. كان لابد من الخوض أعمق واستقصاء المزيد من انطباعات الناس واستفزاز ذاكرتهم

ممن عايشوا تلك الأيام ويعرفون ما حصل ويتذكرون "أزاداي" فأهل سرمدة يقولون إنه

واحد من الدوّارين المغاربة، الذين يجولون على القرى والبلدات يبيعون الأمشاط والحظوظ والكلام المنمق، ويحملون خرائط قديمة يبحثون عن علامات مرقوشة تفضي إلى كنوز مدفونة. جاء سرمدة ونصب خيمته يبيّض النحاس، ويرمم الأواني، ويكتب أحجبة بحبر سحري ورثه عن أسلافه البصارين والسحرة في جبال الأوراس، ويتقن معرفة رموز "داهية بنت لاهية" عرافة قبائل "البتى الزناتية" كبرى قبائل الأمازيغ.

صحيح أن العرافة الشهيرة اكتسبت شهرتها من مقارعة جيوش الفتح الإسلامي انتقاما لمقتل حبيبها كسيلة بن ملزم، ولكنها ظلت في بدايات التواجد الإسلامي في المغرب، رمزا للدهاء والروح الأمازيغية الخاصة. أسبغت عليها المخيلة الشعبية كل ما تفتق عنها من شطحات وألغاز، وأصبحت بمثابة المرجعية لمن يتعطى ويعيش بالرموز المبهمة لفك طلاسم الحياة.

فأزداي من عائلة ملزم، ينسب نفسه للقائد الأمازيغي الذي قتل دفاعا عن الأوراس قبل أن يبسط الإسلام سطوته على المغرب، وتبقى خصوصية الأمازيغ تمور تحت الرماد.

قدم هذا الشاب المُدرب في سيرك الطبيعة الأوراسية، عرضا فريدا أمام سرمدة. استطاع أن يحرك مكنسة قش بنظراته ويُسقط طائر "قطا" كان يمر مع سرب مهاجر صريعا أمام الحاضرين، ويعزف على غيتار خشبي غريب الشكل أنغاما جعلت كلب "دحام الأبرص" يعوي طوال الليل بعد أن أصابه البكم طوال سنوات.

وبعد انتهاء الأعاجيب التي أدهشت سرمدة، جلس ليغني لهم

بصوته الساحر أغنية أطربت الحضور، وظل الكثيرون يرددون لحنها طوال أسابيع.

نال رضا واستحسان الأخوة، فصفقوا له إعجابا، وتمادى أوسطهم ودعاه لزيارتهم في البيت. سمروا طوال الليل وثملوا بألفية عرق معتق؛ وجاءت هيلا حاملة "السدر" طبق الطعام المزين بالمازة. جلست قبالة "أزاداي" الجزائري. -في الشرق، كل من يأتي من المغرب العربي هو مغربي- تراقبه بهدوء. تتفحصه بعين مليئة بفضولية حب الاكتشاف وقلب عارٍ. كان يملك شيئا ما في حضوره جعلها تنسى كل الوصايا المحظورة لفتيات الدروز: إياك والغرباء، فلا يوجد أمل لحكاية حب بين درزية خارج نطاق الطائفة الضيق.

كان شابا في الواحد والثلاثين، يضج فتوة بحضور آسر. وبعد كأس العرق الثانية، بدأ يغني أغنية عجيبة من التراث القديم اسمها: "أينوفا وغَرَيّبا".

صوته الساحر ينثال في فضاء الدار الكبيرة. غابت الكلمات الأمازيغية الغامضة التي لم يفهموا منها شيئا سوى جملة "وحش الغابة"، ونداء "يا يوبا يا يوبا" المشبعة بهواء جبال الأوراس. فطالبوه بترجمة معانيها، فراح يحاول جاهدا تقريب الكلمات إلى العربية:

"يا أبي افتح لي الباب
يا ابنتي، أسكتي صوت أساورك"
"يا أبي أخشى وحش الغابة
يا ابنتي وأنا أخشاه".

الأغنية حملت للمكان فخا من العواطف الندية. بدأت تكلل هيلا الواقفة قبالة الباب تصغي بقلب مفتوح على مصراعيه دون مزاليج الوصاية.

يحملها الغناء بعيدا إلى هواء آخر. وحين التقت عيناهما، كان ثمة خيط سري بدأ يربط مصيرها بهذا البربري الشارد. شعر أن عينيها تلفانه برياح الحنين الجارف، وأن رحلته العجيبة من أقاصي المغرب في جبال الجزائر إلى سرمدة، كانت ليحظى بهذه النظرة التي أشعلت قلبه وجعلته يكسر ما حرّمه على نفسه سابقا، وأن يكون سفيراً محايداً يلتقط رزقه ويتابع البحث عن جذوره القديمة في بلاد الشام.

* * *

أمام تمثال القديس ميشيل، كانت فرقة من الشباب الأفارقة يؤدون مقاطعا من الغناء. تحلق الناس حولهم، وصخب قرع الطبول، وخشخشة الآلات، والصوت الإفريقي الناضح بالبراري، لم يمنعني من الإصغاء المتتابع لبرفسورة فيزياء الكمّ وهي تحكي تفاصيل مدهشة تجعلني أشكك بقدرة الذاكرة على نقل هذه الصور والمشاعر والأفكار من جيل إلى آخر.

كانت قد دفنت جرس البقرة الصغير ووصيتها وأساور أمها تحت شجرة التوت، وغادرت المنزل باتجاههم.

وتابعت سرد ما تسعفه ذاكرتها القادمة من وراء الموت.

فهما هربا إلى دمشق. تزوجا هناك. تخفيا بأسماء مستعارة، يتبعهم قفاة أثر لا يكلّون، وزادت تعقيدات تخفيهم بفشلهم الذريع باجتياز الحدود ومصادرة أوراقهم الثبوتية. كانا ملاحقين في كل مكان، فسلطة أبيها كبطل من أبطال الثورة السورية الكبرى جعلت النافذين من رجال الجبل يعممون اسم أزاداي على الحدود كلص خطير مطلوب من كل أجهزة الأمن، فأصبحا طريدتين سهلتين معرضتين دائما للابتزاز والاكتشاف. من السهل معرفة أمرهما، فلهجة الجزائري ولهجتها تجعلان منهما ثنائيا رديئا للتخفي. فلم يكن لهما سوى اللجوء إلى بدو شمر ليحظوا ببعض الأمان المؤقت، حاول أزاداي على مر سنواتٍ الوصول إلى العراق أو

الهرب إلى تركيا دون جدوى، فقد وقعا مرتين بشرك محكم من الهجّانة المرتشين من الأخوة. كانوا لا يبيتون أكثر من أسبوع في مكان واحد. منهكين إلى حد التلف من الترحل الدائم، حتى وصلا الزبداني. انتظرا هناك أسبوعا برفقة المهربين، وغامر وحيدا باجتياز الحدود إلى لبنان والعودة ليتأكد أن كل شيء بخير. عاد متخما بالأمل والفرح. سيقطعان الحدود مع المهربين، خَبر الطريق، وتأكد أنها ستكون بخير. كان الأمل قد عاد يبرق من بعيد معلنا نهاية زمن التشرد. سيذهبان بعيدا، ويعودان إلى الجزائر. تدفقت الأحلام أمامها. كانت تضحك ولكن بعنين مليئتين بأسى من نوع آخر. فهي راهنت على الوقت. كانت تتقصى أخبارهم عبر "الدوارين والنحاسين ممن يزورون سرمدة"، وبنفس الوقت، تملك حاسة مدهشة للنجاة من الموت. كانت تعرف ماذا حدث لهم، وكيف نفوا حياتهم وارتهنوا.

إنها لحظة، عليها أن تقرر الذهاب بعيدا وإلى الأبد، أو العودة؟

السيدة عزَّة توفيق أخبرتني بوضوح عن تلك الليلة، وكيف صعق أزداي وهي تخبره بقرارها بالعودة، وأنها لا تريد الاستمرار أكثر.

– ما زلت أتذكر صوته وصدى كلماته، توسلاته لي أن أبقى وألا أتحامق بالرجوع.

صار يشتم بالأمازيغية. ويرجوني بلهجة الجبل. لم يترك وسيلة ليثنيني عن قراري بالعودة: بالودّ والتوسل، وبالتهديد والوعيد. كانت كل المحاولات تنتهي إلى جملة واحدة أقولها بكل هدوء وثقة: لازم أرجع.

يحار، يضرب رأسه في الحائط. ينشج. يمزّق ثيابه. يرتمي متوسلا على الأرض..

– لازم أرجع..

يهزني من كتفي. يضغط على يدي. تنغرز أظافره في جلدي.

- لازم أرجع...

- طيب خذيني على "قدْ عقلي"، وأعطني سبباً.

- لازم أرجع...

ما لم أستطيع شرحه له، أن قراري كان من أجل الجميع. كنت أريد إعطاءه فرصة ليحيا دون خوف. كنا نتنقل كل شهر من بلدة إلى بلدة. خبرنا سورية، من شمالها لشرقها. من ساحلها لصحرائها متنقلين مثل طريدتين هشتين؛ كان مجرد أن نشتبه بوجود أحد من الجبل يعني الهروب السريع.

وما حصل لإخوتي جعل جبل الدروز كله متعاطفاً معهم. كانت أخبار اعتزالهم الحياة تنتشر خارج الجبل، وأصبحت حالتهم تحظى بتعاطف فاقَ الطائفة نفسها. كل من سمع بحكايتي، لم يغفر لي، فقد حكمت بالإعدام على حياة خمسة شبان من خيرة شباب سرمدة. فأصبحنا ملعونين. لا مكان لنا في هذا البلد. وربما في العالم أجمع.

كنت أعرف يباسة رؤوسهم. ورثوا هذا الإصرار الملعون عن أجدادهم. قسوة على الذات، أقرب إلى طقوس التعذيب.

فصرتُ أقتل كل يوم ألف مرة.. فلا مناص من العودة ليسترد الجميع سيرورة حياتهم.

حضنته تلك الليلة بحرقة لا مثيل لها سوى بكائي يوم موت أمي ومصرع البقرة "أميرة"

شعرت هذه المرة، أنه يمكن فعلا اجتياز الحدود والذهاب إلى بيروت ومنها إلى أي مكان آخر أكثر أمانا أستطيع أن أعيش فيه مثل كل خلق الله. ولكني لم أعد أريد المضي أبعد.

مع الفجر غادرت البيت المستأجر هاربة منه دون أن يشعر بذلك قادمة من الزبداني إلى دمشق، ومنها إلى كراجات باب مصلّى لتصل إلى

سرمدة، مساء يوم الثلاثاء، عقب زخة واهية من المطر، لتمشي إلى بيتها القديم، تترحم على أمها وتتذكر حياتها، وتطلب الصفح من المكان، وتدفن وصيتها وتتابع المسير في دروب البلدة بجوار "جرف أميرة" لتواجههم في منتصف الساحة، وتذبح كما تذبح الشاة!. تركت الرجل الذي يتقن ابتكار الحكايات، والزغولة في القلوب الباردة، وعشر مهن عجيبة. الرجل الذي يصنع الدهشة أينما حلّ، و يبيع المناديل المعطرة بالحظوظ، والأعشاب المغيرة للأحوال، ويعزف على القيثار الغريب الشكل، يرتجل القصائد، ويفسر الأحلام، ويغني بصوت ساحر. تركته نائما بعد أن انتزع منها وعدا كاذبا بأنها سترافقه بعد يومين إلى بيروت..

توقفت عزَّة توفيق عن الكلام. اختلّ فضاء المكان طلبت مني سيجارة، أشعلتها وسرحت، ليس إلى البعيد، بل غامت عيناها إلى الداخل. قدمها اليسرى ظلت ترتجف وهي تروي وتروي وكأنها تقذف صمتا قديما. تخرج ثقلا بعد مخاض. لم أشأ أن أقول أيّ شيء.

سرحت باتجاه السين. اللوفر يطل من بعيد، والحي اللاتيني يضج بالحياة.. أخذت تتلمس ظاهر كفها الأيسر بأصابعها اليمنى. كان ثمة ثؤلول صغير على ظهر يسراها، ونقطتين غامقتين لثؤلولين غائبين.

رأتني أرقب صمتها وأحدق بظاهر يديها. لم تزحها. همست بسخرية:

- ما قدرت أشفى من الثآليل، أصلا علاجهن يحتاج إلى طبيب نفسي ويمكن زوالهم فقط بالإيحاء. ومن المفارقات أنو هيلا منصور شفيت منهن عن طريق وصفة آرامية قديمة. أنا هنا في باريس عام 2010 ثلاث عمليات ليزر ولم أشفَ تماما. يمكن محتاجة أرجع على سرمدة والشفاء بنبع الملح.

حدقت السيدة عزَّة بعيني وسألتني: **طبعا تعرف نبع الملح؟** أجبت:

نعم أتذكره. وأنا صغير كنا نذهب لنشرب منه الماء البارد. ننزل إليه أربع درجات حجرية. ونغرف منه. أعتقد أنو مياهه أطيب من مياه أفيان.

حاولت كسر الجدية وإضفاء شيء من الخفة. لكنها ظلت جامدة.. ارتسمت على وجهها ابتسامة شاحبة. تابعتُ الروي بهدوء وثقة. كانت تريد إخباري بكل تفصيل ممكن، لتقنعني بحكاياتها، أو لتتحرر منها لا أعرف؛ فوصفت لي كيف خرجت من الدار القديمة وهي تمشي لمعانقة قدرها.

وأنا أمشي باتجاههم، كنت أتلمس يدي..أتذكر نبع الملح و البقرة أميرة.

لأنو بنفس اليوم يالي وقعت فيه أميرة من الجرف، شفيت يدي من الثآليل بفعل وصفة الخالة روزا..

– أنا كنت هناك يوم سقوط البقرة أميرة من أعلى الجرف. كان عمري وقتها حوالي ثمان سنوات، وكنت أتبع نصيحة آرامية قديمة، أعطتها إلي الخالة "روزا" العجوز المسيحية الحكيمة مع فصي ملح حجري.

قالت لي لا تكلمي أحداً، لا تنظري للخلف، ولا تردي السلام. فقط سيري إلى النبع وارمي الفصين في الماء، وعودي بنفس الطريقة.

رحت إلى نبع الملح. نفذت الوصية وعدت إلى البيت بعد أن رددت التعويذة بيني وبين نفسي ثلاث مرات: أذب يا نبع ثآليل يدي كما يذاب الملح بالماء..

نمت في حضن أمي. استيقظت مذعورة من الغفوة السريعة، على صوت لغط كبير في الخارج. نهضتُ واقفة لأستطلع ما حدث.

رأيت أبي واثنين من الرجال يسنون أمواس الذبح، ويخرجون مسرعين. تبعتهم حتى جرف المغارة، وهو تجويف صخري كان الناس يحتمون فيه من غارات الطائرات الفرنسية. سقفه محاذٍ للطريق العام.

يمتد منه لسان صخري وينتهي بحائط مسدود. وجدت أهل سرمدة ينزلون أسفل الجرف. ينظرون إلى الأعلى مثبتين أبصارهم على البقرة الضخمة، وهي تطلق خوار استغاثة. وما زلت أتذكر نظراتها. كان فيها رجاء خافت مهموس لينقذوها من ورطتها المميتة.

* * *

العم سلامة، كان واحدا ممن أجهزوا على البقرة حال سقوطها. يتذكرها جيداً، فهي كانت البقرة الأشهر في المنطقة. لا أحد يعرف كيف فرضت جملة من العادات على الجميع، ولا كيف استقبلها أهل سرمدة متندرين بها، ولكن صرامتها جعلتهم يقرون بميزتها، فأطلقوا عليها اسما استمدوه من خيلاء مشيتها كاسرين امتيازا لا تتمتع به سوى الخيول العربية الأصلية.

– أميرة ظلت بلا رسن. وكادت أن تفتك براعيين عندما سرّحوها عُنوة مع عجّال البلد. ويومين كاملين ظلت بلا ماء، لأنها لا تُورد إلى النبع مع غيرها من القطيع.

وكسرت بابين خشبيين، وشجت رأسها اليابس عندما أسكنوا معها بقرة أخرى، أمّا حليبها فهو الأغزر والأشهى في كل المنطقة.

ويزيد العم سلامة شيئا آخر أنعش به ذاكرة مجايليه الحاضرين أمام دكان ممدوح:

لمّا واتاها الصِّراف عجز ثور البلد عن امتطائها، ظلت بشهوتها أسبوعا. جلبنا لها فحلا من "المقرن" الشمالي، فسافدها بعد ساعات من التمنع والتناطح. جرحت بقرنها رقبة الفحل الشهير، لكن في النهاية ندّت عنها جعرة رضا اهتزت لها سرمدة؛ قابلتها النسوة بالزغاريد وقمنا بعمل حفلة للدبكة والرقص حتى الصباح.

لأول مرة نعمل "تعليلة" أو سهرة عرس لكائن غير بشري. وختم

جملته بضحكة رنانة. شاركه فيها الحاضرون:

- كيف وصلت البقرة الأمثل إلى تلك النهاية اللئيمة؟

سألت الحضور لأقارن بين ما أخبرتني به عزّة توفيق في باريس، وبين ذاكرة المكان:

قال العم سلامة: **سارت البقرة وراء نزوات مبهمة، تبعت العشب الندي الذي حرفها عن أمان العادة إلى فضول مجهول.**

مشت فوق سطح جرف المغارة حيث كانت أعشاب ندية، لا أحد يمسها. زاحت عن دربها اليومي، لحقت قبصات من نباتات الخبيزة الطازجة والحلندوق الغاوي.

صمت العم سلامة، وأشار بأصبعه إلى الجرف القريب مني موجها الكلام لي:

انظر، كانت تأتي من هناك كل يوم إلى نبع الملح لكي ترد الماء، فجأة توقفت بمحاذاة جرف المغارة، على يسارها يوجد درب صغير، ما إن قطعته حتى أصبحت فوق مغارة الجرف.. على يمينها هاوية وعلى يسارها حائط من البازلت، والدرب ضيق آخره كتلة صخرية تسده لا يتسع إلا لجسدها، فلا يمكن لها الرجوع إلى الوراء، ولا التقدم إلى الأمام. وبالطبع لا تستطيع الالتفاف والرجوع. أكلت حتى شبعت وحين انتبهت لورطتها، جعرت بضع جعرات جمعت الناس، فحاولوا إخراجها من الموت المحقق. حاولنا إنقاذها بحبال متينة، ولكن فشل المتسلقون بالوصول إليها ووضع الحبال على جسدها.

حاولنا إحضار فُرش أسفنج من المضافات وجمعت النسوة كل الثياب البالية وحشون أكياس الخيش بالتبن الخفيف، وأشرف الأستاذ حمود على نصب شباك أمان من اللحف والفرش الصوفية والبُسط وكرات الصوف، وفي غمرة حماسه قلع جاكيته المكوي بعناية ورماه

فوق المنسوجات السريالية لأغرب شبكة أمان يمكن صناعتها.

المشكلة كانت في أن كل ذلك، لن يمنح الأمان لعنزة، فكيف لبقرة بحجم أميرة! فالأرض غير مستوية والفكرة كانت نوعاً من العبث، واليأس الطفولي الساذج.

أربع ساعات لم تجدِ فيها كل الوسائل، ولم يبق إلا أن تحدث معجزة ويصير للبقرة أجنحة. وعندما وصلنا إلى مثل هذا الحد من التخيلات، جلبنا السواطير والسكاكين وتوزعنا تحت، في أسفل الجرف. كنا ننتظرها ونحن نجلخ الأمواس حتى تسقط!

تركت العم سلامة مع بضعة رجال أمام الدكان، ومشيت باتجاه جرف المغارة ووقفت في مقابله. المكان لم يتغير طوال تلك السنوات. إنه مكان طفولتي أيضا. ولكني لا أريد إقحام ذاكرتي هنا. أفكر بحياتي وعملي وأنا المشغول حتى النخاع بصناعة فيلم عن الجسور بين الشرق والغرب، شهور من الأبحاث والمناقشات. وكل شيء جاهز لتبدأ الكاميرا تحيل أفكاري المرقوشة على الورق إلى صورة. حتى قابلت عزّة توفيق في باريس التي خربطت جدول عملي، لأكتشف لاحقا أنها كانت الشرارة التي ستحرق قش حياتي.

أجدني الآن أتأمل جرف أميرة. وأنتظر هيلا منصور لتمر بالقرب منه.. إنه نوع من تمازج الأزمنة، فيستحيل المكان زمانا متجمدا، ويقليل من الذاكرة والحكايات، يتحول المكان إلى زمان يسيل. كان لي أن أرتب المشهد كما روته عزّة توفيق عن حياتها الماضية. وأهل سرمدة قد رووه في حياتهم الحالية، وأنا كما أضفي عليه رؤيتي وتصوري فأصبح كالتالي:

ثلاثة سكاكين وخنجران وساطور واحد، كانت بانتظار الجسد المتهاوي من الأعلى، مع صوت جرس معلق في عنقها، ومن كل الاتجاهات انغرست الأنصال في أنحائه. قطعوه أربا، لينفر الدم ملطّخاً

وجوههم وثيابهم، وتسكت البقرة الأثيرة بعد تلاشي جعرتها التي أذعرت الحاضرين، وجعلتهم يتراجعون متجنبين نوافير الدم ورذاذ اللزوجة، موسعين دائرة الفرجة، التي أخذت تضيق رويداً رويداً عندما تكوم الجسد هامداً على أرض صخرية ناتئة. وتكفل أحد أمهر القصابين بفصل الرأس بضربة ساطور حاذقة، وتدحرج الجرس إلى قاع الجرف. لحق به الأخ الأصغر لهيلا منصور، وجلبه معه إلى البيت، وأعطاه لأخته الصغيرة كي تحتفظ به كذكرى من ذلك اليوم.

أحسست أن مشهد مصرع أميرة انتهى. كان علي الآن أن أنزل إلى نبع الملح، وأدور حول الجرف، وأنتظرها لتصل تحت رحمة حرارة هذا الصيف التي لا تطاق. وقفت لأحدق بالجرف الصخري وأمد نظراتي لآخر هذا الدرب حيث قتلت هيلا منصور ذبحا. حدقت طويلا وسط دغل الهدوء الصافي. الإسفلت يصدر بخارا وكأنه سيذوب بعد قليل، والهواء مخنوق بحرارة غير معهودة. وفجأة، بدأ جسدي يثقل ويخف. نوبة من القشعريرة والبرد مع عرق ينضح من مسامي. بدأ ما يشبه رذاذا يتساقط على وجهي. أحسست أن في جسدي قد استقر جسد هيلا منصور. امتزجت بها، أو احتلت جسدي. لم أعرف. ولكن بت أمشي معها أو من خلالها. أصبحتُ هي وصارت أنا. وعدنا معا إلى مساء الثلاثاء عام 1968.

هنا لمحت إخوتها من بعيد، يسيرون باتجاهها. جمهرة من الملتحين يحملون سواطير وسكاكين واضحة، تشبه تلك التي رأتها قبل ثلاثة عشر عاما يوم سقوط أميرة.

أغمضت عينيها السوداوين – مثلما فعلت حين كانت تراقب المشهد وهي مندسة بين إخوتها – واجتازت مشهداً لم تكن تدري أنه سيعاد على جسدها ثمناً لخروجها القاتل مع غريب عن ملتها

أبطؤوا الخطو، ثمّ توقفوا مشكلين نصف دائرة. تقدمتُ حتى أصبحتُ بينهم. كانت لحاهم قد ظللت ملامحهم، لكنها عرفت كل واحد من عينيه.

تمنت لو ترتمي على صدورهم، وتحضنهم واحداً واحدا، وتقول لهم: لقد تعبت. لكنها لم تفعل، بل أنصتت لصمت لزج، يقطعه صفير ريح باردة بدأت تهب من الشمال. عينا أحدهم تنبسان عن حزن وشوق كأنه يريد أن يقول لها: اشتقتلك.. لكنه قال بصوت حزين مشروخ:

- "**ولـك ليش عملتي هيك!؟!** ثم اختنق صوته..

لم تمطر السماء، غير أنها بدأت تتلبّد بالغيوم.

وهنا تقدم نواف باتجاهنا -**أنا الذي أصبحتُ هي**- يجعرُ مثل ثور، فدخل نصل سكينه ممزقا القميص العنابي، مغروساً وسط الصدر الذي بات يعلو ويهبط بسرعة، ويخرج قشعريرة لبست الجسد المتهاوي.. رأيتُ معها الغيوم المتلبدة وهي تنفك سريعا. تصبح نتف ثلج. كنت أرى ذلك أشعر بالنصل يغور في صدري. بدأت بالتهاوي، وقبل أن تسقط رفعت نظرها إلى السماء العالية.

استجمعت ما تبقى لها من قوة، وسألت بصوت يخرج مع رذاذ من الدم بلل حلقها المالح:

أرضيت عني الآن.. أيكفيك هذا يا الله!

صرخت معها: **أيكفيك هذا يا الله؟**

وبدأت ذاكرتها تستعرض أمامها بسلاسة فريدة، وجسدها المخدر يريد أن يسقط ويستريح، لكن الخفة جعلتها تشعر أنها تطير.. رأيت شريط حياتها يمر أمام ناظري:

أوراق المدرسة، رفاق قدامى. إخوتها يحملونها من يد إلى أخرى. يضحكون على شقاوتها. ينقلونها من كتف إلى كتف. أبٌ بعينين

حنونتين. أم بضحكة سماوية. شجرة التوت في الدار القديمة "كبوشها" حلوة مثل القَطر.

أفلت سكينه وتراجع ليسمح للخناجر، أن تطعنها في الرقبة، والظهر وأعلى الخصر!

لمحت نبع الملح وهي تتهاوى. غيرت الذاكرة مسارها السريع:

نبتة دم الغزال لم تنفع الثآليل. العجوز الحكيمة. إيقاع صوت الكنيسة التي تحب. أصوات أذان لصلاة الصبح. تراتيل شيوخ الدروز لفصول الحكمة و"مجروية" أوحكاية يوم القيامة في الليلة الأخيرة لعيد الأضحى. روائح الشموع المضاءة بالمجالس. أصوات مشكاة اللبن تناويح ندابات على الموتى.

الطعنة الرابعة في الرغامة أسفل العنق.. ابتل ريقها بالملوحة، وجسدها باللزوجة، ورأسها عجّ بالذكريات.. الدم الفوّار لطخ ذاكرتها:

رائحة الورد صباح أربعاء "البراقطة". الركض المتواصل لقطف أكثر الورود نضرة "الدحنون الأحمر قطاش الدجاج" ألأقحوان "الحلندوق" النعناع البري إكليل الجبل.

تنقعها جميعها في إناء من فخار وتضعه تحت نجوم ليلية ربيعة. وفي صباح الأربعاء الثاني من نيسان، "تتبرقط" تغتسل بمنقوع الورد فيحميها لعام كامل من لدغات الأفاعي والعقارب... حكايات قديمة. عرائس ومكائد.. تمائم وخطوط لتغير مسارات الأقدار... أذب يا نبع ثأليل يدي...

شج البطن من الخاصرة إلى الخاصرة. جثت على ركبتيها وانغرزت يداها في الوحل الممتزج بدمها الحار:

أذب يا نبع ثأليل يدي.. لم يعد هناك في رأسها سوى طنين طري يذوي رويداً رويداً ليتحول إلى بياض بلا صوت.

وهنا تركتها تهوي هامدة.. خرجت منها أو خرجت مني، لا أعرف، ولكني كنت أرى المشهد الأخير وأنا واقف بمحاذاة الجرف أتصبب عرقا وأتفقد نفسي وقد ابتل ريقي بطعم لزج وكأنه حامض الدم. تقدم أحدهم. وضع ركبته على ظهرها. شدها من شعرها. تشنجت الرقبة، وبحركة خاطفة فصل الرأس عن الجسد.

أخرجوا أمواس الحلاقة، بللوا وجوههم بدمها، وكشطوا أكداس الشعر فوق جثتها!...

لم ينبسوا بحرف. وقفوا يتأملون المشهد، بينما السماء بدأت ترسل رذاذاً خفيفا. شعروا بالخدر ينمّل وجوههم الحليقة، وكأن ثقلا أزيل عنها، ثقلا يسري مع الدم ليستقرَّ في مكان آخر داخل صدورهم، ثقلاً بدا وكأنه يشبه صوتاً ما، لا يريد أيٌّ منهم أن يسمعه، لكنهم أغمضوا عيونهم حابسين دموعا راحت تطفر غصبا عنهم، عندما هبت الريح لتطيّر الشعر الذي يغطيها، فانسحبوا مسرعين، لتتلقاهم بعض زغاريد النساء الملعلعة، ونظرات الرجال اليابسة، تحت زخات السماء المتلبدة تماما بالغيوم.

كان في فمي طعم دم حقيقي، فأغمي علي! حملني الجيران إلى البيت. شربت كأس ماء بارد. استعدت بعضا من قواي. جاء الأصدقاء والأهل مسرعين:

- خير خير شو في. رد صاحب البيت.

- ما في شيء. ضربة شمس.

* * *

أدرت كاميرة الفيديو الشخصية، التقط مشاهد لسرمدة من أعلى التل.اقتنص بنوراما للبلدة الهادئة. ومن أسفلها، صورت الدروب، وركزت على البيوت الحجرية القديمة. الجرف. معتزل آل منصور قرب المطحنة القديمة. رُقَة المرتكى. مكان المدفع الذي نصبه الفرنسيين وهم يقصفون

سرمدة وجوارها. بقايا الوادي، حوش فريدة، شجرة البطم وأم الكباش وغدير الصوف، حتى وصلت دار آل منصور المتهالكة. لفحتني رائحة المكان المعتق حين لكزت البوابة التي لم تتغير منذ عشرات السنين، فانفتحت بعد أن أصدرت أزيزاً حادا. كانت شجرة توت هرمة تتوسط حاكورة الدار. أعطتني أحساساً بالألفة معها. صورت كل التفاصيل الممكنة، وجلست أتأمل خرائب المكان. وهنا خطرت لي فكرة النبش أسفل الشجرة. وبدأت أحفر. لم تسعفني يداي. أحضرت رفشا ومنكوشا من منزل العم سلامة المجاور.

وشرعت بالعمل. حفرت حول الساق من كل الاتجاهات على عمق ذراع.

لم أجد الوصية ولا الأساور ولم أجد الجرس أيضا. توقفت فجأة. شعرت بسخف ما أفعل. لحقني العم سلامة بوجهه الموشوم بالأخاديد وعينيه البنيتين الضيقتين.

سألني عما أبحث.

قلت: لا شيء يا عم لا شيء.. فكرة غبية جاءت لرأسي.

قال: لم تكن أول من يبحث عن كنز أسفل الشجرة. نبشوا خرائب هذا البيت مرتين، ثلاثة. لم يجدوا غير جرس نحاسي قديم.

صعقت تماما. عقدت الدهشة لساني.

– الجرس موجود على رقبة إحدى أبقار عجّال البلد.

– عن جد تتكلم؟. سألت العم سلامة.

– تعال معي. وقادني إلى جسر الخشخاش. وبعيداً، كان الراعي يقود قطيعاً من تسع عشرة بقرة قادمة من أرض الدحنون؟

مر القطيع بجانبنا بهدوء. كل بقرة منه تتقلد جرساً نحاسيّاً. تقدم العم سلامة من إحداها وانتزع منها جرسها. كان جرسا بحجم قبضة

اليد مبعوجَ الجانب. قدم لي الجرس وهو يقول: أنا وجدت هذا الجرس بحاكورة آل منصور..

ضحكت من قلبي، وتخيلت ماذا سيحدث عندما سأقدم الجرس لبرفسورة الفيزياء. لا شيء يثبت أي شيء. لا التقمص واقعاً، ولا الواقع تقمصا. ويمكن لأي كان أن يكون هيلا منصور أو لا يكونها. ولكنها حلت بي. تلقيت الطعنات معها. شرقتُ الدم الحامض النازف في بلعومها. رأيت ذاكرتها وهي تطير منها. ولامست العتمة الباهرة حين رقدت بلا حراك.

خرجتُ من جسدها أو خرجتْ من جسدي. وانفتح أمامي المكان الذي هربت منه: سرمدة. سرمدة التي لم أقرّ أني منها وهي مني، فصرت أرى بغير عين، وأسمع دبيب الحكايات وأحلام الناس، وأجد الكثرة في المشهد البسيط.

نعم لم أعد كما أنا. ولم أستعجل الهروب على عادتي حين أزور سرمدة. لم أشعر بالملل الجارف، أو أقارن بين ركود الحياة اليابسة هنا، وإيقاع المدن السريعة مثل دبي وباريس وأمستردام ولندن، وكل المدن التي أزورها وأقضي فيها أياما. صار لسرمدة شهوة وحضوة، ولأول مرة أشعر أن رحلتي البعيدة كانت للبحث عن شيء مني. وأنه لن يستكمل إلا هنا.

مشيت بهدوء إلى منزلي القديم. دخلت بيتنا. اكتشفت بعين أخرى أن في حاكورة بيتي شجرات توت ورمان وصبار، وأقنان دجاج. وحظيرة أغنام.. أعادت لي رافي الطفل والشاب والحالم. وسال الزمن أمامي: من هو الذي كنته، ولماذا لم أعرفه من قبل؟

طوال الوقت وأنا أسعى لتغيير حقيقتي. للهروب مني. للتنكر بلغة أخرى وسلوك آخر. حتى يقبلني المكان والزمان الآخر، أحدق في

الجرس الصغير "المطعوج"، ولا أردّ على الاتصالات التي انهالت عليّ، وبدأت أتلمس نفسي، لأجد أنني – طوال السنوات الماضية – لم أرتدِ سوى أقنعة ماسخة. بدأت تسقط مني.

بدا وكأن الوقت لم يمر على دارنا. لم يمر أصلا على سرمدة. فقط الأماكن صارت أصغر واعتراها التعب!

صعدت إلى الطابق الثاني عليتي المفضلة في دار جدي. مرتع طفولتي سهول حوران تمتد أمام ناظري، تحاذيها أرض شاسعة من الرجوم والبازلت الممتدة بلا قرار إلى باطن" اللجاة " وأصوات وصور وروائح قديمة تكرج أمامي، ولحظة من الصفاء المترع بالفقد تنبض في داخلي.

كان صوت المنادي ينطلق من مكبر صوت. **يبدأ بالنعي**

انتقلت إلى رحمة الله تعالى فريدة بنت فضة... والله يعوض على أصحابها!...

همس يعلو والناس يتبادلون الكلمات: من أذاع نبأ فريدة حقّر موتها.

الصخب الذي خلفه النعي، أخرجني من هيلا منصور وعزّة توفيق ولحظة تأمل السقوط في الذاكرة وأعادني للواقع. شعرت فجأة بالرعب لأنني أضعت أسبوعا دون أن أخبر أحداً في دبي ماذا أفعل فأنا جئت هنا بحجة العمل ويجب أن أكون في دمشق وليس هنا. بدأ الواقع بلزوجته ومنطقه يردني إلى الصواب أخبرت مديري إن حادثة وفاة حصلت بعائلتي. وطلبت أسبوعا كأجازة تفهم على مضض وطمأنته أني سأعوض الوقت.

رددت على رسالة سيدة الفيزياء. وهي تتمنى لو أنها معي الآن وتتشوق لرؤية ما أرى. قلت لها سأجلب لها ما لا تتوقعه من سرمدة وأطفأت جهازي الخليوي.

نزلت من العلية. ومشيت خلف مجموعة من الراكضين. وأنا أتساءل

لماذا حقروا موتها بهذه النعوة. طبعا لن أجد خيرا من العم سلامة ليجيبني.

فقال: **فريدة كانت حرة، فتحت حوشها لكل مراهقي البلدة، كانت إذا وضعت أي رجل في رأسها تجيبه على فرشها. الله يرحمها سرها عند خالقها يصطفل فيها.**

قلت للعم سلامة: **ماذا تعني فتحت حوشها لمراهقي سرمدة؟** فرد بغضب لم أعهده منه:

– **يا عمي كانت شرموطة. فهمت ولا لأ؟** ومضى بعيدا عني وهو يتمتم بكلمات مبهمة يتعكز على مجرفته الهرمة.

أصوات ترتفع، وتّرت فضاء هذا المكان المتخم بالسكينة الأزليّة. لحقت الصخب، بينما جموع من رجال وشباب يحملون جثمانها، يرتجلون لها مأتما سريعا. والشيوخ يرفضون الصلاة على جسدها، ويحفرون حفرة خارج البلدة. يدفنوها ليلا ويعودوا. بينما جموع أخرى تنكش الحوش، وتتفقد موجوداته. كان وقت تصفية حساب مع التساهل الكبير لأيام شبابها. كان نوعا من القصاص الجمعي لمن حاول الخروج عن دائرة المقبول والمسموح.

سؤالي الحائر: لماذا لم يتكلم أحد عن فريدة وهي على قيد الحياة أو يقاصوها أو حتى يقتلوها بينما وافقوا ووقفوا متفرجين على قتل هيلا منصور؟ وكيف تُورّث الذاكرة وتنتقل لجيل إثر جيل عمّن دمغ بالشائن أو الخروج من جبروت القانون الطائفي القبلي الضيق؟ كيف تسامحوا معها وهي التي أغوت مراهقي سرمدة لسنوات وسنوات، وجعلتهم يعبرون إلى الرجولة من خلال جسد صريح، وليس عبر العادات السرية، ونكح الحيوانات الأليفة، أو التعرف على عوالم الجسد الذكوري، واكتشاف اللذة بالانتقال من الشرجية إلى القضيبية عبر علاقات مثْلية؟ أسئلة فرويدية بامتياز، ولكن في فضاء مكتنه بالغموض والقسوة تصبح

الإجابات الجاهزة نوعا من الغباء. ففريدة لو ولدت في الغرب، ستكون في قفص اتهام، وربما يحجر عليها وتسجن مدى الحياة بتهمة التحرش وإغواء وإفساد الأطفال. صحيح أنهم ليسوا أطفالا تماما ولكنهم تحت الثامنة عشر، وبعضهم تزوج وهو في الخامسة عشر. جيل كامل من سرمدة عبر إلى رجولته ماشيا جسر جسدها.. ولكن في الشرق، وربما في سرمدة تحديدا، كان عملها أقرب إلى القداسة، وأمّا المحاكمة فتتم الآن بعد موتها!

لندع كل هذه الأحكام جانبا. لابد من الروي والعودة للبدايات ومحاولة

ترتيب الحكاية من جديد علّ المكان يمنحني بعض العلامات لأفهم قبل كل شيء من أنا من خلال هؤلاء البشر الذين شكلوا ذاتي، ووسموني بنزقهم وأشربوني من حيث لا أدري كل مياه الغضب والخوف والفرح والتجهم.

ومثل برق وامض، نهضت فريدة في رأسي. محت عزّة توفيق، وهيلا منصور، وكل ما حدث، أو أجلته إلى وقت آخر. صفعتني الذاكرة التي انثالت علي.

ذكرى ذلك اليوم الشهي. وأنا أحاول ان أتذكر أي شيء عن فريدة فتجلت لي وأنا في العاشرة من عمري. عمتي الخياطة الأشهر في المقرن كله. تستقبل النساء في غرفتها التي حولتها لمكان للعمل، وتستخدم الغرفة القبلية كغرفة للقياس، كنت أحب البقاء في تلك الغرفة، واعتدت على النوم فيها، حتى اكتشفت أن النساء لا يتحرجن مني لصغر سني وبخاصة وأنا مدّع للنوم. صارت طقوس مراقبتهن وهن يقسن الفساتين، جزءاً من أسراري الصغيرة. كانت اللذة تجتاحني دون أن أعرف مصدرها. ولكن فريدة اكتشفت شيطنتي، وعرفت أني أراقبها، فقد دخلت الغرفة

وأنا مدع النوم، واضعا اللحاف فوق رأسي تاركا شقا بسيطا يؤمن لي رؤية كاملة لجسدها. بحسها العجيب، قلعت قميصها رويدا رويدا. سوت صدرها بيديها وهي تبتسم بمكر العارف. اجتاحني الوجع عندما أرخت زنار ستيانها فانداح ثدييها الرماني خارجا. رهز قليلا واستقر. أعادته إلى مكانه وخلعت تنورتها وكأنها تتعرى كعارضة ستربتيز. أمسكت التنورة وأنزلتها محركة خصرها محررة إياها كاشفة عن جذع سنديان مستندا إلى فخذين مقوّسين بفضتين مشربتين بتلك السمرة الساحرة. بهدوء التي تعرف أنها تراقب من مختلس صغير استدارت دورة كاملة عارضة مؤخرتها الأفريقية التكور، لا يحميها رداؤها الداخلي بل يشطرها إلى فلقتين تضجان بصخب النداءات البرية.

كان فرجها يكاد يخرج من الكيلوت الأسود اللماع. قسمه الأعلى منتفخ مع شق صغير كسّمَها الرداء، وعلى حوافه انتشرت بضع حبيبات حمراء بسبب حساسية الحلاقة المتواصلة للشعر الزائد.

دمرني عريها، أيقظ صُباحَ جسدي، كنت أشعر بدوائر مخدرة تزكزك أسفل بطني، وكان الانتصاب الأول معلنا بداية علاقة معذبة بيني وبين جسدي النحيل المكمور تحت اللحاف في ذلك الصيف الحار..

وعندما وصل إلى مسامعها اللهاث الحرذوني الساخن الصادر غصبا عني، ابتسمت بمكر، قدرّت الفستان الجديد ثم خلعته بسرعة. ارتدت ثيابها، وفي طريق خروجها، اقتربت من مكمني. أزاحت اللحاف عن وجهي المتصبب عرقا، وأطلقت ضحكة صاخبة جعلت عمتي تسألها من الغرفة المجاورة عن سببه.. غمزت لي بعينها كاشفة عن أعذب ابتسامة فاسقة في العالم، وأضافت:

شو رايك خبر عمتك.يا أزعر؟ وخرجت. كانت تلك الجملة الوحيدة التي سمعتها منها طوال حياتي.

طبعا أخبرت عمتي عن ذلك، ومن يومها حرمت تماما من ذلك التخفّي اللذيذ.حصّنت عمتي غرفة القياس بالستائر، ومنعتني للأبد من الدخول إليها.

ظلت فريدة حلما مرتجى. ابتعد مع الزمن حتى تلاشى، ونسيت تماما هذه الحادثة حتى مساء اليوم. أشعر أني جئت من أجل دفن فريدة، أو بالأحرى إيقاظها.. إعادة الحياة إليها، لا من أجل أي شيء آخر. وهنا حضر صوت سيدة الفيزياء وهي تردد لي مقولة "آينشتاين" ليحررني تماما ويفتح ذاكرتي وحياتي على مداها الأقصى:

"كلما اقتربت القوانين من الواقع أصبحت غير ثابتة، وكلما اقتربت القوانين من الثبات أصبحت غير واقعية".

الفصل الثاني

فريدة

لم يمر أسبوعان على عودة هيلا منصور من الجهة القبلية لمواجهة مصيرها القاتل، حتى جاءت فريدة بسيارة اللاندروفر.

فتاة مشبعة بالروعة. عينان واسعتان كحيلتان محوّقتان بأهداب غامقة. قامة ممشوقة تتجاوز المائة واثنين وسبعين سنتيمتراً. ومشية متغاوية.. لو وجدت في هذا الزمن لأصبحت عارضة أزياء حقا.

هذه المرأة ستغير مزاج سرمدة، طوال سنوات لاحقة، قبل أن يلتهمها النسيان ويأتيها الموت مساء هذا اليوم.

كان لا بد من العودة إلى هناك باتت سرمدة شهرزادي، تروي لي حقيقة موطني.. فإذا بي أصطدم بأن كل ما عملته في حياتي العملية، هو عبارة عن انفعال يفتقد إلى الأصالة؛ وهنا الأصالة تعني كلمة واحدة فقط: الصدق. بدأت أرى سرمدة بعين أخرى، فتحت فريدة نوافذ ذاكرتي. جملة واحدة في طفولتي وعشرات الأحاديث مدونة في صدور وعقول الكثير من الناس، عليّ إخراجها من عتمتها فانهالت سرمدة تحاصرني بكامل فتنتها. جبروتها، عمقها، وبساطتها الأسرة.

شتاء سرمدة قارسا في ذلك العام الذي جاءت فيه فريدة، والبلاد ترزح منذ سنتين تحت هزيمة الأيام الستة ولم تخرج منها، وشيء من الفراغ العظيم يغرق البشر والشجر والحجر في وجوم كثيف الملمح.

بعد قتل هيلا تلبس معظم أهل سرمدة شعور بالاختناق. صورة ذبحها عكرت مزاج البلدة، حولتها إلى بلدة متعبة تحت هواء مشبع بالذنب. فالأماكن مثل البشر تشعر وتحس. تكره وتحب ويتعكر مزاجها، وتمل أيضا.يمكن لك أن تدخل أي بلدة أو مدينة بهذا العالم، وتتعرف مباشرة مزاجها قبل أن تشرب فيها كأس ماء.

قال العم سلامة واصفاً تلك الأيام: مثل كتلة شعر في الزلعوم.

لولا فريدة لما عرفنا الفرح أبدا! يضيف بصوت هامس

أتحرى عن فريدة. أجوب الدروب والمضافات. ألتقي البشر، أسمع، أنصت أسجل، أدون، كلها أفعال حيازة تتخم روحي وتجعلني أردد: كم كنت بلا بصر أو بصيرة، كيف فاتني كل ذلك وهو إلى جانبي!

أيعقل أن تكون الحياة والصخب والغضب بهذا القرب! أيعقل أن تكون الأسئلة الكبرى، والإجابات المدوية معي طوال ثلاثين عاما وأكثر، وأنا ألاحق سرابا في باريس ووهما في دبي!؟!

أعاود النظر في كل حجر باذخ الرسوخ، أتأمل الشجر والمسارب، تدهشني المزاريب الممتدة من فوق الأسطحة والمداحل الراسخة فوق أسطحة منازل غزاها الإسمنت وامتزج مع ترابها.

ألوب في مفازات الحكايات. أجمع كل ذلك، لأجد أن الوليمة تتسع للجميع.. وليمة الحياة على الأغلب.ولكن علي أن اختفي الآن وأترك المكان يروي نفسه. أتفرج عليه من بعيد بصمت ولكن بحواس مفتوحة دون أن أتدخل سأدون كل ذلك وأبعثه لبرفسورة الفيزياء المنتظرة في باريس.

أهل سرمدة يعيشون برفقة آلام وارفة تحرق شيئا ما في دواخلهم. استولى شعور جمعي على كثير من الناس ممن شهدوا واقعة قتل هيلا منصور، شعورٌ يقولُ: بأنهم من الذبّاحين أيضا. صادرت لهم هيلا منصور ما اعتادوا عليه. لم تمنحهم شرف حكاية سرية، ليغتابوها ويتداولوها، ويثرثروا ويزيدوا وينقصوا فيها كما فعلوا قبل سنوات، يوم هربت مع الأمازيغي، فقد جاهرت بالعودة لتفقأ دمّلها بيديها.

هي التي اختارت نهايتها، وتلقت قدرها بتسليم فريد. يريدون لحكاية أخرى أن تحدث، ليمسحوا آثار الموت الدامغ، فحياتهم في أوج

بلادتها، والمكان لا يحتمل شعورا طويلا بالذنب..

وما زاد من آلامهم، أنهم لم يستطيعوا أن يسامحوا آل منصور على فعلتهم. وإن حاولوا ذلك لكنهم أخفوا شعورا ملتبسا بالإدانة لهم.

فانزوى الإخوة في صمتهم الغارق بالحيرة، قبل أن ينهاروا واحدا تلو آخر بعد عدة سنواتٍ، فيهاجر أصغرهم إلى كولومبيا بعد أن ذاق طعم جسد فريدة، وحرمته حبها. ويشد اثنان منهم الرحال ليعتكفوا بخلوات "البياضة" – أماكن للاعتزال لشيوخ الدروز المتصوفين- في لبنان، مقطوعين عن العالم والحياة إلى الأبد، متفرغين لفك أسرار كتب الحكمة، ووضع الشروح لكتاب "المنفرد بذاته" واقفين على عتبة بيت الرب، عله يمسح درن قلبيهما.

ويموت رابعهم شاهر بعد خمس سنوات في حرب تشرين.. وبقي نواف وحيدا.. عاد إلى الدار وسط البلد. يحرس الظلال، ويكلم شجرة التوت، ويبكي كلما اكتمل القمر بكاء أقرب إلى العواء، ويردد: **سامحيني يا هيلا. سامحيني...**

يوم قدمت فريدة بصحبة سلمان الخطار "الشوفير" المقامر، كانت في السادسة والعشرين. حملها معه في سيارته الشهيرة، بعد أن أمضى ثلاث ليال في"المقرن" الشرقي.

قامر بكل ما يملك بمزاج من لا يهتم للربح والخسارة، بل لشهوة المقامرة. عادة تعلمها من الحياة نفسها. لا شيء يستحق الحيازة. يصرف بكرم جنوني، تمشّياً مع المبدأ الشهير: "اصرف ما في الجيب، يأتيك ما في الغيب".

وفي لحظةٍ أراد بها الانسحاب – نظرا لضعف الأوراق التي جاءته – لمح تلك القامة المترنحة ببهاء، وقد انعكس ضوء خافت عليها وهي تعبر من فسحة الدار الجبلية، فتغير مزاجه.. انهمر عليه الحظ مزاريبَ

من الربح الوفير. وفي الحقيقة، أنّ القدر في تلك اللحظة،أخذ يرتب له مسارا آخر.

اجتمع "قمرجية قرية المنابيع" المشهورين بحرفيتهم في المقامرة، وشغفهم بتحويل كل شيء إلى رهان، ففي هذه القرية أي حديث مهما كان يجب أن يتخلله عبارة"بتراهن.. "

لكنه، أي سلمان الخطار، ببساطة ظلّ يربح في لعبة "السبعة ونصف" في "البوكر" في "بلاك جاك" وفي "الطبة". ابتسمت له بنات الكبة والبستون. لم يخذله ترادف الحدس المدهش ويكوم الأموال والمقتنيات الثمينة أمامه.

راهن "معاذ" صاحب البيت، على كل شيء: أساور زوجته، وساعته "الرادو باسبار"التي ربحها في فتة قمار في بيروت.. وظل الضيف يربح! وحين أحس بالخطر وحاول الخسارة، كان للحظ رأي آخر جعله يزيد من أكوام النقود والساعات والسلاسل الذهبية ومباريم الزوجات أمامه. وكلما تعمقت رغبته بالخسارة كان الربح ينهمر عليه...

في النهاية، خسر أهل البيت وقمرجية قرية المنابيع كل شيء..

جمع ما فاز به في كيس خيش وبدأ يستعد للرحيل. لم يكن يرغب في أن يكون نبيلا مع رجال قمار أصيلين، لأن إعادة قسم من الغنائم، هو بمثابة إهانة أقسى عليهم من الخسارة ذاتها. حاول أن يبقى رصينا مسيطرا على مشاعره فربحٌ بهذا الحجم، لم يحدث له أبدا في حياته. وهنا دخلت فريدة بجسارة مذهلة تفتت الصمت المريب بينهم. قالت أمام الحضور المنكبين على لملمة فداحة خسائرهم:

- بقي الصولد الأكبر...

تطلعوا إلى مصدر الصوت. كانت قامة من التحدي والإصرار والهيبة تتبدّى أمامهم بحضور طاغ.

- آخر دور. إذا ربحت تتزوجني مع كيس الخيش، وإن خسرت تتزوجني أيضا، وتعيد كل شيء!...

أذهلت وقاحتها عمها المنكوب، فغر فاهه على مصراعيّه، وانتظر الثواني الدبقة ليسمع الإجابة.

لم يكن بحاجة إلى كثير من التردد. فتلك العينان الواسعتان المدهونتان بشهوة رحيق برّاق، أخذتا تهيجان نحل قلبه، وتعقصان عقله بلوثة عسلية.

بهدوء الفرسان النبلاء، أفرغ حمولة كيسه أمام الجميع.

- جهزي حالك: خسرت.

ورمى كيس الخيش الفارغ أمام الجموع، وأضاف: **جيبولنا شيخ يقرا الفاتحة..**

ركبت سيارته وغادرت أبناء عمومتها وأقاربها. لا يخفون فرحهم بأنها أنقذتهم من حماقة أعتملت في نفوسهم. بحجم إفراغ مشط رصاص من مسدس سريع الطلقات في رأس هذا المحظوظ الغريب، وجلسوا لتقاسم ما خسروه بمرارة وابتسامات شاحبة.

وصلت سرمدة، ترجلت من السيارة بفستانها الأحمر الغامق. مشيتها الخجولة، ورقبتها الزرافية، وعيناها الواسعتان، ظلت راسخة في ذاكرة الكثيرين. أول من رآها عبود السهيان. فتح فمه وغامت عيناه. لسعه حضورها الباذخ. الذي سيكون سببا في موته بعد حين.

جاء الكثير من الفضوليين إلى بيت سلمان الخطار ليستخبروا عن هذه الفاتنة القادمة من المجهول:

من هي؟ وماذا تفعل في بيت آل الخطار؟

حسمت فضيلة، أم سلمان، أمرها وقالت:

- العرس ليلة الخميس القادم. وسيكون ثلاث ليال متواصلة.

رقصت سرمدة حتى الفجر، فالبلدة بحاجة إلى أن تنسى حمام الدم قبل أسبوعين، وتنسى الخوف الذي صار يكبل الكثيرين وهم يرون في أيام الضباب شبح هيلا منصور يمشي في دروب البلدة بعد منتصف الليل بلا رأس وهي تحاول لململة أحشائها.

جاء المهنئون من البلدات والقرى المجاورة. من بلدات "المنطار"، "الهرش"، "القطعة"، "المطوخ" و" سفوح الريح" والقرى المجاورة.

فهم يعرفون سلمان الخطار "الشوفير". السائق الأنبل والأكثر وسامة وشهامة في الجبل كله. يستدلون عليه من خلال سيارته التي يسعف المرضى بها، ويزف العرسان، وينقل البشر المقطوعين على الطرقات، ويؤوي المسافرين بلا هدف، والمرتحلين بين الدروب.

كان مغامرا. له في كل ضيعة، حكاية وامرأة تنتظر وفي كل بلدة جلسة قمار وأصحاب لتدخين الحشيش المزروع بكثرة في الأرض البركانية الطيبة قبل أن تقتحمه الحكومة الثورية وتقتلعه لتزرع القمح بدلا منه؛ ولكنه ظل يعرف كيف يحصل على "دخان الرب" كما كان يسمي سيجارة الحشيش.

ثمل الرجال. دبكوا وأطلقوا أمشاطا من الرصاص. وصاروا يخردقون السماء بصليات متواصلة من البنادق السريعة والمسدسات "السبعة ونص"، و"الباكر"، والميكروفا" مستعرضين كبت الرجولة المهدورة، في بلد هزم قبل أن تبدأ الحرب ومن أجل التاريخ وما تبقى من ماء الوجه سموها نكسة الأيام الستة، وبلدة تسامحت مع ذبح صبية كما تذبح الشاة!...

باستعراض مبهم، أقيمت الولائم، وفضّت أكثر من خمسة اشتباكات كادت تودي بالحفلة لولا صرامة أم سلمان وأقاربها، والخطة المحكمة التي نفذتها.

فقد وزعت أحد عشر شابا. صكت في يد كل واحد منهم خمس ليرات في مقابل أن يبقى بلا سكر، ولا حشيش في هذه الحفلة، وزودتهم بتعليماتها الصارمة. ملخصها بسيط للغاية: أي واحد يبدأ بإثارة الشغب، أخرجوه في الحال بدون فضائح ولا "شوشرة". وإذا لزم، خذوه إلى "التبان"، مكان لعلف الأبقار، واربطوه حتى الصباح.

مضت الحفلة على خير. وليلة الدخلة، تمت بلا تعقيدات. ورفرفت راية بيضاء ملطخة بتسع قطرات من دم بكارة تأخر فضها. والحصيلة، أحد عشر ثملا ومحششا محبوسين في "التبان" الجواني، في دار فضيلة الخطار، أُطلق سراحهم صباح اليوم التالي.

أهل فريدة غابوا عن الحفل. لم يأت أحد، برغم أن آل خطار أوصلوا إليهم الدعوة، لكن في الحقيقة لم يكن لديها أحد ليأتي من قرية "المنابيع"، فعمها الذي تربت في بيته بعد مصرع أبيها في "هوشة" معركة مع البدو، وزواج أمها من مغترب في البرازيل، جعلها تعيش في كنف عائلة تضمر لها كل أشكال الحقد المكين؛ فأبوها أورث عمها ديوناً مازال يسددها، وأمها كلبة ظلت "تقحّب" في الجبل - كما كانوا يعيرونها - حتى تزوجها مهاجر أعمى البصيرة.

ولكن فريدة ردت الجميل والمصاريف دفعة واحدة. أعادت لهم ما خسروه بموقف نبل لم يفهموه حينها. فبعد أن تربت في بيته وكبرت ونضجت - ليس كابنة للعم النذل بل، كخادمة للعائلة. فعمها معاذ وذووه- وبعد انفكاك مصيبة خسائرهم المريعة، أرادوا نسيان تلك الليالي الثلاث، والتمني على سائق اللاندروفر، أن يبقي ما حدث سرا، فغابوا عن الحفل. بالأحرى اختفوا للأبد من حياتها.

في الليلة الثانية من العرس، أضحت تضج برهج ساحر. عيناها صليل من الغموض المغموس بالتوق والاستحياء الخَدِرْ.

سلمان الخطار، كريم معها. أذاقها حلاوة الجسد مقمّرا على دفعات و دون استعجال، وجعل الأمر يتم بهدوء، احتفل بها وكرّمها وأغدق عليها عاطفة غامرة.

طربت سرمدة لكرم آل سلمان الخطار، فأعادوا الكرة ليلة أخرى. جاءت عائلات المهنئين من كل البلدات المجاورة. أولمت الولائم الفخمة المرصعة بأقراص من الكبة الشهية، ورؤوس الخرفان اليانعة، والسمن البلدي يسكب بلا توقف، ومخازن الرصاص تلعلع في الجو. وبينما سرمدة تحتفل بلا هوادة، تلقمَ مسدس من طراز سيغ المصنوع سنة 47 وبدأ بإطلاق ما بحوزته، وإذ به يتبلكم باستعصاء مفاجئ بيد أحد المدعوين الفائرين بالبهجة من آل القزاز، جعل شباب سرمدة يضحكون ملء أشداقهم على المسدس غير المعروف الهوية، وصاحبه الضيف الغريب المصاب بخيبة لا تحتمل.

رجولة ابن القزاز أضحت على المحك فشلت محاولاته في فك استعصاء الرصاصة الأخيرة، وبدلاً من أن يقتنع بإعادة المحاولة لاحقا، صار يحاول إخراجها من المِغْلاق الحرون بعصبية هوجاء. مُوجِّها الفوهة إلى الجموع. تقدمت أم سلمان اليقظة لتشيح الفوهة إلى الأسفل، وقبل وصول كفها بقليل، كانت الرصاصة قد انطلقت مخترقة يدها اليمنى مارة من فوق رأس أحد الأطفال المنهمكين بجمع الطلقات الفارغة، حارقة الإشارب الأبيض لأم نعمان وكتافية فستان بثينة الأخت الصغرى للعريس، مستقرة في صدر سلمان الخطار العائد لتوه إلى كرسيه بجانب عروسه بعد صولة ترأس بها دبكة حماسية عاصفة. فقتل على الفور.

تحوّلَ الفرح الصاخب إلى مأتم دام، واسماً فريدة بالشؤم الأبدي، ومعلناً بداية آلام عظيمة ستلف سرمدة خلال الأيام القادمة..

* * *

أهل البلدة يتناوبون على عزيمتي وكل منه يريد أن يضيف شيئا، أو يخفي شيئا، بعض من وجهاء البلدة طعنوا في السن، أعادتهم شبابا. كنت أصغي وارتب الحكاية، كما رواها المكان.شيء لا يصدق ولا يمكن أن يصدق. فموت فريدة لم يدفن أسرار سرمدة على العكس أنتاب الجميع رغبة بالاعتراف. ولأول مرة اجد حكاية يرويها الكثيرون بدون اختلافات. سأرقشها هنا. ولن أتدخل بها فتحت الموبايل. رسالة من العمل وأخرى من صديق يقول إنه ينتظرني بفارغ الصبر في دمشق. ورسالة من عزّة توفيق. تشتمني بحب وتقول. أنها تحلم كل ليلة منذ ألتقتني بسرمدة وأنها تتشوق لرؤية، ومع رجاء أن لا أتأخر ففضولها يكاد يقتلها.

بعثت لها، وفضولي يكاد يطردني من عملي. وإن هيلا منصور ما تزال في قلب سرمدة وإنها حية في ذاكرة معطوبة.

أطفئت الجهاز الخليوي. وأنا أدخل بيت رئيفة حيث اجتمعت بضعة عجائز كلهن أدعين صداقة هيلا منصور، وفريدة. وبدأنا يتناوبن بالحكاية الخرافية عن البلاء الذي اجتاح سرمدة تلك الأيام.

كانت "أربعين الحداد" قد انقضت، لم يكن أمام فريدة خيارات كثيرة، فإمّا البقاء لمواجهة قدرها، أو العودة إلى اللامكان.

عيون العائلة ترمقها بحقد وغلّ، ومع اندلاع الألم والفقدان، بدأت تسمع الهمهمات بوجوب مغادرتها والعودة إلى أهلها.

جاءها الشيخ فاروق. حاملا رسالة واضحة... إنها غير مرحب بها في المنزل، وعليها المغادرة.

في صباح اليوم التالي، بدأت تحزم أغراضها وتستعد للخروج من سرمدة دون أن تعرف أي وجهة ستسلك، فقط تريد الخروج من هذا المكان التعس.

ولكن شيئاً ما بدأ يحدث، أوقف حزمها لأغراضها وأجّل مغادرتها.

فقد فتحت المقبرة فاها الشره وبدأت تستقبل الجثامين، فأثناء حمل تابوت سلمان الخطار، ونتيجة الحشد الكبير والتدافع والعواطف الجياشة، مال الجثمان مرتين، وترنح فوق أكتاف الحاملين. كانت تلك إشارة شؤم جعلت بعض النساء يصرخن صرخات هستيرية ممزوجة بدموع سيّاحة.

– جلّسوا التابوت... جلّسوا التابوت..

وحين أخرجوه من مجلس النساء، رقصوا به رقصة العريس وهو على أكتاف الحاملين. رشوا عليه الرز والورد. وهم يرتجزون الأهازيج وبفورة مباغتة صاروا يجّوفون ويطلقون الإغاني التي تُغنى بالأعراس وتناسوا مواته وزفوه كعريس.

بكت سرمدة، ونصف الجبل، العريس الذي لم يهنأ بيوم عرسه. وشمهم قصف عمره وموته المجاني.

الأيام القادمة ستجعل من مصيبة سلمان الخطار أهون المصائب. وكأن طاقة عمياء بدأت تهب على سرمدة وتحيل البلدة الهادئة إلى مكان صاخب بلا معقول.

توالت النوائب والكوارث على العائلة المنكوبة فبعد الأربعين بأسبوع جاء خبر سجيع الابن الثاني وشقيق سلمان، مقتولاً برصاص لصوص اقتحموا دكانه في "كاركاس". فعاد الحزن عميماً يلف الدار المكتنهة بالألم. لم تمضِ بضعة أيام، حتى هبّت نار التنور على وجه سميحة، الأخت غير الشقيقة لأم سلمان الخطار. جعلت من وجهها رغيفا مقمراً، وتركت حروقاً من الدرجة الثالثة في جسدها. صار الجميع يتمنون موتها راحة ورحمة لها من شدّة الآلام المبرحة.

بدأ الموت يربض أمام الدار. ينسج خيوطه اللزجة على العائلة المفجوعة، فتارة يصيبهم أو يمر بمحاذاتهم، وأخرى يحصد بمنجله

العشوائي شباباً في ريعان العمر، تربطهم علاقة ما بهذه العائلة.

ورويداً رويداً طوّر الموت حضوره، ليلامس حتى المتضامنين والزوار مع آل الخطار؛ فمع خروج "صِربة" من المعزين، هبت ريح من جهة الشمال مشكلة زوبعة لولبية. حملت أكياس النايلون والغبار فأعمت العيون، واكتسحت مستودع التبن لدار أبو محمد قاسم. حاملة لوح التوتياء من سقف الحضيرة ليشرخ عنق سميح العلي، ويحول واجب تقديم العزاء إلى مأتم جديد!..

صالح قرقماز، خازم وهاب، مراد قمر الدين، ورضوان مصّا، جميعهم قتلوا بحوادث مريبة بعد مشاركتهم واجب العزاء لدار سلمان الخطار المنكوبة.

وحامت الشكوك حول اختناق جويدة الجرزي بعد إن بلعت لسانها واختنقت به إثر بعثها طنجرة من الطبيخ لمساندة آل الخطار وإطعام المعزين. فضمت للقائمة الضحايا.

* * *

"أم أربعة وأربعين، العقرب السودا، غراب البين، البومة...

فضيلة أم سلمان الخطار وابنتها بثينة ترشقان فريدة بكل هذه النعوت السوداء القاصمة وإلى آخر هذه السلسلة من التشبيهات المنتزعة من قاموس الشؤم.

وافقها جمع من المعزيين الذين قلّ عددهم، فأمام سلطة وجبروت الموت، يصبح إيجاد سبب مشخص، عاملاً مساعداً للبشر على تقبل اعتباطية الموت. وبتبسيط السبب، يستطيعون قبول حكمة انقصاف الأعمار وعشوائية القدر واختياراته الغريبة.

رويدا بدأت دموع أم سلمان بالنضوب من الذرف المتواصل، وحين عجزت عن البكاء، بدأ ثدياها بالتضخم، وصارا بعد كل فجيعة يزدادان

تورما، حتى أصبحت تحتاج إلى رجلين ليساعداها على حملهما كلما أرادت قضاء الحاجة!؟..

ولم تعد تستطيع الخروج من الباب من حجمهما الهائل، فجلب لها "سعيد الحداد"عربة بكرّجات، كي تستطيع التحرك بها، فشلت كل وصفات العشّابين بتوقيف نموهما غير المعقول، وذعر ممرض البلدة الذي يدعوه الجميع بالدكتور سالم من هول ما رأى، وطالبهم بإدخالها المستشفى في دمشق. فهنا حالة لم يعهدها الطب الحديث ولا القديم، ولم يسمع عنها أحد.

قالت رئيفة لي:**لقد لمستهما بيدي هذه. أصبح الثديان يمتلئان بالسوائل. تسمع حركة الحليب في داخلهما وكأنه أصوت سواقي المسكينة أم سلمان انشغلت ببلائها، وبهذه المحنة التي امتحنها الرب بها. رافضة بحزم وعناد الذهاب إلى المشفى وأن يلمس لحمها إية يد غريبة حتى ولو أصبحا بحجم منطاد.**

– إنه عقاب على ما قامت به في حياة سابقة تكبرت وتجبرت بها.

هذا ما بدأه الشيخ فاروق، قبل أن يطلب من باقي المشايخ الدعاء لأم سلمان الخطار بفكِّ حبائل محنتها. بدؤوا بتلاوة مجموعة مختارة من رسائل الحكمة الشريفة. واختار الشيخ "الرسالة الدامغة" مع "الرسالة الموسومة بالحقائق". قرؤوا بخشوع عميق، ورتلوها ترتيلا وتلحينا. بعد انتهاء ليلة الخميس، توجه شيخان يحملان "طاسة" من ماء مقروء عليه، وجعلوا أم سلمان تعيد تثبيت دينها بترديدها ميثاق "ولي الزمان"، والتسليم بالقضاء والقدر كدرزية نقية، وتتعهد بقبول أحكامه سواء سرها أم ساءها..

هجعت نفسها قليلا، وصارت ترى بين الصحو والإغفاءة، خمسة فرسان، كل واحد منهم بلون؛ يرابطون أمام الباب ويردون عنها جنوح القدر. كانوا بمثابة رسالة، فسرتها على أنهم "الحدود الخمسة"، الذين

أسسوا المذهب الدرزي؛ ويعطى كل واحد منهم لون وعلامة ومهمة، فهم بمثابة العقل، والنفس، والكلمة، والسابق، واللاحق.. سيظهرون يوم الحشر بحسب "الأسطورة الدرزية"، من وراء سور العظيم يحرروا الأرض من الدجال، ويحاكموا البشر في أرض مصر. لكنها رأتهم يغادرون المكان متجهين إلى الأفق البعيد ويذوبوا مع الهواء.

لكن الأنين عاد مع الصباح أكثر وضوحا، وأصبح صراخا متواصلا خاليا من الدموع.

وسط حضور الموت وغيابه، وسيول الدموع المذروفة وصلوات الكنيسة والمشايخ، لم تجد فريدة سوى كظم مشاعرها والتدرع بالصمت، وتنزوي بين البكاء الحاف والألم المبلل بأوجاع لا تعرف السكينة.

في تلك الليلة جاءت فريدة رؤيا، أم حلم، شيء غامض جعلها في الصباح تنتفض واقفةً. دخلت الحمام، تناولت موسى الحلاقة الخاص بالمرحوم سلمان من أمام المرآة، أمسكته وحزمت أمرها.

توجهت إلى غرفة أم سلمان. اقتربت من الثديين البرميليين. قلعت عنهما "البطانية"، وعينا أم سلمان المحمرتان تسألانها، ولسانها المعقود يحاول أن يبعد هذه المجنونة عنها. استجمعت قواها وساطت فريدة بتلك العبارة الجارحة:

– انقبري من هنا.. أتركيني.. وصارت تصرخ**...وين راحوا.**

حدقت فريدة بها بعنف. وهددتها بالمشرط الحاد عند رقبتها.

– ولا كلمة، اخرسي...

شلّ الرعب أم سلمان وهي ترى فريدة تمسك الحلمة الضخمة لأحد الثديين وتشطبها شطبين على شكل إشارة زائد.

بدأت فضيلة المبتلاة بتورم الثديين، تطلق صرخات مجنونة، لم تعبأ لها يدا فريدة القاسيتان. انتظرت قليلا وحين لم يخرج شيء، وضعت فمها

على حلمة الثدي، ورضعت بكل قوتها. شعرت بطعم الحليب الممزوج بالحسرة ينفر على وجهها وفمها. ذاقت حلاوة غريبة أصابت جسدها بالقشعريرة.. وأعادت الكرة على الثدي الأخر..

تركت أم سلمان الخطار مع صراخها الخافت، وانثيال آلامها الممزوجة بالحليب وذهبت - على الفور - فجلبت ما استطاعت من أواني المطبخ، وبدأت تسكب الحليب الموشح بالزرقة فيها..

خلال ساعتين، امتلأت أكثر من عشرين قنينة، ونصف سطل من الحليب الأزرق المنهمر من الثديين المحتقنين؛ وبعد انتصاف النهار، جاء أهل سرمدة مسيحيوها ودروزها ومسلموها، ليروا الأعجوبة وقد حدثت.

لقد اختفى الانتفاخ الكبير وعاد الصدر إلى طبيعته. مع حلول المساء، استطاعت الوقوف لاستقبال أول المهنئين بفك كربتها.

شعر الجميع أن الثقل الغامض الذي جثا فوق فضيلة الخطار وبيتها، وأودى بحياة شقيقتها وابنيها وابن عمها وابن أختها، وقائمة من الضيوف، وتسبب بشلل لجارين، وفقد عين آخر، ومصائب عديدة لأهل سرمدة بدت لا تذكر أمام هول الموت الغامض.شعروا أن هذا الثقل قد بدأ يخف.

وتأكدوا في الصباح أن أياما جديدة أقل نحسا وألما، بانتظار سرمدة بعد إنصاتهم طوال الليل لأي إشارة قد تأتي من الوعرفلم يسمعوا سوى طنين الصمت تقطعه معزوفات صراصير الليل.

فقد خرست "الضباحة" أو بنت أوى التي طالما يقرن صوتها - في سرمدة وما حولها بالشؤم والشر المستطير القادم!.

نام الجيران بدون أن يضطروا لحشو آذانهم بصمغ الأشجار ونتف القطن، لاتقاء صراخ أم سلمان الذي يمتزج بأصوات "الضباحة" نذيرة الشؤم في الوعر البعيد.

في الصباح، قالت أم سلمان لفريدة وهي تحضنها بقلب صاف:

- كثر خيرك يا بنتي. كيف بقدر كافيك!

ردت فريدة بكل الحب الذي يمكن أن يظهر على وجه بشري:

- على شو يا أمي؟ ما بدي شي بس كوني بخير..

ثم أضافت بهدوء:

- خليني أطلع من الدار وروح إلى الحوش.

- أي حوش يا فريدة

- حوش أميرة هون حد الدار.

- مثل ما تريدي، أنت صرتي من أهل هذا البيت يا بنتي.

وانخرطت في بكاء خفيف موشى بخيط دقيق من الدموع المالحة الخالية من الألوان

طفقت فريدة تنقل ما بحوزتها من أغراض وأثاث قليل إلى حوش صغير، تعود ملكيته إلى آل سلمان الخطار. يستخدم كـ إسطبل لإيواء الأبقار. آخر قاطنيه "أميرة" البقرة المجازفة والمذبوحة عند جرف نبع الملح.

أخذت مباركة أم سلمان، ونالت لؤم بثينة أخت زوجها القتيل بطلقة مسدس طائشة، واعتراضها وتحريضها لرجال العائلة على أن يوقفوا هذه المهزلة.

وحين حاول الأقارب الاحتجاج، واجهتهم أم سلمان بقوتها المعروفة وبحزمها الصلب.

- هذه ورثتي وأنا حرة بها.!

وطلبت من مختار البلدة أن يكون شاهداً على عملية البيع، وأعطت الحوش لفريدة بـ "ليرة سوري" لا غير.

تفقدت فريدة مسكنها الجديد، جالت به بهدوء: غرفتين مسقوفتين

بالتراب يسند سطحهما سبع جسور منزعة من سكة قطار الحجاز، مرصرص بالـ"قُصَيِّب" والأخشاب والقناطر المقرنصة، مطورشة جدرانه بكلس يحتاج إلى ترميم، ومستودع لتبن، أمامه مساحة يمكن أن تكون فسحة برندا وحاكورة كبيرة.

شمرت عن ساعديها وبدأت التعسيف والتنظيف بلا كلل، وخلال بضعة أسابيع بدأت الحياة تدب في الحوش التتن، ولسبب غامض وجدت العون من الكثيرين، فتم ترميم المكان، وحين أصبح جاهزا للسكن ذهبت لشكر أم سلمان على كرمها، فردت حماتها:

- كل أثاث بيت المرحوم الغالي لك. هذا حقك.

- ربي يطول بعمرك. قبلت يديها ورأسها.. وصار عندها بيت.

استدارت أم سلمان ودخلت إلى غرفتها المحاطة بصور الموتى، وصورة أخرى لشيخ جليل ومن ورائه خمسة خيول كل واحد منها بلون.

ستقضي هناك سنوات طويلة معتزلة الناس متفرغة للعبادة وبكاء الأبناء والأقارب الموتى حتى انفصلت عن الواقع وانتقلت إلى برزخ سرمدي لن تخرج منه إلا إلى "الخشخاشة "_المقبرة وسط مأتم مهيب.

فريدة تبعت الرؤية وحدسها الغامض، أرادت الاستقلال والانتماء معا. وتحقق لها ذلك.

حملت قناني الحليب المنضوح من صدر أم سلمان. سوّت لها مكانا في جوف الحوش بعد أن لفتها بأكياس من الخيش ودستها في "قصل" التبن الهش الرطب. فهي تدرك أن حمايته من الضوء والحفاظ عليه وسط برودة معقولة أمر مهمّ، فقامت بتحويل نصف الكمية إلى جبن نقعته بالملح! والقسم الأخر بدأت بتقطيره، كما يفعل بالنبيذ! مهارة مارستها سابقا بتقطير العنب في قريتها "المنابيع"، وتوصلت بهدوء إلى نتيجة أثبت الوقت صحتها: الاحتفاظ بها بعيدا عن الشمس والضوء.

ريثما تقرر ماهية هذه المادة إن كانت مباركة أم نجسة.

تناولت زجاجة من حليب الأسى وبدأ تتأملها، وبهدوء فتحت القنينة وشمت الحليب؛ وجدته يعبق بروائح عطرية واخزة. تلبستها قشعريرة جعلت بصيلات شعرها ترتعش. وانتابها خوف مبهم من طبيعة هذه المادة، وكادت تهم برمي العبوات جميعها، ولكنها آثرت التأني، فاتجهت لمخبأ التعتيق لتعيد الزجاجة إلى مكانها، فزلت قدمها وانزلقت من يدها وسال الحليب الأبيض المائل للزرقة على الأرض. لملمت الزجاج المتناثر، وقلبها ينفطر من شؤم اندلاق الحليب على الأرض.

انسرب السائل وسط الحاكورة. شطفت مكانه، واستعاذت من الشيطان الرجيم، وعادت للانهماك بزراعة أصائص الحبق والدفلى وأزهار الجوري.

في يوم التاسع من آذار مارس عام 1969 يمكن القول: إنه كاد يغمى عليها في ذلك الصباح الربيعي من هول الصدمة، لما وجدت نبتاتها التي تشربّت السائل المسكوب، وقد اكتست بخضرة لم ترها من قبل. وعبقت بروائح تثير الحنين مخلوطة بالشفقة الرقيقة، وحين هبت نسمة ربيعية وتحركت الأغصان المحملة بالثمار والبراعم والأزهار المريبة الشكل ودهشت من الهسيس الخفيف مثل موسيقى غامضة تعزف في الحاكورة، لها الصوت يشبه أصوات الندابات الحزينات التي تهيج القلوب وتعيد أسماء الموتى والغائبين إلى الوجود، وتفوح منها روائح عطرية فذة لم يعهدها المكان.

حركت رأسها يمينا وشمالا وهي تبدد هذه الصورة الغامضة التي اكتسحت صباحها وهي تبسمل، ثم أعادت الإنصات من جديد.

لم تسمع غير حفيف خفيف، فضحكت بسرها. وهمست لنفسها:
ولك يمكنك خوثتي يا فريدة بالعربي الفصيح لقد جننتِ يا فريدة!

لوحت لجارها: **صبّحك بالخير يا أبو خالد**. هو العم سلامة ما غيرو.

رد: **يسعد هل الصباح**، وهمس في سره: **سبحان يالي خلقك ما أجملك!**

تابعت العمل مدفوعة بغموض الأحاجي الخضراء. ورفيف التوق لمجهول ملتبس اللون بدأ يلوّن حياتها؟

سوَّرت الحوش بحائط من الحجارة. زرعت أشجار السرو والصبار حوله جعلت من دونم الحاكورة، حديقة مثيرة من الأشجار والعرائش ونباتات الحبق والدفلى،والياسمين والجوري واعتنت بـ "المديدة والعطيرة" المتسلقين على الجدران، حتى أضحى دغلا يؤنس عزلتها الغامضة.

بعد تسعة أشهر من دخولها إلى الحوش، بات عليها إيقاف الخطّاب والمتقدمين والمغامرين، بأن تختار زوجا يستر وحدتها، وبدون جلبة ولا مظاهر احتفالية. تقدم عبود الداري أو عبود السهيان كما يلقبونه في سرمدة لخطبتها.

شرطها الوحيد، البقاء في الحوش، وينتقل هو ليعيش معها.

قُرئت الفاتحة على أن يكون الزواج بعد شهر. جلس عبود وعلامات الخجل على محياه بعد ذهاب المهنئين. وجه مستدير. قمحي اللون. عينان كبيرتان تشعّان براءة وطيبة، لا تتناسبان مع قامته العملاقة. وأصابع عملاقة مهشرة من مقارعة الحجارة كان أفضل البنائين وأمهرهم في سرمدة وما حولها. رفض الهجرة إلى الخارج. لم تغره كل دعوات أخويه باللحاق بهما إلى فنزويلا. بنى منزله حجراً حجرا من بقايا معبد روماني وانتقى لجدرانه صخورا كسرها وشحفها بمهارة عالية.

عبود السهيان، سرد لفريدة مشاعره بجملتين:

- يوم رأيتك تنزلين من اللاندروفر مع المرحوم سلمان الخطار، لم أنم طوال الليل، ويوم وافقتِ على الخطبة وقرأ المشايخ فاتحتنا بدأت حياتي..

ابتسمت فريدة دون أن تنبس بحرف. الصمت اللزج جعل عبوداً يتمنى لها ليلة طيبة ويغادر.

في الصباح لم يأت كما وعدها ليذهبا ويتسوقا لقادم أيامهما، بل جاء خبره! مات بسكتة قلبية على الأغلب..

- رويدك رويدك، لنتوقف هنا.

أوقفت السارد بحزم وقلت له: **لحظة، هذا افتعال للحدث لا داع له.**

هل تخلق من عندك؟ تكذب! نظر من يقص إلي. استدار من انهماكه الجدي في رقش الحروف

أجابني بحنق. لماذا لا تصدق الآن أن عبودا السهيان نام تلك الليلة ولم يستيقظ؟!

اختنق. سكت قلبه فجأة، وهو في عزّ شبابه. بقليل من حرارة العاطفة، ستسيح ببرودة العقل. بقليل من الإنصات والتلفت ستستمع حولك إلى عبثية الموت ومجانيته. لماذا علي وأنا مهمتي أن أسرد لك الوقائع كما هي، أن أعمل على إرضائك على حساب حقيقة دامغة لا تؤذي أحداً.

معي العدة اللازمة لتغير ما أريد، للإضافة والحذف، للخلق والإبادة. لماذا تعترض الآن على موت نزيه صاف بهذا الهدوء.

لو حصل وخرج كلب ملغوث لعبود وعضّه في ساقه، هل ستبدو لك الوقائع أقل افتعالا؟ لو مات عبود أو سافر. لو انتحر لأن فريدة رفضته. أو قتل بخرطوشة فشك في الصيد. لو غرق وهو يسبح في المطخ. لو تزوج فريدة وعاشا معا بثبات ونبات. كلها احتمالات مختلقة قابلة

للحدوث، ولكنها لم تحدث، ببساطة لأن عبود في تلك الليلة نام ولم يستيقظ. جلط وتوقف قلبه عن ضخ الدماء.

ولكن استفاقت ذاكرة الناس الرطبة. فلمّا يمض عام بعدُ على مجزرة العرس، وتحولت فريدة من جديد إلى الأرملة السوداء. القاتلة المشؤومة فالخيال في سرمدة مثله مثل أي خيال في أي قرية في العالم. سهل الاتصال بالغوامض والعجائب والجن والقوى الخفية. حتى أنه يحيل صلصال الأساطير إلى وقائع صلبة ويبني عليها فرضيات لسدّ خواء الحياة.

أخرسني السارد. وشلع من عقلي كل ما يعيق انسياب ما حدث، وما سيحدث وأودعني مرة أخرى في عالم سرمدة حيث الأحداث تجري وفق مزاجها الخاص لا لتشكل حكاية لا تعبأ بقوانين المرويات.

* * *

الصخب المرافق لموت عبود السهيان، أودعها في صمت، فأقفلت النوافذ وانزوت.

استسلمت لموجة حزن عارم، شعور كبير بالمهانة والوحدة. إحساس بأنها مشؤومة وبلا أي أحد يعضد سقوطها، أو سند تتكئ عليه.

لم تشارك بالمراسم الجنائزية القلقة، فالجميع أمسى خائفا من تكرار هبات الموت فآثروا أن يدفنوا ميتهم وينتظروا سماع صوت "الضباحة " في الوعر البعيد...

وحدها بثينة أخت زوجها السابق، لم تتحمل وانفجرت من جديد، حملت نصّية من زيت الكاز وهجمت على الحوش. رشت الباب والمقعد وأشعلت النار، وهي تصرخ وتشتم وتطلب من الساحرة الماكرة الخبيثة الخروج من سرمدة.

ظلت تزمجر وتصيح:

– طلعي من هون عما قلك. شو جابك لعنا؟ "فلي" من هون.يا غراب البين

حتى جاء أولاد خالتها وسحبوها إلى المنزل.

فريدة المنزوية في زاوية البيت، متلفعة بحرام سميك، تشهق وتذرف ما تشاء من دموع.. تنتفض من غفوة مباغتة، تركض باتجاه المطبخ، تمسك بسكين حاد، تشمر عن ساعدها وتحزه بقوة ليخرج بعده الدم متدفقا!

تصيح وهي تتهاوى:

– يا رب سامحني.

رغم أني لا أعرف ماذا فعلت لتعاقبني! سامحني يارب..

أنقذها العم سلامة. جاءها ليواسيها ويشد من أزرها.. لم يرتضِ أن تتحمل ما لا ذنب لها به. فإذا كانت منحوسة، وعرضة لمقالب القدر، فهذا ليس ذنبها. استفزه أنها بلا سند، بلا أهل، ولا أحد. شعر بمرارة تقتحمه؛ بينما أم خالد زوجته، تواصل ترديد السموم ذاتها عن هذه الحرباء النجسة!

وصل حوشها. طرق الباب، وأنتظر.

نادى: **فريدة.. افتحي يا فريدة..**

لم تجب. فكر بالعودة، ولكن خيطاً خفيفاً من الدم يتسرب من تحت الباب.

دفرَ الباب فوجدها على أخر نفس.

استفاقت من غيبوبتها. تعافت سريعا، وبقليل من اهتمام العم سلامة وزوجته التي شعرت بالشفقة على فريدة.

تحسنت صحتها بسرعة. لكنها افتقدت لتلك الابتسامة الآسرة. بدت حركتها ثقيلة، وروحها غارقة في أتون حزن لا شفاء منه. أضحى عليها ابتكار وسائل لتحمي نفسها من العوز، وتخرج روحها من سرادق

الخواء والتعاسة. لم تجد خيرا من نباتاتها وحليب الأسى وتقطير الزيوت من الورد وحبوب السمسم وصناعة النبيذ الغامق المذاق. اكتشاف أسرار النباتات الجليلة أخرجت إحدى قناني الحليب الأزرق المخزونة تحت في المستودع الجواني، وبدأت تجري عليها تجاربها التي تعلمت الكثير منها في طفولتها كابنة أحد العشابين المولعين بالنباتات، وقدرتها على مد الصحة للأجساد السقيمة.

شمت رائحته، وجدتها تفوح حلاوة مشوبة بزنخة خفيفة. سكبت بعضا من الحليب في "كاسرولا" نحاسية، غلته جيدا وأضافت إليه "حبوب البركة" وبعض من العسل الجبلي، وحين بدأ بالفوران، رشت عليه قبصات من طحين القمح الممزوج بالسمن البلدي وصنعت منه كباكب صغيرة بحجم عقلة الأصبع. لفتها بورق شفاف اللون على شكل حبات "كُبب".صغيرة

عبأت نصف كوب من اللبن الرائب صنعته من مقتنياتها الحليبية، تناولته مع إحدى قطع الحلوى! مسحت الخط الأبيض المتخثر عن جانب شفتها،وصارت تراقب تقلصات معدتها.. تشنج جسدها، عضت على أسنانها، نضحت عرقا، وانهمكت في موجة بكاء حاد لم تعهدها في حياتها أرادت الاستغاثة فلم يخرج صوتها، فقبعت تتلوى وتتشنج حتى غابت عن الوعي.

مساءً استفاقت. سارعت إلى المرآة رأت وجهها يعكس بياضاً فذا مصقولا ويشع بالنضارة والأغرب، إنّ مزاجها عالٍ، وروحها تضحك، وتضج بسعادة وافرة، لحظتها شعرت إنها منذورة لتيقظ الفرح وسط هذا المكان المحاط بالوجوم والرجوم والصخور البازلتية الزرقاء الداكنة.

للتأكد من مفعول المادة العجيبة، قررت أن تختبرها مرة أخرى.

فذهبت لرؤية إحدى نساء آل الحامد

وهي امرأة تنضح من ينابيع الألم الفوار. أحلامها كوابيس متواصلة مذ فارقها زوجها وابنها في هجرة قارسة إلى بلد ما لم تستطع تحديده في أمريكا اللاتينية؛ وانقطعت أخبارهما يوم مقتل سجيع في كاراكاس.

جلست بالقرب من "خزعة الحامد" التي تعمل كندابة في المآتم، لتسخين أكثر احتفالات الموت برودة فتثير بأشعارها التي تفطر القلوب الدموع الحبيسة وتهيج الخواطر المكدودة فيرضى أهل الميت عن جنازة مأتمهم وينقدونها مبلغ من المال.

أعطتها حبة من الحبات الثلاث. جعلتها تلوكها قليلا.

بدأ قلب فريدة يضطرب وهي ترى وجه الندابة المحتقن بالألم وقد أصبح أحمر مثل الشمندر. ونضح جسد النّدابة بالتعرّق ولم تعد تقدر على التقاط أنفاسها. دخلت ابنتها فصاحت بفريدة: **شو عملتي بأمي الله لا يوفقك.**

كادت فريدة أن تبدأ بالولولة لولا شعورها بأن شيئاً ما يحتاج الصبر والسكينة.

بأعصاب باردة، وهدوء مفتعل، أشارت للصبية أن تهدأ، وحين لم تنفع الإشارات صاحت بها:

– اخرسي وليه.

بعد ساعة من انعدام الحيلة، انجلت الغمامة الشمندرية عن الوجه، وبدأت المرأة بالبكاء وذرف الدموع مدرارا. تبكي سنوات عمرها وحياتها وانتظارها وخساراتها.

ساعتان من النشيج المتواصل والشهيق الممزوج بالصراخ والتمني،. جعلتا جسد الندابة ينهد وينخمد بعد أن ارتاح من فرز سموم القلب، وإخراجها من بؤبؤ العينين.

صار يسترد نضارته ورويدا رويداً، وعاد انتظام الأنفاس للندابة،

وانفرجت أساريرها بهدوء. وظللتها هالة من الضوء الخفيف تشرق بوجهها المكدود

أصبح صوتها رقيقا ذا رنة، غير أنه ما زال مغموسا بالحزن، ولكنه مذهل بالطلاوة الآسرة.

– شو طعمتيني يا فريدة؟ سألت الندابة بسذاجة.

ردت فريدة بثقة ممزوجة بحنان: **دواء يا خالتي. بإذن الله راح ترتاحي.**

قالت الندابة: **أشعر وكأنها صخرة وانزاحت عن صدري!**

غطتها فريدة وقبلت رأسها. **نامي هلق وبرجع بشوفك بعدين.**

– الله يوفقك يا بنتي ويسلم دياتك.

– ما في شي من الواجب يا خالة، ردت فريدة

وقبل المغادرة وأعلمت بنت الندابة: **ابعثي وراي إذا صار أي شيء.**

قالت ذلك وهي لا تدري ماذا تفعل إذا حدث مكروه للندابة، لكن قالته لتوصل رسالة ثقة إلى الصبية التي شككت فيها، ولتسمع نفسها بأنها صارت منذورة لفعل كبير عليها أن تستعد لاستقباله.

* * *

بدأت فريدة تعد العدة لحفلة "الرز بحليب".بعد أن استطاعت بروحها الفائضة بالبهجة، وابتساماتها الساحرة، أن تستعيد ثقة الكثير من الناس وتنسيهم أنها امرأة مقرونة بالشؤم.

وأضحت شهرتها كعشّابة ماهرة تتردد في سرمدة وما حولها. لكنها فشلت فشلا ذريعا باستمالة بثينة شقيقة سلمان الخطار، زوجها القتيل.

فبينما انشغلت فريدة بإعداد العدة ووضع الخطط المناسبة لإقامة وليمة من الأرز الممزوج بحليب الأسى، كانت بثينة تتمزق بالكراهية والحقد والغيرة من هذه الغريبة الشيطانية. وبعد تردد استمر أياما، قصدت

بثينة سرا "عرافة كناكر" الساحرة الأكثر الشهيرة في حوران.

قالت لها: **أريد لقلب فريدة أن يحترق كما حرقت قلبي على أخي. أريدها أن تتعذب وتذوق ما أذاقتنا إياه.**

سألتها العرافة: **أنت متأكدة من أنها السبب بالمصائب؟**

– مليون بالمية هي السبب وهوي في غيرها، ومن يوم ما دخلت سرمدة لم يتوقف الموت والشؤم عن المجيء.

حذرتها العرافة الشهيرة بأن التعويذة لن تنفع إذا كانت فريدة بريئة.

ردت بثينة بثقة: **على الأقل، بكون عرفت إنها بريئة.**

– مثل ما بدك.. وافقت العرافة بلا مبالاة.

وانهمكت في صناعة "حروز" الشر المستطير، لحرق قلب فريدة مقابل خاتم من الذهب عشر غرامات عيار 21، وكَبْش بقرنٍ مكسور وثُمنية زبيب فاخر. أعطتها بثينة الخاتم والزبيب ووعدتها بالكبش بعد أن تفعل التميمة فعلها.

طلبت منها أن تحضر أيضا شلحة نوم من ثياب فريدة. وجدتها بثينة بسهولة في بقايا الثياب التي نسيتها فريدة بالبيت، واسم الأم وتاريخ الميلاد، حصلت عليه من عقد الزواج، وبضعة أشياء سخيفة. لكن بثينة تعاملت مع طلبات العرافة بجدية صارمة. جلبت لها كل شيء، فانكبت العرافة على صناعة أقوى خط وتعويذة يمكن أن تعمل لبشر مستعينة بأسرار في صفحات من كتاب "العزيّف" لـعبدالله الحظرد.

فمع اكتمال قمر أيلول، دخلت العرافة خلوتها الخاصة، فتحت الصندوق القديم، أخرجت صرة ملفوفة بعناية، فكتها بهدوء وتأنٍ، كاشفة عن كتاب أسرار الموتى المسمى "العزيّف".. جِلدته مصنوعة من جلود مجففة لبشر ماتوا بحوادث موت قاصفة، وكل الرسوم الداخلية، مرسومة حرقا بمسلات وأبر تحفر علامات ورموز للكتاب الأكثر غموضا في التاريخ.

تذكرت وصية والدها، وهو يقرأ عليها فصولا منه، ويكشف لها أسرار الموتى: **إياك وأن تستخدميه إلا في الضرورة القصوى.**

فحساب الرمل الذي أجرته العرافة على اسم فريدة، والنتائج التي توصلت إليها تؤكد إنها واحدة من سلالة العشرين، وهي سلالة الملائكة الضالة، الذين أرسلوا إلى الأرض بعد الخلق الكبير، ليساهموا بتنظيم المكان وتنسيق عمل البشر كي يكون لهم مهمة محددة، ولكن عشرينا منهم انشقوا عن الطاعة ورفضوا الأوامر الإلهية بالعودة، أغوتهم الأرض ونقصها كشف لهم إن الخلود مريب ومؤلم، فخرقوا المحظور الإلهي وتزوجوا من الإنس هذا الجنس الضال التافه القابل للموت. فأصبح نسلهم وباء على الأرض، وأورثوا سلالة مفسدة محتقنة بالغيض والغيرة، وحين وصل ضلالهم إلى حد اللاعودة، جاءت أوامر الرب بتدمير تجمعاتهم مرتين. إرمَ ذات العماد و طوفان نوح صحيح أن سلالة العشرين ضعفت قواها، لكنها ظلت تتقمص وتجدد نفسها، فبقيت تتناقل جيلا إثر جيل مدسوسة بين البشر، لا تكتشف ولا تعرف إلا لمن كان بها خبيرا وأوتي معرفة بكتاب "أنساب الموتى" أو كما سمّاهُ صاحبه كتاب "العزيّف".

بدأت العرافة تبحث عن التعويذة المناسبة، وتستعين بخادم عملاق من سلالة الجن التي اتهمت مؤلف الكتاب في أحد أزقة دمشق قبل 1300 عام.

أمسكت الكتاب بيدين مرتعشتين، وهي لا تدري إنها تمسك النسخة العربية الأخيرة من أكثر الكتب إثارة للجدل في التاريخ.

كتاب "العزّيف" أو "نيكرونوميكون"، يقع في سبعة أجزاء، وعدد صحفه ٩٠٠ صحيفة. ألفه شاعر يمني من صنعاء اسمه عبد الله الحظرد نسبة لحضر موت ربما، بعد سنوات من الاعتكاف في الصحراء

ومطاردة "الجن والبن" وما بقي منهم حاضرا وقويا ومنبوذا على الأرض؛ وهما سلالتان عاشتا على هذا الكوكب قبل أن يستبدلهما الرب بجنس له حضوة لديه ويطرد الجنسين السابقين خارج الأرض.

كتب الحظرد – أو الشاعر المجنون كما يلقبونه – تاريخ الزمن الماضي مغرقا في تفاصيل لا تعني العقل البارد، وتضحك المطمئنين إلى الحواس، وأمضى حياته الغريبة في الكشف عن أثار مدينة أرام الأسطورية، والبحث عن الرموز المخيفة لعوالم أخرى ظلت تسود على الأرض قبل الطوفان.

سماه "العزيّف" نسبة إلى الأصوات التي تصدر ليلا من الحشرات وهي أصوات الجن والشياطين.

نهاية عبدالله الحظرد المأسوية، خربت طموحه بالوصول إلى الكشف التام عن سلالة العشرين، فخرج له عملاق خارق في أحد أسواق دمشق، وقضم رأسه على مرأى من الناس قبل أن يلتهم باقي أشلائه على دفعات. فأصاب من رأى الحادثة مس من الهلع، ومن يومها عرف العالم مرضاً يسمونه "داء النقطة"، أو الصرع. وهي النقطة التي تكشف الحجب المستورة للرؤية، أو البعد غير المنظور في العقل، فيشاهد أصحابها أن الفراغ يضج بالموتى والمشوهيين والجن والبن وأشباههن، فيصل العقل إلى نقطة اللاعودة!

الكتاب مليء بالرموز الخارقة لمفاتيح الحياة ومعاني الموت، ويؤكد حقيقة غرائبية: إن الأرض كانت تدور من اليسار إلى اليمين، ما زالت كذلك، ولكن حدث عطل في العقل جعلنا نظن إن الزمن يسير من اليمين إلى اليسار. ولم تنفع كل النداءات والمحاولات لتغيير رأي العامة.واكتفى الانكليز بتغير اتجاه الدائرة في حركة المرور ومقابض الأبواب دون أن يعطوا التفسير المناسب لماذا؟

فالعزيّف يروي: إننا نتجه إلى الماضي وليس إلى المستقبل، وأن التاريخ هو ما سيحدث، والمؤرخون هم كهنة المستقبل.

المستقبل قد حدث سابقا والماضي هو ما سيحدث. من هنا فكل الإشارات التي تخرج من الاديان مفرطة الثقة بالقدر القادم وهنا مكمن الخطأ الفادح، فالقادم قد تم ونحن نكرّ إلى الخلف ولم يكتشف هذه الحقيقة سوى القليل من الناس، لم يفصحوا عن هذا السر الكوني الكبير. نظرا لأن عقول العامة لا تحتمل حقيقة صاعقة بهذا الحجم.

أسرار هذا الكتاب تبدو لعين العاقل نوعا من الخرافات والشعوذات، نتيجة عطب في إدراك الزمن ولكنها حقائق واقعية بالنسبة لمن أعطي العين السادسة، ولم تتلف خلايا دماغه أكاذيب الحواس.

فهو محمل بمعرفة أقرب لكلية القدرة حول ما حدث، أو بالأحرى حول ما سيحدث. ومن يملكه يملك مفاتيح فهم كل الخوارق والنبوات والأحداث على مر العصور. أما من يمتلك نسخة مزورة أو ناقصة منه يموت بوسائل مفزعة ومخيفة..

هناك نسخة وحيدة متبقية في مكتبة الفاتيكان، لكنها نسخة غير كاملة محظور على الرهبان الإطلاع عليها. أما النسخة الحقيقة العربية الأصل، فضاعت من الوجود منذ زمن قديم.. ترجمت للعبرية عبر عائلة يهودية دمشقية، وأودعوا تلك النسخة العربية لدى صائغ فضة يدعى جورج سحتوت قبل مغادرتهم إلى فلسطين.

الصائغ ظل على علاقة سرية بامرأة مسيحية من حوران لسنوات، تزوجها بعد وفاة زوجته مختنقة بقضمة سفرجل لم تستطيع ابتلاعها عام ١٩٥٤، وقبل موته أودع عند ابنته صندوقا مليئا بالأساور القديمة وطوق من الزمرد والأحجار الكريمة ادعى أنه لبلقيس ملكة سبأ والكتاب الغامض المليء برموز معرفة أسرار الموتى وطرق تخضير الجثث

وإعادتها للحياة ووسائل تسخير القوى الغامضة والكائنات الخفية لخدمة من يملك هذا الكتاب.

الصائغ علم ابنته سارة - التي عرفت لاحقا باسم عرافة كناكر - مفاتيح الرموز وترك لها أن تقرأه على مهل بتمعن ودقة على مدى سنوات وسنوات.

من وحي كل ذلك، كتبت العرافة تعويذة الانتقام المبثوثة في رقية حارقة، أضافت عليها قطعة من ذيل حرذون ظل يتحرك لساعات، وحين هجع أضافت الفلفل الأسود، وهرست ضرس ضبع وخلطت المسحوق بحبر الموت المصنع من جمجمة غريب مات محروقا؛ نبشت العرافة قبره واستخدمت عظامه كرماد يفيد في إثارة سخط الأموات على الأحياء.. خطت من السخام رموزا وشخابيط واستحضرت أسماء عجيبة ولوثات لتتعذب بها فريدة، كي تطرد من سرمدة إلى غير رجعة.

أعطت "الحروز" لبثينة وهي ترتجف، وأعادت إليها الكبش والخاتم، وقالت اذبحيه ولا تطعمي منه بشرا، بل قدميه للحيوانات الكاسرة في الوعر، فأنا لا أريد شيئا سوى أن تختفي هذه الشيطانة من بلدتكم.

وسلمتها قارورة فيها سائل ممزوج بالزرنيخ، وطلبت من بثينة أن تنتظر أسبوعا، فإذا لم يؤثر العمل فيها، فعليها أن تضع بضع قطرات منها في طعام فريدة وتجعله يدخل معدتها، حينها فقط سيبطل أي مفعول لقواها الشريرة.

أخذت بثينة "الحروز" والمنقوع بدون أن تعرف بأنها تحمل سما قاتلا، يكفي لقتل جملٍ من الحجم الكبير.

* * *

كان على فريدة أن تقنع آل منصور بالحضور، فحزمت أمرها وقررت المغامرة. ارتدت فستانا مشجرا زاهيا، يكشف بداية ثدييها

المتوثبين، ووضعت قليلا من الروج الأحمرعلى شفتيها، ولفحت على رأسها إشاربا شفافا وتركت غرتها تتهدل على جبينها. حملت صينية من الكُبّب وطنجرة من البرغل المسلوق، مع قطعة من اللحم، واتجهت نحو الطاحونة القديمة.

أربكهم حضورها. فخمستهم يعزقون الأرض بجوار الدار.توقفوا عن العمل وتجمدوا وهم يراقبون قدومها.

وضعت حمولتها على الشرفة الحجرية، ونادت عليهم. توقفوا عن العمل، وراقبوا هذه الغريبة بعيون مشرعة على تساؤل مبهم. لكن شفيعاً، أصغرهم ذا الثامنة عشرة، برقت عيناه، وابتسم وتوجه نحوها.

– **لوين رايح؟** ناداه نواف الأخ الأكبر بحزم.

– **شوف مين هذه، وشو بدها.** وتابع مسيره متجهما.

سلم عليها، وبدا وكأنه يرى كائنا قادما من كوكب آخر. شيء ما خرج من روحه.. انفتح للأبد. غشاوة مرارة تمزقت عن عينيه اللوزتين المكظومتين على تساؤلات لا قرار لها.

– **انت شو اسمك؟** سألته بمخمل صوتها.

– **شفيع.. شفيع منصور.**

– **طيب حبيت سلم عليكم وأعزمكم على حفلة رز بحليب عندي بالبيت. أنت وإخوتك. بعد بكرا ليلة عيد الصليب.**

– **بس نحنا ما فينا نجي.** حدقت به، شعر بهذه النظرة وكأنها دبيب فرح غامض بدأ يعصف بروحه. لم يكن يريد لهذه النظرة أن تنتهي.. قطعتها قائلة: **بس أنت فيك تجي.**

– **ان شالله.. بشوف إذا بقدر.**

– **شفيييع.** صوت نواف الحاسم المخرش يسحبه ويعيده ليعزق حجارة الحقل.

ابتسمت وبرقت عيناها المصوبتين عليها وهمست له بإغواء خلخل وجوده: **راح استناك**..

واستدارت لتعود. بالطبع لم تكن هناك قوة في العالم، ولا صوت نواف، ونايف وطلال وشاهر، أخوته الأربعة معا، يمكن لهم أن يمنعوا عينيه من الالتصاق بظهرها ومؤخرتها الراقصة تحت فستانها المشجّر.

* * *

استعانت فريدة بجيرانها، كانت تريد أن تصنع وليمة من الرز بحليب وحلوى الدبس، والفطائر المغموسة بالحليب الأزرق، تكفي سرمدة، وتروج لنفسها كخبيرة في الأعشاب، فاشترت ثلاثة شوالات من الأرز، وأوصت على عشر تنكات من الحليب، وبدأت تصنع الحلوى "المفتفتة" من الدبس والسمن البلدي والطحين. انهمكت بعض النسوة بترتيب حديقة الحوش وتنظيفها، واستعارت الكراسي من المدرسة الإبتدائية، ووسعت حلبة الدعوة إلى الساحة المنبسطة أمام بيتها. أثناء انهماك الصبايا بالعمل على مدار يومين، جاءت بثينة برفقة أم خالد، فصالحت فريدة راسمة قناعا يخفي خلفه نية خرقاء. استقبلتها فريدة، وفرحت بها كأخت ولم تصدق عينيها؛ وبينما انشغلت فريدة والنسوة بالتحضير للاحتفال الكبير، راقبت بثينة بعينيها القلقتين سلوك فريدة، رأتها تشرب جرعات متقطعة من قنينة حليب وضعتها بجوار خابية الماء، ولفتها بكيس من "الخيش" يحفظ الرطوبة. غافلت بثينة الجميع وسكبت بضع قطرات من منقوع العرافة في القنينة وتحججت بأعمال طارئة وغادرت.

سُلِقَ الأرّز في "خلقينات" ضخمة، و تقدمت فريدة وأخذت القنينة الملفوفة بكيس الجنفيص، وبدأت تسكب منها فوق تنكات الحليب وتخلطه جيدا، فهي أضحت متأكدة الآن من قدرات هذه المادة المنتوحة من ثديي أم سلمان، إنها ستعالج آلام سرمدة.

أفرغت القنينة كاملة في تنكات الحليب وشرعت بغليه وسكبته فوق الأرُزّ الفائر بالطراوة. وأضافت عليه الـ "ماء زهر" ومنكّهات تفتح الشهية على الأكل والحياة معا.

ستبقى ليلة السابع والعشرين من أيلول/ سبتمبر، علامة فارقة في تاريخ سرمدة..

فسرمدة بحاجة إلى من يعيد إليها بعض الحياة، فالجميع في وجوم وخائف. وشر الضحك والتعوذ منه كلما ندّت ضحكة حرونة عن أحدهم. فبعد أن رأوا بأعينهم كيف حول الموت عرسهم وفرحهم إلى مأتم، لم يتوقف إلا بشق النفس، قدروا أنهم لم يخلقوا للفرح أو للحياة؛ فكل شيء يجعل الناس يبتسمون، سيحمل شرا معه فآثروا الوجوم مع هدنة المصائب خير من فرح كوارثي العواقب.

فريدة تمور بالفرح تتحرك وكأنها تمشي فوق غيمة كل ما فيها يضحك جمعت الأطفال وأغدقت عليهم الحلوى والفرنكات الرنانة.

استثمرت حماسهم وهم ينتظرون ليلة عيد الصليب، ليشعلوا نارا عظيمة في الساحة. فأمنت لهم مكانا أمام الحوش، ووظفتهم كمراسلين لكل البيوت التي لن تأتي إلى الحفلة، ووعدتهم بالكثير من المازوت والحطب والحلوى.

في الظهيرة، تبع الأطفال الشماس عطالله حتى باب الكنيسة القديمة،

صحيح أن الشماس كان محبوبا من الجميع لخفة ظله ونزقه الكبير. فهو لم يستطع يوما ضبط لسانه فالشتائم تخرج من فمه ببساطة، وأخرها تندر بها أهل سرمدة لأسابيع. فابنه ميشيل أصابته حصبة قوية، خاف عليه كثيرا. فنذر لرب أن يضحي ببقرته في حال شفاء ميشيل، بعد يومين تماثل الولد للشفاء، نزل مسرعا إلى حظيرة الدواب وجد حماره ميتا.

نظر إلى السماء وقال: **شو يا رب خَرِفْتنا؟ بطلّت تعرف الحمار من البقرة؟**

على كل نتيجة إلحاح الأولاد لأخذ حصتهم السنوية من الكنيسة، جاء معهم ليفتح بابها وينتظر الخوري إلياس ليوزع عليهم العدية.

أمسك بالمفتاح الكبير وأدخله في الثقب، فلم يستطع إدارته، حاول مرة أخرى، بهدوء ثم بعصبية ظاهرة ونزق، أداره يمينا وشمالا دون جدوى، القفل يأبى أن ينفتح فصار وجهه محتقنا بالغيظ والغضب. نظر إلى السماء، مخاطبا من يجلس على عرش الملكوت. **أي شو بدي صلي لألي يا أخو القحبة؟!..**

راكلا الباب، فإذ بالمفتاح يدور وينفتح الباب.

فنظر إلى السماء باسما: **الواضح إنك ما بتمشي غير هيك.**

جاء الخوري إلياس بعد دقائق. وأخرج علبة ملبس طيب المذاق بنكهة النعناع، ووزعها على الأطفال، وأعاد عليهم حكاية عيد الصليب كما يفعل كل عام.

– عيد الصليب، كان الطقس القديم من حكاية القديسة هيلانة. يوم جاءتها الرؤية وأمر الرب: اذهبي إلى القدس وابحثي عن الصليب المجيد؛ فأرسل معها ابنها الإمبراطور قسطنطين ثلاثة آلاف مرافق. ومرت من هنا، على سرمدة قبل ألف وثمانمائة عام. حين وصلت القدس، بحثت طويلا عن آثار الصليب، فوجدته مع صليبين آخرين مدفونين تحت مزبلة! ولكي تعرف أياً منها هو الصليب الذي صلب عليه المسيح، مررت الصلبان الثلاثة على جنازة عابرة.. الأول لم يحدث شيئاً، والثاني لم يحدث شيئاً، وحين مررت الصليب الثالث من فوق الجنازة، قام الميت حياً يرزق، وصار خادما في كنيسة القيامة.

ولما تأكدت أنها حصلت على الصليب، أوقدت نارا عظيمة في

القدس.في يوم الرابع عشر من أيلول ونسميه العيد الصغير وكانت تلك إشارة متفقاً عليها في رحلتها؛ كل من يرى النار يوقد نارا، في القرى والبلدات والمدن التي جاءت منها. وهنا أوقدنا نارا قبل مئات السنين. هنا في سرمدة، فشاهدها أهل أزرع فأوقدوا نارهم؛ هكذا حتى وصلت الإخبارية والعلامة إلى روما يوم السابع والعشرين من أيلول. فعرف الإمبراطور قسطنطين أن أمه قد وجدت الصليب، وفي ذكرى هذا اليوم، نشعل نارا عظيمة تخليدا للقديسة هيلانة.

استمع الأولاد بفرح لحكاية الخوري، وأخذوا حلواهم وبضعة فرنكات، وذهبوا ليستعدوا لليلتهم العظيمة.

كل ما يحدث في سرمدة، هو تأكيد على الفراغ والنسيان: الفرقة الحزبية والاجتماعات، الشباب المتعلمون القادمون من دمشق بحماسة ثورية، شيوعيون وقوميون سوريون وناصريون وبعثيون، والهاجس الوحيد، هو تحويل الهزيمة إلى نكسة. روح جديدة غمرت سورية مستمدة من.بقاء عبد الناصر والحركة القومية العربية لحلم الوحدة.

وجد الفلاحون والطوائف الباطنية الفرصة ليخرجوا من عزلتهم، ويمدهم بالحماس التغييري والانقلابي والثوري. فالاستقلال غير المكتمل. ينتج قيادات ممسوخة ستحول البلاد العربية إلى دكتاتوريات راسخة. تجعل من إسرائيل تبدو واحة من الديمقراطية وسط دغل من المتوحشين والقمعيين والموتورين. ستحرص إسرائيل على بقاء هذه الأنظمة فوجودها مرتبط بتحويل الشرق الأوسط إلى دكتاتوريات فاسدة، كحكومات وشعوب مقسمة طائفيا ومذهبيا.

لكن بلادة سرمدة، تجعل من السياسة شيئاً يحدث في كوكب آخر. فطرة المكان لا تفهم كل هذا الزخم من المصطلحات والرغبات بالتغيير والتحرر من الإقطاع والعادات البالية! وبسهولة وجد البعث طريقه

للجبل و سرمدة والريف السوري عامة، لأنه يتناسب مع مزاجه وأحلامه وشعاراته. لكن بقي خارج روح المكان وخصوصية البشر. ولن يفلح أبدا لا هو ولا أية أيديولوجية في فهم طبيعة الناس.

وحدها فريدة عرفت كيف تصنع من القحط واحة، ومن الحب المتدفق للأشجار والحشائش مذاقا آخر. استأجرت الكراسي، ونظفت النسوة اللواتي هببن لمساعدتها الساحة أمام الحوش. ووزعوا صحون الأرُز الممزوج بحليب طازج مضافة إليه خمائر أم سلمان المليئة بالأسى. وتوصلت إلى تخفيف الجرعة ومزجها مع الخميرة وعجنت منها فطائر الزعتر والجبن و السبانخ و سباين المصنوعة من السكر والماء والحليب وجيشت الأطفال لنقل الفطائر إلى جميع البيوت.. لكل من تقاعس عن الحضور.

ومع تجمع الناس بين الفضول والرغبة بالمشاركة، تشكل مزاج لطيف وخرج التوق للحياة خجلا في البداية حتى أمسك نور الدين مزماره، وبدأ يعزف؛ وتلقائيا اصطف أكثر من ثلاثين شابا في الدبكة. وجاء حسون الطبّال "بدربكته الشهيرة"، وتحولت السهرة إلى فضاء آخر. عقدت الدبكات وتناول الجميع الأرز بالحليب، والفطائر الطيبة. كانت سرمدة الحذرة مع الفرح، تحاول نسيان البلاء بعد عرس سلمان المؤلم. فجاءت الصبايا وكأنهنّ قادماتٍ إلى عرس. وعُقِدَت الهوليات والجوفيات والدبكات وكل أنواع الرقصات الشعبية في صخب غاب عنه العنوان! لم يكونوا يعرفون لماذا يحتفلون، سوى أنها ليلة عيد الصليب!

تجمع أطفال البلدة في جماعات بعد أن أدوا مهماتهم التي وزعتها عليهم فريدة، وبدؤوا يجوبون البلدة ليجمعوا"الطبابيع"، وهي مواد سهلة الاشتعال مصنوعة من فضلات البقر وممزوجة مع القصل، وتجفّف فترة الصيف. توقد بها مدافيء الجلّة والحطب.

أصواتهم تجوب البلدة، وهي تلعلع، وكلما جادت عليهم عجوز أو سيدة ببضعة "طبابيع" وقنينة من زيت كاز، يرجزون لها:

تانكي فوق تانكي (التنكة او التنكي وعاء من تنك يوضع به زيت الزيتون وتستخدم لتعبئة الماء من النبع)

صاحبة الدار مالكي. (ملكة).

أما البخيلات القليلات العطاء، فكنّ يحظين بتلك الأرجوزة الشاتمة:

طراحة فوق طراحة* (فرشة رقيقة توضع على الأرض)

صاحبة الدار منطاحة* (أي عاهرة)

فينالون غالبا شتائم تلحق أمهاتهم، وبضعة دلاء من الماء الوسخ تدلق عليهم من السطح!

-لاقيس بنت ابليس.. صرخ الشيخ فاروق، وهو يرى الحلوى المربية والفطائر التي جلبها الأطفال لداره، وبحزم مبالغ فيه، يمنع زوجته وابنتيه من الذهاب لحفلة الدعارة تلك، كما سماها!

فريدة تهدد سلطته فعلا.

فقد نجحت كعشّابة. ولم تُبقِ له سوى القدرة على الشفاء من "أبو كعب". فهو يشخوط على الوجوه المدلوقة المتورمة بقلم حبر "بيغ" بضع عبارات غامضة ويتلو آيتين قرآنيتين، ويعصب الوجوه "الكاركاتورية" لمرضى "الأبو كعب" بعصابة بيضاء مربوطة فوق الرأس، ويتقاضى دجاجة، أو بضع بيضات على حرفيته البارعة في فك الانتفاخات المؤلمة، فاستحق لقباً جديدا، بات جميع أهل سرمدة يتبادلونه سرا: "شيخ الأبو كعب"..

خرج شاهرا عصاه، يريد تخريب عزيمتها وحفلها. وصل غاضبا، فوجد نارا عملاقة تشتعل وحولها فتيان مثل القردة يتقافزون ويلقمونها الطبابيع والحطب.

وهاله كيف تحتفل سرمدة! العم سلامة نحر خروفين، مما شجع جمعاً من ميسوري الحال في البلد على تقديم ذبائح علقت في الساحة. وزع اللحم على الجميع، وأقيمت حفلة شواء هي الأكبر؛ وكل من جاء حمل معه شيئا ما رغبة منه بالمشاركة الفعلية.. أضحت سرمدة تتنزه خارج ذاتها. لم يكن أحد يستطيع إيقاف سيل الحياة الذي دب في شوارع البلدة ودروبها.

وبدل ان يصب شيخ الأبو كعب غضبه على الفاسقة الباثقة الشريرة، استدار إلى الدار، وجلس على المصطبة.. نادى على ابنته جومانا:

- **جيبيلنا فطيرة من فطائر فريدة.** ابتسمت الابنة بمكر.

- **مليح أنك لحقت حالك!** جاءته بفطيرة من الدبس والسكر، وأخرى من السبانخ. تناولها الشيخ، وهو يودع ابنتيه وزوجته الذاهبات إلى السهرة:

- **بس لا تتأخروا!**

مرّ على الشيخ فاروق، ثلة من المشايخ: **شو شيخ، عاجبك يالي عما يصير؟**

- **طولوا بالكن يا حضرة المشايخ. الناس تعباني، خلوها تفرّج عن خواطرها شوي.** فصارت أسارير الشيخ تنفرج عن وجه سموح وحمرة خفيفة بدأت تظهر على أنفه الضخم.

وشرع ضيوفه بالتهام ما تبقى من الفطائر..

تناقص الحضور. أنهكهم التعب والسُكر والرقص. تشبعت ثيابهم بروائحَ دخان النار العظيمة التي أوقدها الفتيان. تنشقتها مساماتهم، وعادوا إلى منازلهم مترنحين ثملين بغبطة سرية.

على الدرب الترابي الواصل إلى "الخشاخيش" المقابر توقف صايل، وانحرف عن الطريق فحاجته تلح عليه و لم يستطيع إيقافها. بال

واقفا وهو ينصت لعزيف الصراصير الليلية، ومع رعشة النهاية، بدأت عيناه تدمعان دموعا حارقة، وحين وضبّ نفسه وأراد متابعة السير، صارتا محتقنتين تشرشران دموعا. صار كمن تنشق بصل حرّيف. لم يكن يعرف لماذا يبكي ولم تكن به رغبة بالتوقف، سار بجوار الوادي وفجأة صارت بطنه تؤلمه، وأضحى بكاؤه نابعا من ألم ما، وليس نتيجة ناموسة صغيرة دخلت عينيه كما ظن، فجلس بجوار الوادي وبدأ ينوح.

ظل يذرف دموعا حارة أكثر من نصف ساعة. صوت النهنهة المشروخ وصل إلى الدار القريبة، اقترب غازي من مصدر الصوت، حاملا "جفته" وفانوسا يضيء المكان صائحا في الجانح الباكي: **مين هنيك..؟!**

بدلاً من التوقف عن البكاء، صار يجيش بالنشيج. امتدّ ضوء الفانوس إلى وجهه. ارتعب غازي، وسقط "جفته" من يده، ووضع الفانوس جانبا:

– **ولاك صايل، خير شو باك!؟** دون جدوى، فلم يحظَ بإجابة تروي ظمأ السؤال. قابله صايل بالمزيد من الدموع وعلوِّ النشيج.

هزه من كتفيه. نهره يسأله مرارا ومرارا، ولا شيء سوى البكاء المشروخ من هذا الرجل المكرش المديد القامة الذي يجلس قرب الوادي وينوح مثل النساء.

وحين تراخت عزيمة السؤال، جلس غازي بجانبه يتفقد عينيه بيده.. فإذ بهما مبللتان بالدموع أيضا.

وبدون أن يدري كيف، أو لماذا بدأ بـالنهنهة الصامتة، تبعها بنشق لسوائل أنفه لينتهي بالنشيج المتعالي.

من بعيد تسمرت زوجة غازي تتكتك من الرعب وهي ترى شبحين لرجلين واضعين رأسيهما بين رجليهما جالسين على ضفة الوادي. يصدر عنهما بكاء أقرب للعويل، فتحتار بين الرجوع لطمأنة أطفالها المذعورين،

أو التقدم اللزج لمعرفة ما يجري قرب الوادي، فتأخذ بمسح دموع عينيها، وتعود إلى البيت لتنخرط مع الصغار في نوبة ذعر مليئة بالدموع الحارقة.

الرجلان نتحا سوائلهما معا. بكيا كما لم يبكِ أحدٌ منهما من قبل؛ ومع نشاف دموعهما، بدأ شعور غازي بالغثيان يتملكه، ورغبته لا تقاوم بإخراج ما في معدته، فاستفرغ أولا، وتبعه صايل، وتتالت نوبات البكاء الجاف مصحوبة بغثيان يمزق الأحشاء.

من خلفهما، كانت سرمدة – بكل من فيها – تنشج وتتقيأ.. تسممت القرية من الرز بحليب أم من تعويذة العرافة، لم يكن أحد يعرف، ولن يستطيع أحد يوما يدخل مدار معرفة ما حصل. كباراً أم صغارا، كل من أكل، كل من شارك في الحفلة أو لم يشارك، بكى تلك الليلة وتقيأ. أمسى شعورا بالعدوى ينتقل من بيت إلى بيت، وحدها بثينة لم تبكِ ولم تتقيأ تلك الليلة، بقيت تنصت من حجرتها لأصوات النشيج. تعرف أنها تسببت بكارثة للبلدة الباكية.

غفت عند الفجر وحين صحت – بعد ساعة – استفاقت محتشدة بدموع محبوسة، جعلت من عينيها المتورمتين أقرب لبركتي دم.

اقتحمت خلوة أمها، وجدتها تتعبد وغائبة في عالم الأموات الحزانى. تركتها في سلام وخرجت راكضة. أصابها الهلع وهي ترى البشر ممن لم يصل إلى بيته يستيقظ متعفرا بقيئه، ملقوحين على جنبات الدروب غارقين في تشنجات العويل الصاخب. بدت البلدة وكأن وباء ضربها. وجوه الناس شاحبة، وأجسادهم متهالكة؛ ساعدت من يحتاج المساعدة للوصول إلى بيته، وعادت إلى غرفتها. أغلقت الباب عليها وظلت تحاول البكاء بلا جدوى حتى انتصف النهار. فغمرها النوم..

بينما بثينة ترقد نائمة بلا أحلام على الأغلب، كانت جائحة تعصف ببيوت البلدة. توقف الناس عن الذهاب إلى العمل وانشغلوا ببلائهم

المباغت. حاولوا الوصول إلى الشيخ شاهين، فوجدوا حاله يرثى لها. معفرا بقيئه.

الكنيسة موصدة الأبواب، وأبونا إلياس يسكّن آلامه الخاصة بمزيج من الزهورات ومنقوع البابونج.

والرائحة الواخزة تفوح في البلدة. ولأول مرة - منذ وافق الناس على بناء المسجد في سرمدة - لم يقم الإمام بالأذان، فقد هدّه الألم بقي ممغوصا ومحتقنا بدموعه، وكلما شرب رشفة ماء، سالت من عينيه على شكل دموع إثم مدرارة.

غضب من السماء، أم حقد من الأرض، لم يعد الناس يكترثون. فجلّ همهم إيقاف النشيج والآلام، أما المغص والاستفراغ، فحلوا المشكلة بالتوقف عن الطعام والاستعاضة عنه بشرب الماء واليانسون الذي سرعان ما يخرج ذرفاً من المحاجر والعيون، مصحوبا بنوبات حنين وفقد لم يختبره أحد من قبل على الأرجح.

حالة من الإرباك بدأت تسود حيوانات البلدة. مثل شعور غريزي قبل الزلازل والكوارث فدفرت الأبقار أبواب البوائك، وفرت هاربة تجعر بجنون، وتبعها نهيق حمير وأتانات البلدة، وماءت القطط الشاردة مواء يقطع القلب، ولو لم يكن أهل سرمدة في بلاءهم العظيم لضحكوا من تصرفات الكلاب التي بدت وكأنها في حالة سكر شديد تعوي بعواء أقرب لأولاد العمومة، الذئاب. ومن الوعر البعيد، ضبحت الضبحات في جوقة شؤم جماعية. حتى الدجاج والديكة، صارت تصيح عصراً، وتصمت صباحا والحيوانات ترغم وتزبد بثغاء غريب لم يسبق لأحدٍ أن سمعه سوى من ناقةٍ تبتغي السفاد.

نباتات فريدة وأشجارها السباقة في الانخراط المبهم في مناحة سرمدة الجماعية. تفتقت بتلات الورد عن قطرات رحيق دامعة. تشققت

سيقان الأشجار مخرجة صموغ مالحة.

فريدة التي لم تأكل من الرز بحليب، تحاول مسح الدموع هادئة تسيل على خديها من الخوف والذنب تائهة من هول الصدمة. لا تعرف ماذا تفعل تهرب أم تبقى. تمالكت نفسها وصارت تحاول إيجاد حلا لهذه المصيبة، فلشت أعشابها وهدأت من اضطرابها وشرعت بتجربة منقوع القريص مع حليب الأسى.

صارت حالةُ حزن بلا قرار تخرج من قلب الأرض. من التراب نفسه. تسللت العدوى إلى طائري العاشق والمعشوق المعششين فوق سطح حوش فريدة، وصارا يغردان بصوت يقطّع نياط القلب، فيهيج من يسمعهما بنوبات بكاء جديدة.

أمست سرمدة تنتحب، تنوح وتتلوى. بلدة وحيدة جوفاء متروكة لمصيرها، تواجه المرارة والاصفرار والشحوب. بلدة ملعونة بلا معرفة للسبب. هذا الابتلاء بلا جرم واضح، متروكة بلا أمل أو حتى بارقة منه لتخلصها من محنتها. لم يكن بها شيء خاص، سوى أنها بلدة في الشرق تحاول أن تنجز حياتها بأقل قدر من التغيير والألم والتعب، بلا طموح ولا أفق، فقط تحيى بأقل عدد من المفردات والآمال والحكايات والرغبات. تعيد ما تعلمته بفطرتها دون أن تتدخل بشؤون القدر. دون أن تفهم كيف لـ لله أن يحل عليها هذا النوع من البلاء الأكبر من قدرتها أو فهمها؟

في اليوم الثاني من النحيب والعويل والاستفراغ، وصل الخبر إلى العاصمة عن طريق تجار حبوب، جاؤوا من درعا ليشتروا الحُمّص والعدس.

هالهم المأتم الجماعي، وفجعوا من هول شحوب البشر والبكاء المفرط الممزوج بالشهقات والنهنهة. لم يستطيعوا أن يكلموا أحد. أصلا لم يكن أحد في سرمدة يقدر على الكلام سوى بثينة وفريدة المعتكفتين في غرفتيهما.

فر التجار الثلاثة بعيدا. رووا أشياء لا تصدق. وتأكدت السلطات من أن أمرا جللا يحدث في البلدة، فبعثت بقوات حاصرتها ومنعت الدخول أو الخروج، ريثما تصل اللجنة الطبية لسبر الحقيقة. تناقل الجبل أخبار سرمدة بهمس وخوف، وشيعوها باللعنات، وانتظروا خبرا يفك لغز الحيرة.

بعد أسبوع، وصلت اللجنة المؤلفة من ثلاثة أطباء وسيارة إسعاف، تتعطل كل بضعة كيلو مترات، وممرضين ارتدوا جميعا أقنعة واقية من الغازات تجعل من مرتديها أقرب إلى الجندب النطاط أو ذَكَر الجراد الأخضر، وتسبب لهم الاختناق أكثر من الحماية من التلوث المفترض.

دخلوا البلدة بتوجس. جالوا فيها طوال ساعات. كتبوا تقريرهم بسرعة وغادروا. ملخص التقرير مكون من بضعة جمل لا غير:

"هذه أجمل بلدة نزورها في المنطقة الجنوبية، والناس هنا مفعمين بالصحة والعافية كما لم نرَ في مكان أخر. كل ما قيل عن سرمدة محض هراء. قرية - لم يقولوا بلدة في التقرير - وديعة تحيا بسلام. قاطنوها من أكثر الناس بشاشة وصحة وحبورا. ما من داع لأي إجراء"

فالذي حصل إنه في اليوم الثالث من الجائحة، مررت فريدة طوال الليل قطرات من ترياقها على جميع البيوت فنامت سرمدة دفعة واحدة واستيقظت بهدوء. تفقد الناس أنفسهم وجيرانهم واطمئن الجميع بأن أحداً لم يمت. انجلى الوباء، وكأنه لم يحدث، فهبوا بخجل لشطف وتنظيف فوضاهم فوجوههم مشرقة تعلوها مسحة من شحوب.. حين وصول اللجنة، باتت سرمدة مفرطة بنشاطها وحبورها ومزاجها يلفح القادمين من قبل جسر الخشخاش. لم يجد كبير الأطباء من تبرير واضح لوجودهم بعد إنكار الجميع أن هناك مشكلة قد حصلت فأدعى قيامهم في جولة روتينية تفقدية، للتأكد من أن أطفال البلدة قد أخذوا لقاحات شلل الأطفال!.

منظر اللجنة، يثير الضحك، ولمّا انتبهوا إلى الأقنعة السخيفة التي تكمموا بها، خلعوها وتناولوا طعام الغداء عند المختار، وغادروا وهم ممسوسين بالهدوء والسكينة والفرح الغامض المشع من وجوه الناس وكرمهم وحفاوتهم.

بعد عدة أسابيع، زارت بثينة عرافة كناكر.. هالها ما حدث للعرافة فقد استحالت إلى جلد على عظم تذرف دموعا متواصلة على شكل حبيبات زجاجية تلملمها وتضعها في أكياس بلاستكية، وتصرها بجانب بعضها البعض و تستفرغ كل ما تأكله.

لما رأت بثينة، انتابتها هستيريا من الذعر، لكنها صمدت قليلا لتستبين ماذا حصل. أعطتها العرافة صندوقا في داخله المخطوطات السبع لكتاب الحظرد، وطلبت إليها أن تحتفظ به في مكان آمن، وأن تجد أحداً من سلالة "داهية بنت لاهية الأمازيغية" فتعطيها إياه، وإن لم يظهر أحد فلتحرقه في ليلة جمعة يكون القمر كامل الاستدارة ثم زجرتها بقوة: **إياك والتعرض لتلك الإبليسة فريدة. انظري ماذا فعلت بي؟ والآن اخرجي ولا تعودي أبدا..**

وجلست تنتظر نهايتها المفجعة التي لم تتأخر كثيرا، لتستفيق قريتها كناكر في بداية كانون الأول من ذلك العام، ليشاهد أهلها العرافة الأمهر في حوران كلها، وقد قضمت أطرافها، ونزعت عيناها، وفغر صدرها، وأخرج منه قلبها فحرقوا بيتها بما فيه خوفا وتطهيرا من الرعب الذي أصابهم.

بينما أخذت الدموع الكريستالية المصرورة بأكياس النايلون تفرقع مصدرة أصواتاً أقرب إلى صراخ مذعور وهي تتفجر بالنار التي التهمت كل شيء.

بثينة لم تفهم شيئا فسنوات عمرها الواحدة والعشرون أقل من

احتمال كل هذا. كتبت على دفتر صغير اسم عرافة الأمازيغ كي لا تنساه، ووارت الصندوق دون أن تتجرأ على فتحه في كوارة القمح. استحمت بماء بارد، ودخلت خلوة أمها. ارتمت بين أحضانها، واستجارت بها؛ غير إن الأم غائبة في غياهب معانٍ أخرى لم تحرك ساكنا. فقد انتقلت إلى مدار الهمس والسلوى برفقة أمواتها تصنع لهم كنزات من الصوف لتخفف عليهم من برد الموت الجاف.

بثينة خلصت أمها من "سنانير" الحياكة ولفت ذراعيها حولها وغمرت رأسها في صدرها، وحاولت البكاء دون جدوى.

* * *

رياض الفايز استوقفني. وأنا ألتقط بعض الصور للخرائب بيت فريدة، يعمل سائقا على تكسي" ماتسوبيشي لانسر" موديل العام القادم 2011. شعره الشائب والتجاعيد العميقة حول عينيه لم تخفيا وسامته.

قال لي: **أطلع محتاجك.**

كنت أريد الاعتذار فعلا لكنه فتح باب السيارة. وأصر قائلا. أريد أن أصارحك بشيء عن فريدة. ركبت بجانبه. حكى رياض عن الحياة في سورية وأنها لا تطاق. وثرثر بلا توقف بأحديث سائقي سيارات الأجرة جعلتني أندم على اللحظة التي قبلت بها بالصعود معه. ولكنه فجأة توقف على جانب الطريق. وقال لي أنا كنت أول ولد في سرمدة يزور فريدة. وبدأ يسرد لي شيئا يختلط به الجسد بالحب الكذب بالصدق. لم يكن بالإمكان إيقاف رياض إلا بفتح الهاتف المغلق لتتقاطر علي الرسائل النصية المحتشدة بحثت بسرعة رامقا الهاتف ومشدودا إلى رياض. وإذ برسالة واحدة من عزَّة توفيق. تقول لي: إنها نادمة على لقاءها بي ولأنها تحاول الاتصال معي دون جدوى.

أعدت أقفال الهاتف مرة أخرى. بينما رياض يقود سيارته وهو

يتحدث على هاتفه مع مجموعة من أصدقائه ويطلبهم فورا أن يأتوا إلى بيته.

اليوم لازم تعرف كل شيء عن فريدة. قالها بحزم وهو يشعل سيجارة من الأخرى ويرمي بالعقب. ويمضي مسرعا بي للقاء بعض من أصدقاء مراهقته لعيدوا معا سرد الوقائع الغريبة لحياة هذه المرأة الغامضة.

بينما كانت فريدة تنتهي من ترتيب عزلتها، أخذ جسدها ينضج بين رفيف التوق للمجهول، وعنفوان الرغبات الخطيرة، وبدأت هباته تسبغ وجنتيها بالاحمرار البهي.

أضحت مدموغة بالحسد المضمر من معظم نساء سرمدة والناس يستشعرون خطرا فذا قادما من كومة الخضرة ومن امرأة النحس، فبعد حفلة الرز بحليب، وكل ما رافق حضورها إلى سرمدة، بدأ يثير التساؤلات المكظومة. عرفوا أن هذه المرأة يجب تجنبها.

- **احذروا خضراء الدمن**، عاد الشيخ فاروق يردد طوال الوقت.

بينما الرجال يشاركون نسائهم - علنا - رأيهنّ الجارح بها، إلا أنّ خدماتهم المشبوهة، تعرض بهمس وبعيد عن الأعين.

تكالبت الأحاديث حولها. نهشتها الألسن الحادة، إلا أنها ظلت محصنة منها بابتسامة فذة، ولطف فريد، وقوة حضور صاعق.

ويقي لجسدها النضر رأي أخر.. كل ليلة يجعلها تتقلب بنيران محمومة، فحياتها لم يتخللها سوى قبلات بريئة سريعة لصبي هز كيانها وهي في الرابعة عشر، وليلةِ دخلةِ تستطيع القول أنها قضمت منها قطعة صغيرة من حلاوة الجسد الذي لم يكتمل. ثم أمل بحياة مزهرة مع سلمان الخطار، طيرته رصاصة طائشة.

فأمسى الأمر بمثابة إلهام جاءها على هيئة حلم غريب استحوذ عليها تماما.

لم تكن تريد أن تكون امرأة رخيصة يجتاحها مراهق متخم بالهرمونات، ولكنها وجدت أن شيئاً غامضاً يدفعها باتجاهه، فهؤلاء المعفرون ببقايا الطفولة والمستعدين للانتقال لطور آخر يقعون في الهوة السحيقة من الفوضى والشوق. لا أحد يريد فهمها والجميع يكيل لهم الشتائم والوصايا.

فقررت أن تكون جسرا للعبور فوق ضفتي الجسد. تمنحهم عبورا حالما فيه الكثير من الرضى.

سارت أيامها بجلاء نحو المسالك الوعرة لمفازات الغُلمة وأنوارها القصديرية، وصارت تعرف بغريزةٍ بِكر، درب سلالة المنبوذين من المراهقين ومن لم يعرفوا جسد امرأةٍ من قبل، وزوّدتها الحلوى المختثرة بالغموض، والمتبلة بحليب الأسى، فأعدت قطع كثيرة من الحلوى الفاخرة بعد أن تأكدت إن يوم عيد الصليب مجرد يوم عابر ولا دخل لطعامها فيه.

رسمت أولى خيوطها باتجاه أول ضيوفها. فهو لا يتوقف عن المرور أمام الحوش بسبب أو بدونه. نادته ليساعدها بتوزيع الماء على أشجار الحاكورة. بحلقت به. لاحظت زغب الرجولة وقد احتل شفته العليا، ورأت أنّ عينيه تتلبدان بأكداس من صليل الشهوة، كلما مرت بقربه.

أعطته قطعة من حلوى مصنوعة من النعناع والعجين والسمسم.

وشكرته على خدماته بصوت أقرب للهمس، وبنظرة أشعلت وجوده، فصار لا يبرح سطح البيت المقابل لحوشها.. فعرفت كيف تلتقط إشارات ارتباكه.

ومنحته خيالات بحجم سنوات عمره الخمس عشرة. رياض الفايز هو الغلام الأول. تجربتها الأولى التي ستمتلك بعدها كل اليقين المناسب لتسيّر حضورها غير المرئي، وغير المصرح به ولكن سرمدة بأكملها

ستعترف به دون أن تسميه، أو أن تحاول منعه.

فلم تبخل عليه بالابتلال الليلي، ومنامات الاستحلام. بات يستمني كلما وافته الخلوة، حتى استحال شاحبا مسقودا كعِرْق نبتة "البُصْوي". تتركه ينظر من نافذة الحوش المحاط بأصص الزهور وكثافة الشجر. تقرفص فوق وعاء الغسيل. تتعمد بلّ ثوبها فاتحة أزراره. تُزر أحدها كل برهة، ثم تجعله ينفلت، مشمّرة عن بياض فخذين أملسين بهما حمرة خفيفة تترك أثرها على أذنيه وحُبيّبات وجهه، وتدك حصونه الواهية.

تغلق النافذة بحركة تدمِر شوقه، وتتركه رائحا غاديا على سطح بيته الترابي، مشكلا أحافير من دروب حيرته، هائما في فوضى المهابة والخوف، مجمعا كل طاقته، حازما أمره بعد أسابيع من الآلام المبرحة لتكون كافية للعاشق الصغير لأن يطرق بابها ذات ليلة.

بدا مثيرا للشفقة، بعد انحشاره ببنطال أخيه الصغير الأزرق، وقميص ابن خالته الذي جلبه من سوق الثياب المستعملة. فاحت منه رائحة نصف زجاجة عطر " ناز" و"البريانطين" جعل شعره لامعاً بتسريحة مضحكة، واستحالت بثور وجهه أكثر شناعة بمحاولاته البائسة لإخفائها عصرا ودهنا بمرهم "إديال".

قامة وارفة تطاولت أمامه، فصار حيّزه أثيريا. وقف وقد تبخر كل ما ردده قبل قدومه، فلم يجد إلا:

– **في شربة مي؟**

وبذل جهدا خارقا ليضيف: **باردة!**

ردت بوله حارق: **ما تكرم عينك.**

بدا صوتها ساحرا يستقطب كرياته الحمر، ويفرغه من نفسه. استدارت متمايلة ومخلّفة هروبا عبقريا لبطل السطح.

غير أنه لا فكاك له من أحابيل فتنتها. سيتسمر أمام النافذة المفتوحة

الدرفتين في تلك الليلة الخريفية المدهشة، فراحت تفلش شعرها خصلا على جسدها المغموس بضوء الخضرة، وبدأت بدعك ثدييها بزهور" تم السمكة"، وشتلات غضة أخرى من نباتات غامضة الهوية. تذوِّب رؤوس البابونج تحت أبطيها، وتفرك براعم العطيّرة البرية والنعناع المتوجس صعودا وهبوطا بين الثديين العاجيين المتوشحين باخضرار العرائش. سينزل عن السطح كالسائر في نومه، ماشيا إلى قدره عبر دروب عزائه.

الباب نصف مفتوح، وذراعان تنتظران تلقّفه. أصابع بطراوة الخبيزة تتمرغ ببيادر بطنه، وتسرح كقطيع من الماعز في براري جسدهه. أصابع تطلق خيول جموحه. تشد على انتصابه وتغير معالم حياته.

حضنته بقسوة جعلته يتقصف بين يديها. لمحت زر قميصه، ومن غير تفكير، قطعته بأسنانها البيضاء الناصعة. خلعت ملابسه وأرقدتها على ظهره.

وصار فمها يُبَلل قشَّ براءته، ويحصده من جذوره فيتراقص نحل جسده.فيتهيج حد الانفجار فتجلس فوق انتصابه بعد لحس ملوحة جسمه بلسانها وما أن يولج فيها حتى يربد ويزبد يصب كلّ مائه دافقا بلا قرار يومضُ وينطفئ، ثم يفوع كخلية زنابير تغرس معاقيصها في دمه، ليهمد بعدها وكأنه سيتلاشى، فيسحب عضوه المتراخي من لدنها.

تمتد يدها تجره من غيبوبة اللهفة. تحيله رجلا في دقائق، ووحيدا بعد نصف ساعة، دافعة به خارج الحوش، يبكي وحدته. تالفا بين عرائش الهمود و لفحِّ الهيجان، يتلمس ما حدث..

يود الرجوع إلى أحضانها واسترداد براءته التي انقصفت تحت هول فتنتها. يود استعادة الزر الذي شلعته من قميصه، لكنها أوصدت الباب والجسد أمامه؛ فقانونها أخذ بعد خروجه شكلا نهائيا.. أقرَّ به كل مراهقي سرمدة، ممن عبروا إلى رجولتهم عبر حوشها وتضاريس جسدها الفائر

بالروائح الفذة.. هي مرة واحدة ولا تعاد أبدا...

تتابعوا على حوشها. وسمتهم برائحتها انتزعت زرا من قميص كل واحد منهم؛ و تقبل أعطياتهم بهدوء، وتسخرهم في أعمال لا تنتهي.. سوروا بيتها. دحلوا السطح. أوصلوا الماء. بنوا خم الدجاج. دهنوا السياج، ولونوا حديد النوافذ. يثابرون على تقديم الخدمات لها بسرية في البداية، ثم بعلانية فيها التنافس والافتخار.

حتى أضحت جزءاً طبيعيا من روح المكان. بيتها مثله مثل المجلس والكنيسة والجامع.. واحد ممّا تتم فيه العبادات والصلوات لرب يعرف - أكثر من غيره - أن كل شيء مقدر سلفا.

قُبِلت كما هي. تساهلت سرمدة مع حضورها الآسر، فتحول المراهقون من مزعجين دائمين، إلى قبيلة من الشعراء مغموسين باللطف، مهفهفين بسحر ما، متأدبين ولطفاء. أصبح لها سطوة غرائبية على جموع الفتيان المحتشدين بالهرمونات؛ تعرف كيف تخاطبهم، وتوجههم، وتستمع إلى أرواحهم، وكيف تغير مناخاتها.

وهم أقروا بالقانون الصارم: لا تمنح جسدها لأحد مرتين. تشلع زرا من قميصه وتقوده للخارج. تجلس بعد مغادرته، تثبت الزر على شرشف أبيض واسع. تبتكر له اسما أو لقبا خاصا تدرزه تطرزه، تخيطه تحت الزر، وتذهب لتستحم دالقة ماء منقوعا بالورود الشهية على جسد منذور للعطاء لا للارتواء.

* * *

لكنها ظلت تنتظر "شفيع"، الوحيد الذي تتلهف للقائه؛ تراه يلوب حول حوشها يراقب حركاتها وسكناتها، يحصي عشاقها، و لا يستطيع الدخول أبدا.

وجدته مرة متلبسا في الحاكورة بعد منتصف الليل. حين همست له:

شفيع.. فوت لا تخاف فوت، ولى هاربا.

صارت تضبط إيقاع حياتها على توقيته؛ يأتي صباحا ينتظرها لتخرج فتفتح الباب. تنظر إليه حتى تشبع نظرها منه. تشعر أن يومها لا يبدأ إلا حين تراه، ثم يغادر لينضم إلى أعمال لا تنتهي يبتكرها نواف دائما ليجعل نفسه وأخوته مشغولين ولا وقت لهم، يكافحون نسيان الدم بالعمل الشاق.

فما إن ينتهوا من عزق الحجارة حتى يبدؤوا بحرث الأرض وبذرها أو حفر الترع وزرع الشجر وبناء الجدران وتحطيب الشجر منهمكون في إنشغال دائم يفرغون مشاعر الذنب والعار بأعمال لا تنتهي. أما هي فتبدأ باستقبال الناس وتحضير الوصفات المطلوبة، للمغص والقولون، لضغط الدم، لزيادة الخصوبة، تضييق المهبل، تبييض الأسنان أثناء النهار، يتسابق المراهقون لتسدية الخدمات، ومع العصر تكون قد اختارت من سيكون التالي. أحيانا يمر شهر أو أكثر على ذلك. حسب مزاجها والظروف المواتية.

- **شفيع منصور، غير كل الناس**

ظلت تهمس لنفسها. شفيع يمتلك تلك العينين الحزينين المعجونتين ببريق غامض. حمل وزرا أثقل من كتفيه، طعن أخته على الملأ، ولم يشف أبدا من داء الذنب، والشوق. خاضع بالمطلق لسلطة أخيه الأكبر نوّاف، مجبول بأحاسيس متناقضة، بين اللجوء إلى الله لمحو الذنب بعدما مسح لطخات العار عن جسد العائلة، أو الذهاب إلى هذه السيدة المشجّرة المفعمة بالأنوثة، ليرمي نفسه في كثيبها حتى يغرق، أو يزيل رائحة زنخة الدم العالقة في خياشيمه.

منذ رآها قادمة إليهم لتدعوهم إلى حفلة الرز بحليب، وهو لا ينام. حاول بكل ما أوتي من قوة إبعادها عن مخيلته دون جدوى، وصار يأتي كل يوم ليقف أمام الحوش حتى تستيقظ فيمعن فيها النظر، فتهجع

روحه القلقة. صحيح أن أعراض جائحة البكاء لم تصيبهم سوى بالمغص ولكنهم أكلوا من حلواها بعد أن أوصل لهم الأطفال بعضا منها، ومن يومها وشفيع لا ينام.ليس من طعم الحلوة على الأرجح بل من ذلك الشعور القارس الذي ينخز قلبه كلما تذكر عينيها ورخامة صوتها.

يعود مساء يتمشى ذاهبا عائداً، لتلوح له عيناها أو تشوح له بيدها، وتفر منها ابتسامة تعذب جسده، وتخفف من توق روحه.

نواف رأى العلامات على وجه أخيه الأصغر. شعر برعب قديم يعود إليه: رأى الشحوب والتلبك، السهد والسرحان اللذين كانا على وجه هيلا. لو أنه فهم تلك الإشارات في وقتها لحبسها أو أخرج عشيقها من سرمدة ووفر على العائلة مقطوعية الدم.

انتابه الرعب على شقيقه الأصغر. بدا له - كلما حدق بوجهه العذب القسمات والأقرب للأنوثة - وكأنه يرى وجه هيلا.

في تلك الليلة، في بدايات عام 1970 و البرد يقص المسمار، وموجة من صقيع لئيم تجتاح سرمدة، خرج من المضافة، ملفوفاًبفروته السميكة، فسمع صوت بكاء شقيقه في الغرفة الجوانية. فعرف إنها علامات الحب.

دخل عليه مزبدا شاتما ممسكا إياه من خوانيقه رافعا قامة شفيع الضئيلة وكأنه يحمل مخدة ريش، حدّق في عينيه وسأله بغضب: **مين هيي؟ عما قلك... قللي مين هيي؟**

انهار شفيع مختنقا ومحاولا أن تلمس قدميه الأرض: **فريدة.. يا خيي فريدة.**

يتبلكم نواف من هول الصدمة، ويرميه في الفراش ليتابع نشيجه المحموم. خرج نواف إلى الصقيع ينفخ أنفاسا تذيب الجليد. لفّ سيجارة. سحب نفسا حارقا، أتبعه بآخر ثم آخر.. مجَّ مجّاً متتاليا حتى تجمّر الزرزور وحرق أصبعه.

دخل كالثور الهائج. ارتدى معطفه السميك وتناول جفته.. دفر الباب على شفيع المتهالك كمخدة منعوثة الريش:

قوم ولاه كلب، قوم إلبس على حالك.

انصاع شفيع كالمنوَّم. جره أخوه من يده، ثم جعله يهرول خلفه حتى وصل إلى حوشها

قرع الباب بأخمص الجفت، تبعه بخبطات متتالية من يده الثقيلة.

سُمع صوت من الداخل يرتجف من البرد والخوف: **مين؟**

- **افتحي يا فريدة.. افتحي.**

- **مين أنت؟** سألت.

- **افتحي أحسن ما أكسر الباب.**

- **طول بالك لحظة،** وضعت مئزراً ثقيلا على جسدها، حملت معها سراج الكاز وفتحت الباب.

كان شفيع يتقصف ببقايا خذلانه، ويتكتك من البرد، ونواف يخرج بخارا من منخريه. بدا وجهه على ضوء السراج الشاحب أقرب لرأس ثور تخرج من فتحتي مناخيره زمجرةُ خشخشةٍ مسموعة.

لم يكن يريد تطويل الحديث، دفش أخاه إليها قائلا: **خذيه.. خذيه يا قحبة!**

وخرج مسرعا ليبتلعه الظلام والصقيع..

داخل دار آل منصور، جلس نايف وطلال وشاهر تلفهم الحيرة والقلق. لا يدرون ماذا يفعلون يتساءلون عن سر اختفاء شقيقهما في هذا البرد القارس.

عاد نوّاف وحيدا، وضع طبوعين من الجلّي في المدفأة. أشعل النار، وجلس يحدق في الفراغ. لم يتجرأ أحد من الإخوة الثلاثة على سؤاله، أو الاقتراب من صمته المفخخ بألغام ستنفجر لمجرد الهمس.

ظلوا ساكتين جميعهم، حتى أصبحت الطبابيع وقرمات الحطب جمراً، أخرج الجمرات الحارة بملقط الفحم، وضع فوقها إبريق الشاي المحروق، ولقم المدفأة من جديد بثلاثة طبابيع وقرمية خشب مقطوعة من بلوط الحرش.

بدا صوته وكأنه قادم من فضاء آخر، هادئا مخذولا.

- **بس يجي "سعد السعود" بداية نهاية الشتاء لازم، نرجع على الدار القديمة بكفي.. بعتقد أنو بكفي.**

نايف وطلال، هزا رأسيهما علامة موافقة بلا مناقشة، أما شاهر فظل القلق الفتاك يقضم فضوله، فكان سؤاله مباغتا، مع فرقعة احتراق الحطب في صوبية الجلي:

- **وينو شفيع. يا نواف؟**

لفّ سيجارته، ومجها بعمق، ثم أجاب بهدوء: **عند فريدة.**

صدم نايف وأخرست المفاجأة كلماته واستشاط طلال غضبا: **أعوذ بالله من الشيطان. ليش ما جبتو، ليش ما قوّستو هنيك. الحقير السافل الكلب.**

رد على أخويه المحتقنين بالغيض: **ما بكفيني دم هيلا يا حضرة المشايخ. كمان بدك بعد نقتلوا.... أنا وصّلته لعندها بأيدي!** خاتما جملته بتحدٍ ساخر.

خرج طلال ونايف من المضافة، جهزا خرجيهما،عانقا شاهرا بصمت، مع تباشير الفجر. رحلا من سرمدة إلى "خلوات البياضة" في جبل لبنان. ولم يسمع عنهما خبر..

فبعد ذبح هيلا، وجدوا أنفسهم محكومين لعادة البقاء غير مرئيين، فأمسوا ظلا لنواف، وحين يمشون مجتمعين، تصبح خطواتهم بلا صوت وتتماهى مع إيقاع دعسته. انغمس طلال ونايف بنسخ كتب الحكمة

واستلاما دينهما، وصارا شيخين بقلنسوة بيضاء، وشاربين كثين وشعر محلوق على الصفر.

ولكنهما ظلا مخلصين لشقيقهم الأكبر، فهو الذي يقرر وهو من يحدد لهم أنى تتجه حياتهم.. نوع من التسليم الغريب يمكن أن يبقى طوال الزمن لولا فعلة نوّاف. لم يفهما أبدا؛ كيف لعائلة دفعت ضريبة الشرف بهذا الحجم أن توافق على تهور الشقيق الأكبر وموافقته على توصيل أخيه الصغير بيديه لأحضان رذيلة دفعوا ثمنها دما فأضحى الموقف أكبر من قدرة طلال ونايف على فهمه. وموافقتهم عليه تعني أن خمس سنين ونيف من العزلة مجرد كذبة كبيرة. كذلك فإن معارضتهم الجارحة له تعني إهانة لأخيهم المقدس بالنسبة إليهم، لهذا لم يكن لهما إلا الرحيل إلى المكان الوحيد المتبقي لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

شفيع بقي في بيت فريدة يومين متتاليين، كان على وشك أن يلفظ أنفاسه من البؤس والجزع والبرد حين غادر أخوه وتركه برفقة هذه السيدة التي تفيض حبا.

أدخلته إلى دفء فراشها، وحضنته حتى الصباح. تكور بين يديها، وغطَّ في نوم عميق. لم تشأ أن توقظه.. أبقته في الفراش، وبث الدفء في الحوش.

جاءته بفطوره، وأبقته في الفراش. أطعمته – غصبا عنه – بيضة مسلوقة مغموسة بالسمن البلدي، وكوبا من الحليب. لم تقطر له حليب الأسى، فهي تريده كما هو بلا أي تأثير لأي شيء عليه، تريد جس قلبه وروحه بلا مبالغة. وتعرف ما الذي شدّها إليه.

أكل. ابتسم، ثم غفا. ظل نائما طوال النهار. أنجزت أعمالها واستقبلت زبائنها ممن يريدون أعشابها. وفت طلباتهم، وعادت إليه. رأت وجهه على ضوء "اللوكس" المشع وقد انجلت عنه غمامة الأرق.

فوقفت محتارة مرتبكة؛ لأول مرة، يتنابها شعور عاصف بالخوف، فهذا الغلام سيبقى هنا وهي لم تسمح سابقا لأي من عشاقها أن يبيت في بيتها.

ودَّت إحالة هذه العاطفة الداهمة إلى رغبة فحسب. أحست أنها تشتهيه بكلّ ما في جسدها. بقيت بثوب النوم، واندست إلى جانبه. اقترب ليقبلها، فأشاحت شفتيها.. لم تكن تريد لأي نوع من أنواع الحب أن يحصل هذه الليلة. فهي تخشى من ألم القلب حين يحب فتغدو القبلة هي جسر العبور لأرض الهشاشة والوجع المتلازم مع هذا الفعل الموجع الصادم الذي يسمى الحب، لم تكن تريد أن تغرم به أو تحبه..فهذا قرار لا رجعة عنه.

قبلها على رقبتها الزرافية، همس لها بأنفاسه، فاستسلمت له. وهي عادة كانت المرشدة للمراهقين المبتلين بأجسادهم، والأغرار بمعرفتهم لمفاتيح الرغبات المبهمة؛ يخلطون الأمومة بالرغبة. والشوق للأنثى بالحب. أما هو فكان كاملا بالنسبة لها. رائحته فريدة من نوعها، جسده غض وقوي.. منحوت باستقامة بلا مبالغة، شعرت بذلك وهي تلامس عضلاته المشدودة. لذلك تركته يقبل رقبتها، شحمة أذنيها، يخلع عنها ثوب نومها، يعريها، ويحتفل بكل مسامات جسدها بريقه الحار. رضع نهديها بلا نهم، إنما بهدوء حرك رغبتها. أمسك بثدييها معا وأدخل الحلمتين في فمه. رضعهما بشفتيه محاولا ابتلاع كثيبيهما، ماصا إياهما مستخدما أسنانه ليعضهما عضا، ويتوقف قبل الألم بقليل مبعدا وجهه، نافخا على اشتعالهما، مخثرا لعابه في مساماتهما.

يتابع فيلعق بطنها، يلامس لسانه زغبا غير مرئي من شعيرات مجهرية، فتنتفض من جذورها، وتنقل سيالات مبهمة إلى عقلها، فيصدر أوامره بتسيير دفقات من الرعشات إلى الجسد كله.. يهبط بين فخذيها،

يقبل عانتها يشمّها، يدعك وجهه بها، ويسند ذقنه إلى حافة عظمة الفرج..

. قاده حدسه وشوقه. فك ألغاز تمائمها، وعاد ووضع وجهه بين فخذيها، لاعقا ماءها، مدخلا لسانه في جوفها، ملاعبا بظرها، يحك بأنفه تلك النقطة السرية التي لم يكتشفها أحد من صغارها، فماءت وفاحت وتلوت ووصلت ذروتها، لأول مرة في حياتها.

فنزل إلى أصابع قدميها، مصمصها واحداً واحدا لاحسا كعبها و ربلتيها، مسترسلا في اكتشاف مقامات الجسد. خباياه أسراره. غير متعجل لإنهاء لحظته؛ كان يريد المرور على كل مسام فينغمس فيه، أضحت خفيفة بين يديه. يتشكل الجسد بأي وضعية يرتئيها. و انتصابه حجريا؛ عندما مدت يدها كي تمسكه، لم يكن أكبر من اللازم ولا أصغر مما يجب.

تهوى وتقصف وهي تجثو أمامه تتحس عروقه، ترفعه ممررة لسانها على بيضتيه ثم تمصهما، وتخرجهما وتعيدهما، تدفعه ليستلقي على ظهره وتحوطه كقبة متقوسة تحدق به بعينين تشعّان صليلا من نحاس، ليعود لسانها هابطا إلى صدره منزلقا إلى بطنه ليصل إلي انتصابه فتلحس طمرته المنتفخة، وأدخلته في فمها، وإخراجها ببطء يودع ارتعاشات مجلجلة في عروقه. ثم تخرجه من فمها ممسكة به كسارية مرفرفة تطبع على عروقه النافرة قبلات خفيفة، وتعاود بلعه. مصه حتى تلامس شفتيها شعر عانته. أرادت إعطاءه ما لم تكن تستطيع إعطائه لأحد.

أولج فيها، هابطا فوقها وهو يحدّق في عينيها الغائمتين لذةً وخوفا، وقبل أن تنبس بكلمة، أدارها وأجلسها على أربع، وضاجعها من الخلف. لم تكن تدري كم مرة وصلت إلى الذروة، ولكن حين أخرجه منها شعرت أن روحها تنسلّ، وبحركة مباغتة أدخله في ثقب مؤخرتها، غير عابئ برجائها: دخيلك.. خزقتني **دخيلك لا لا لا**.. لم يكن يستمع لأنه

صار يصهل وهو يمطتيها، يدفعه ويخرجه بانزلاق يحرق جوفها، ثم يبدل بين فرجها ومؤخرتها وهو يردد: **فريدة.. يا منيوكة يا شرموطة يا قحبة.. يا فريدة..**

تلقفت تلك الكلمات بحمى شبقية جعلتها تتألق باللذة، وشعرت بأن جسدها يتحرر من قداسة المراهقين وهم يلهجون فوقه بالحب والأمومة. حررتها الكلمات النابية، وزادت من هياجها. وتشتهي أن تسمع المزيد والمزيد. تريد لجسدها أن ينفجر بكل طاقته. أحست بسذاجة كلمات الحب الجوفاء المهموس بأفواه مراهقيها، وبأن أنوثتها تمسح بما علق بها و يجلو عنها مشيمة الحياء، وغبار الحب السقيم، فيمارس معها بأقصى ما لديه من قاموس البذاءة، بلا روتوش وبلا عواطف ساذجة. فالذهاب بالجسد إلى تلك النقطة المضيئة، يفتح كل ذرة فيه فتنضح عرقا وتتنفس لذة. كانت الارتعاشات لا تتوقف. وصلت قمما لم تعهدها. انفجرت صورا في عقلها العالق بأقاصٍ شاهقة. شعرت بروحها تذوب، وبجسدها يتلاشى بالخفة. يمتزج بكراتٍ من ضوء ويرشق بزبد بحري يفور بالدفء.

حتى جاءه القذف فرشق صلية من منيه على ظهرها، وأمسك ضاغطا عليه، كازا على شفته حد الإدماء. فتسارع لترجيع جسدها إلى مهده مستلقياً، وتشهل رأسها لتلقتم عضوه المحتقن شفتيها، فينفجر في فمها، ويغرق شفيع في موجات ضحك هستيري مصحوبة بقاموس من الكلمات البذيئة بينما هي تبلع حليبه وتمصه رويدا رويدا إلى أن اضمحل. بينما عاشقها يردد ملتبسا تلك العبارة التي عقصت قلبها وأعادتها إلى الواقع، فبدل أن يذكر اسمها راح يردد اسم أخته: **يا هيلا يا هيلا... يا شرموطة يا هيلا!؟**.

في صباح اليوم التالي عاد إلى إخوته، منهكا وممتلئاً. وجهه يشرق بضياء مكتنه بالغموض، وعيناه تمومضان ببريق خلاّب.

انطفأ كل ذلك، حين عرف أن أخويه غادرا، ونواف يرفض الحديث معه.

صفعه شاهر على وجهه ملحقا الصفعة ببصاق على وجهه.. مسحها بهدوء ودخل للاستحمام.

خرج ليجد نواف وشاهر، يلملمان ما تيسر، ويريدان الانتقال والعودة إلى الدار القديمة.

عمل معهما بصمت، وهو يفور بالطاقة والنشاط. سار إلى الدار القديمة. عسّف المكان ونظفه. شطفه، ورتبه. غرق في العمل كمجنون، وكلما ذاكرته استحضرت له مقطعا مما حصل في حوش فريدة تزداد طاقته ابلاجا من جسده وتشع عيناه ببريق لا يخفى على أحد. فوجئ أخواه بأن الدار القديمة البالية المتهالكة وقد عادت لها الحياة، وأنهم يمكن لهم الانتقال إليها مساء والأنكى أن أصغرهم، ترتسم على وجهه ابتسامة مجبولة بالطفولة، جعلتهما يبتسمان، قبل أن ينتبها إلى نفسيهما ويحملقا في الأرض ماحيين أثرها، مرتديين قناعا من الزعل الهش.

ظلّ يتوق للعودة لفريدة، لكنه مرصود بنظرات أخوين لا يكفان عن تحميله مزيدا من الذنب لم يعد يقوى على حمله.

بعد أسبوع من عودة من تبقى من الإخوة إلى الدار، دعوا وجهاء سرمدة إلى "كرمة" حفلة تؤذن بأنهم عادوا للحياة، ذبحوا سبعة ذبائح، وأخرجوا واحداً وعشرين منسفا، ووزعوا لحمَ سبعة ذبائح أخرى على الفقراء والمحتاجين. أثنى الجميع على قرارهم الصائب، وكرمهم الموصوف.

شفيع، كان يلمحها بين ظلال شجيراتها، فتسارع للاختباء؛ صارت تتجنبه.. أبرمت حكمها عليه: مرة واحدة ولا تعاد أبدا أسوة بغيره وبقرارة نفسها تتعذب بهجرانه.

وخافت أن يودي بها الحب إلى مسالك لا عودة منها، فيقضم

حرية روحها، وانفتاح جسدها. وحين لفظ اسم هيلا، أيقظها إلى الواقع وأيقنت بحزن إنه لا يمكن أن تحب مراهقا مدمرا ومشروخا ومحكوم عليه من نفسه قبل الله والمجتمع بالعقاب السرمدي لأنه قتل شقيقة بريئة بحجة واهية تسمى الشرف. رفضت كل المحاولات لرؤيته، وأغلقت أمامه كل الفرص المواتية، وجمرت ذاكرتها وحولتها إلى رماد، وكأن شيئاً لم يحصل بينهما.

أسابيع مرت على هذه الحال. حزم أمره، لف هديته بكيس، وطرق الباب.

عرفته.. لم تفتح الباب. كان يعلم إنها لن تفتح، ولكن أراد أن يخمد شكوكه، كي يستطيع أن ينفذ ما عزم عليه. طرق ثانية بهدوء، وثالثة، ورابعة.

وأخيرا نادى عليها: **وضعت لك شيئاً أمام الباب، بس بدي قلك بخاطرك. ومعش راجع.**

مضى من أمام الحوش، لبدَ بالقرب من شجرة الصبار أمام المدخل، دقائق معدودة فلمحها وهي تفتح الباب، وتدخل الكيس إلى الداخل. تنظر إلى اللاشيء. لم تره، بحلقت في الفراغ وشعرت به قريبا. لوحت بيدها.. وتلك كانت آخر مرة يلمحها فيها في حياته.

صباحا، شد الرحال إلى بيروت، وفيها انتظر الباخرة التي ستقله إلى كولومبيا. لتنقطع أخباره للأبد.

فتحت الكيس، ووجدت جهاز"ترانزستر" أوصى عليه خصيصا لها. راديو بحجم صندوق البندورة بني اللون! سيملأ حياتها حتى يومها الأخير بالغناء والأخبار. منه سمعت أن حركة تصحيحة حصلت في البلد، وأن مستقبلا آخرا ينتظر سورية.. لم تفهم يومها أي شيء، ولكنها صارت ترى غلمانها يموجون ويهذرون بكلمات غريبة، حول الحرية والوحدة

والاشتراكية شعارات حزب البعث الطازجة.

غير أن عادتها التي رسختها، لم تستطع أي حركات بالأرض تغييرها، فهي مثل سرمدة: كل ما يحدث في العالم، يمر مرورا هادئا، حتى يجد له في هذه الأرض البركانية قبولا لبذرته فيحظى بالجذور.

على بعد أربعة منازل من منزلها، ما تبقى من آل منصور يجاهدون ليعيدوا أمجاد العائلة. نواف بدا وكأنه لا يهتم، وأعلن لأخيه شاهر رغبته بأن يزوجه. فرد شاهر بهدوء: **مش هلق يا خيي.**

* * *

بعد سنوات جموحة، مرّ على حوشها ما يقارب العشرات من المراهقين والأغرار. ظهرت عليها عوارض الحمل، شعرت به ينمو بأحشائها، رغم كل الاحتياطات اللازمة التي توختها داهما الحبل معيدها إلى واقع تعرفه جيدا.

كل ما فكرت فيه إنها لن تقتل جنينها، لم تكن لتسامح نفسها إذا فعلت. وأيضا تعرف أن قبول سرمدة طفلا بلا أب أمرا أكبر من طاقة المكان ووعيه، فمن المستحيل التساهل مع ابن حرام في جغرافيا محكومة بقوانين صارمة، فقررت أن تختار زوجا ما يناسب تجليات رسالتها. فحين حدثها أحد مراهقيها، حول رسالة الأمة العربية، وبعثها من جديد، قالت له: أنا أيضا عندي رسالة – قاطعة عليه حديثه السخيف حول بعث الأمة – لتبعثه من حوشها متخما برسالة الجسد الباهر.

المهم، أنها عملت جردة حساب سريعة فلم تجد خيرا من الأستاذ حمود "الأخوث".

في اليوم العاشر من حزيران، عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، تأكد أن الخسارة ماحقة، فسقوط القنيطرة والجولان وابتلاع سيناء والضفة والقدس، هزيمة بهذا الحجم، لم يكن ليتحملها عقل أستاذ الجغرافيا

المصدق لكل الأكاذيب القومية.الليلة السادسة التي لم ينم فيها، يصغي إلى المذياع، ولما سمع البيان الصادر أن القنيطرة قد سقطت، كرع نصف لتر عرق بدون قطرة ماء. حين عاد من اجتماع الفرقة الحزبية، محقونا بالحقد على أعداء القومية العربية، محاولا تحويل الأمة إلى جسد زوجته! خلع ثيابها وباشر العمل، فلا وقت ليضيعه.. قسّمه بقلم أسود فلومستر، وبدأ برسم الخرائط على جسدها!

في البداية ظنت أنها نوبة من جنونه الشبقي الفذ الذي طالما أمتعتها، فهو لا يتوقف عن الابتكار والقياس ورسم خرائط اللذة وقياس ماغما الجسد!

لكنه كان يعيد رسم الوطن العربي أ مقتنعا بأن حل أزمات العالم يكمن في الخرائط، فهي لا تخطئ، وعلى الجميع الالتزام بالحدود والمسافات والبحث عن ثرواته الخاصة ضمن حدوده.

يومها تقمص شخصيتا "سايكس وبيكو" وصار يوزع حصص جسد زوجته ابتهال على الدول الاستعمارية! وحين وصل منطقة الفرج، رسم خارطة فلسطين، وحدق بها صارخا وهو في عري كامل:

– **لقد خدعونا أخوات الشرموطة، أعطونا كل شيء وأخذوا الرحم.**

وحين أمسك بالمشرط وأراد قتل الصهيونية العالمية، ذعرت ابتهال، دخلت الحمام وأقفلت على نفسها وحين ارتمى على فراشه منهكا من الهزيمة والسكر فرت إلى أهلها في المقرن الشمالي ولم تعد....

حمود فقد نصف عقله بعد هزيمة حزيران، وتخلى الحزب عن خدماته... يمضي يومه يصرخ في سرمدة: **سكروا البواب، ما تخلّو شي مفتوح سكروا الأبواب،** لا ينام حتى يمر على كل بيوت البلدة متأكدا من إقفال الأبواب، لا شيء يثير أعصابه أكثر من باب مفتوح منسي دون إغلاق.

الباب المفتوح يعيد إلى ذاكرة حمود - أستاذ الجغرافيا المبدع والبعثي الملتزم - تلك الليلة التي هربت فيه ابتهال، ليس بسبب شبقه الجغرافيّ على الأغلب، بل تنتظر الفرصة الملائمة لتنتقم منه بعد أن أخضعها كرفيق بعثي لتقشف صارم، ويصرف مرتبه تبرّعاتٍ لأشقائه العرب، من الخليج للمحيط! يحفظ المنطلقات النظرية للحزب كما البسملة. مشبع حتى التخمة، بإيمان لا يقبل الانزياح بحتمية الوحدة والحرية والاشتراكية. ويريد من ابتهال أن تكون رفيقة مناضلة ملتزمة بانضباط قاسي لخدمة قضايا الثورة العربية القادمة دون ريب. لكن ما أتى من هزيمة حزيران بمثابة شيء أكبر من طاقة عقله المتخم بالثورات القادمة على احتماله.

بعد أن يمر على كل الأبواب، ويطمئن إلى إحكام إغلاقها يأوي إلى نومه، ليستيقظ باكرا يمارس مهماته المقدسة التي تبعث إليه على شكل رموز من الطبيعة الأم! يحلق ذقنه. يستحم بالماء البارد صيفا شتاء. يلمع حذاءه. يتعطر ويحمل خرائطه وأسراره العظيمة مع فرجاره الكبير ومنقلته و"اسطرلابه" ويذهب إلى تل الريح. يقيس أملاك الرب ويلتقط العلامات، ليصل إلى نبع الملح. يجلس سارحاً في تدفق المياه، مطلقا تكهناته اليومية العجيبة، مستجمعا الدلالات والرموز، قارئاً العلامات الخفية، كاتبا خماسياته الخارقة في كتاب ضخم سماه: "كشف التضليل". يعيد محو ما كتبه قبل أن ينام، خوفا من تسرب أسراره إلى القوى الخفية الشريرة.

يعرف مواعيد الكسوف والخسوف. بارع في قراءة كتاب الرمل، ولا يتوقف عن العمل على حسابات معقدة لمعرفة موعد استيقاظ الله!

ويقول: إن حياتنا حلم إلهي، وكل ما يحصل هو حلم، وإن حلم الله لا يتعدى ثلاث دقائق، كل ثانية فيها ألف ألف عام مما تعدون لمّا

تنجز بعد، إنه نائم؛ سيستيقظ ذات يوم ويعود كل شيء إلى أصله..!

يحمل في يده كتاباً مغلفاً بجريدة "المناضل" البعثية، عدد يوم الثامن من آذار لعام 1963 بعد انتصار البعث على الانفصاليين، ليحكم سورية إلى أبد غير منتهٍ، بدا طوال عقود إنه راسخ غير قابل للهدم ولكن لحكمة الأمكنة وقتها فربما شرارة واحدة في مكان بعيد تحرق كل شيء.

اعتادت سرمدة على وجوده، فهو لا يتدخل بما لا يعنيه إلا إذا كان الأمر يخص الأبواب.

حوّل حاكورة منزله إلى حقل تجارب، يصنع آلات مضحكة وكأنها آلات للزمن. من خشب السحاحير والورق المقوى والحراتيق البائسة. أثث منزله من الداخل بعشرات الخرائط؛ يحدد السمات لما وراء الجغرافية، ويقول: لكل شيء وحدة قياس، لكل شيء خريطة، ابتداء من المجرات وانتهاء بالذرات، وكل ما لا يرسم له خريطة لا يعول عليه.

ومع الزمن اكتشفوا أن لديه ملكات عجيبة؛ صحيح أن لقب "الأخوث" التصق به، ولكن يلقى تعاطفا جمعيا معه، وبقايا احترام لهذا الرجل المجبول بالنبل والجنون.

عرفت فريدة كيف تستدرجه. منذ زمن وهو يمر على حوشها، ليتأكد من إحكام إغلاق الباب. في الليلة التالية التي قررت فيها أن يكون الأستاذ حمود الأخوث هو الرجل الأنسب، كي تستطيع أن تعطي الجنين الذي بدأ يتشكل في رحمها من خلاله، الحياة.

وشدّت الباب بحبل إلى الخلف لتبقيه مفتوحاً، وانتظرت قدومه، ولبست ذلك اليوم ثوبا رقيقاً يسمح لتضاريس جسدها باستدراج عقل الأستاذ المصاب بلوثة طبوغرافية..

بخّرت البيت بقطعة نادرة من بخور العود، وصلتها هدية من أحد مراهقي سرمدة المغترب مع أهله في السعودية، سرق قطعة من البخور الملكي القادم من كمبودية، وجلبها معه فقدمها هدية للمرأة التي أعطت لمراهقته معنى.

حرقت العود البهي مقرونا بدهن العطر من شجيرات الرتنجية، فتحولت رائحة البيت إلى فضاء شاسع متخم بالإغواء، وأضافت أعواد الند، ومزيجاً مبتكراً من صنع يديها، عبقت به روائح ممتزجة بسحر لا يضاهى من التماعات شم الحبق، وهسهسة الياسمين الشقي، وهيجان الجوري الموارب. بدا وكأن الروائح تحمل لغة تستطيع مخاطبة عقل الأستاذ حمود الذي وصل فعلا إلى الحوش كعادته شبه اليومية بعد غروب الشمس. أمسك الباب المربوط، وشده بحنق دون جدوى.
حاول معالجته بالقوة دون جدوى، تقدمت من الداخل من بين سرخس اللحظات المكتوية بالاخضرار؛ ثوب الدنتيلا يشف عن ثديين منتصبين، وشعرها المنسدل بطعجات برّاقة، تهدّلت خصلاته الأخاذة على الكتفين المستويين تحت عنق طويلة والعينان الواسعتان محروستين بحاجبين مقوسين تأخذان الألباب.. تناديه: وتكفل الفم الكرزيّ المصبوغ بحمرة قانية، والأسنان المرصوصة البيضاء، بجعله يتجمد أمام هذا الجيش الزاحف نحوه.

عقله المتصدع بالهزات، يأمره بتسليم قدميه للريح، بينما رغبة خفية، وفضول الجغرافي، يأمرانه بانتظار لاكتشاف هذه القافلة المصحوبة بعاصفة من الروائح، وقبل أن يقرر شيئا، وصله عطرها المجبول بالبخور وماء الزهر، وخلاصات عطرية عديدة، وتوابل متحررة من نفسها، فجعلت ريالة صغيرة دامعة ترتسم بهدوء - لا تكاد تشاهد - على جانب فمه المنفغر.

- شو ما عمّا يتّسَكر معك؟

دمرته بسؤال جارف، وأعقبها تقدم زاحف لفيض جسد ظهرت تفاصيله بانكشاف ساحر.

انحنت على العقدة التي تمسك بالباب، فاندلق ثلاثة أرباع صدرها العارم، وتراخى حنك الأستاذ الذي هُزم تماما؛ أمسكت بالأنشوطة وحلتها ببساطة، فترنح كلاهما: الأستاذ والباب، وأغلقته بهدوء، و"تربيست الساقوطة" التي تحجزه وفتحت للأستاذ بابا على جغرافيا لم يعهدها من قبل.

قادته من يده. أجلسته على الأريكة. انحنت أمامه فخلعت له حذاءه اللامع، وجواربه الناصعة البياض. فكت حزامه، أنزلت بنطلونه وطوته بعناية، شكرها على ما فعلته بقرارة نفسه. عرّته تماما، وقادته إلى مغطسها؛ وهو عبارة عن نصف برميل مقصوص بشكل عرضي صممته بنفسها، وأوصلت إليه نباريش ماء من عدة جهات؛ أنزلته في ماء دافئ عامت على وجهه زمر من الأقحوان المشاغب، والدحنون الأحمر، وأزهار الحلندوق، وصارت تغرف بشربة بلاستيكية الماء الموشى بالأزهار المتآمرة، وتصبه على رأسه الملوث بالمنطلقات النظرية للبعث والسموت المتعامدة، أعقبته بطقس التدليك للكتفين المتصلبين فتنتشي جذور الشعيرات النابتة على عاتقيه، وتابعت إغداق حنانها الوارف، ممسدة عضلاته المتعطشة للمسات كهذه. أخرجته من بركة العذوبة، لتلقحه على سرير الدهشة، وبعد أن لفت إشارب حريري حول عينه، داهمته ظلمة المكان، ولكن "لُوكْسَ" الجسد أضاء بصيرته المتحفزة، فاستسلم تماما لها وهي تمسّده بزيت السمسم الذي تصنعه بنفسها بعد أن تنتقيه حبة حبة، وتقطره بروية كيميائية، وتستخرجه من خلاصة تجربتها، فينتفض جسده المتيبس، وتهتز خلاياه الجائعة، ويعصف به

تيار يكهرب عضلاته فيرتخي كل شيء فيه ويتصب وسطه لأول مرة منذ هجرته ابتهال. وألقمته قطعة من حلواها المتبلة بحليب الألم، ورشف خلفها نبيذاً مقطراً في خوابيها. شم رائحة حقول من العنب الجبلي مشمسة تحت أشعة ناعسة، تهب عليها نسائم من هواء مشبع بالنقاوة، رائحة النبيذ ممزوجة برائحة جسدها تجعل منه النبيذ الأشهى في العالم كله. يوم قدم الجبل إمبراطور لروما، يسمى "فيليب العربي"، ظلت روما تشرب من نبيذ سرمدة وما حولها طوال قرون. وكاد أن يسمع خبب الطبيعة وأصوات التاريخ وهي تمشي فوق لسانه وتنهمر في بلعومه المليء بالمرارة. ينتهي من كأسه، فتتمدد حوله محيطة تديها بوجهه المسفوع بالغضب المكبوت، فيلقمهما بهدوء، ويبدأ بالنشيج. بكى طوال الهزيع الأول من تلك الليلة القمراء. بللها دمعه الجارف، فجاءها باستمطار من تلبد غيومه الكثيفة، ولما بدأ بالانفراج بعد زخات الحنين الجارف للذاكرة الموشومة بالخيبات، وبنكران الجميل من الحزب الذي وهبه حياته، ومن المرأة التي وهبها إخلاصه،كان على أعتاب شهوة جامحة وهي تمتطيه بكل أنوثتها. وبينما يصل منفجرا في رحمها صار فمه يردد.

أنا الإدريسي، أنا الإدريسي!؟

انفكت عنه وتمددت بجانبه مقبلة شحمتة أذنه الكبيرة وصولجان استدارتها، هامسة فيها من باب الكلام لا الفضول: **مين الإدريسي؟**

– **صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.**

انتفض، وأخذ وضعية الأستاذ.. جلست على الأرض متكئة على الأريكة ترتشف نبيذها وتصغي وهي تبتسم.

– **أول من رسم الخرائط وفك رموز التراب. لون البحار. ربط حياة البشر بالمناخ؛ الإدريسي، ولد في سبتة وعاش في قرطبة. زار الشام تعلم**

فيها، وعاد إلى النورماندي ليرسم أول خريطة تطابق الأصل أو تقاربه.

لحظة: وهبّ إلى خرجه. نكش منه مجموعة من الخرائط وانتقى واحدة بعناية: **انظري إلى هذه الخارطة. نسخة طبق الأصل عن عمل الإدريسي. انظري كيف صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وما بين البلاد من طرقات وأميال. كتبه في الجغرافية ظاهرة في محيط الأدب الجغرافي العربي، وفي النشاط العلمي لكلّ العصر الوسيط.**

توفي الإدريسي عن واحد وسبعين عاما؛ ولا يُعرف مكان قبره، لكني أظن أنه توفي في البلاط النورماندي في باليرمو بصقلية.

وتابع استعراض معارفه الواسعة، بينما هي تراقب هذا الرجل المدهش وهي تخفي ضحكاتها حينا، أو تفغر فمها دهشة حينا أخر.

تبعه ياقوت الحموي والاصطرالخي، وابن بطوطة، وابن ماجد والمقدسي. لقد عرفوا كروية الأرض قبل غيرهم. لقد فهموا الخسوف والكسوف وتعاقب الفصول ودوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، بعيونهم، بعقولهم وأدواتهم الموجودة معي في الخُرج.

فاض تفاصيلا وشرحا، مر على بيت فريدة كل الجغرافيين والرحالة العرب في استعراض مدهش، قبل أن يغيب الأستاذ حمود عن الوعي ليستيقظ وقد انتصف النهار، ورائحة البيض المقلي تزكم أنفه، ورأسه يضج بصداع خفيف، وجنونه قد تلاشى.

سألها بخجل ظاهر: **وين ابتهال؟** ردت عليه بحزم: **ماتت من زمان.. يالله بلا كسل الفطور جاهز.** تقدم بهدوء من السدر المزدان بالجبن واللبن والحليب والعسل والمكدوس والفجل والبيض "أبو عيون". وبدأ يسترجع ما حصل البارحة. كل ما تذكره، أنه اليوم الثامن من الحرب! وأن الجنود الذين مروا من سرمدة، وهم يصيحون: ما كانوا احتلوها لولا التصريح بإن القنيطرة سقطت. انسحبنا انسحابا عشوائياً.

خدعونا. الإسرائيليون جبناء، لا يمكن لهم التقدم لولا بيان سقوط القنيطرة.

وتذكر أنه، كرع نصف لتر من العرق المثلث. وظل سكرانا حتى صباح هذا اليوم. خمس سنوات مرت على الهزيمة وهو غائب في عوالم أخرى. استيقظ منها للتو مزكوماً ببقايا روائح الند والدهن والعطور؛ ما تزال تعسُّ في خياشيمه. قال لها:

- طولت وأنا نايم ما هيك؟

-ما كثير، أربع خمس سنين بس، وتبعتها بضحكة جذلى: **ياالله، خلينا نأكل ونروح نسجل زواجنا!** صفن قليلا ثم أجاب بهدوء: **بأمرك.**

فتنفست الصعداء، وزفرت هما وخوفا كانا يقلقانها، بينما الأستاذ انكب يأكل بصمت، وعيناه تنظران إلى الفرجار المستند إلى الباب المتربس بشيء من الفضول. و يتساءل ماذا يفعل هذا الشيء هنا؟

الفصل الثالث

بثينة

هل أكتفي هنا وأغادر؟ كنت مدفوعا بأمنية الهروب وانا أرقب من فوق السطح العالي سرمدة من الجهات الأربع؟ ماذا ينتظر هذه البلاد الهادئة الصامتة، ماذا يختمر تحت رجومها وحجارتها وألم أبنائها. من ينظر إلى هذا الغروب في هذا الصيف الحارق. سيشعر برحم ضخمة بدأت تتقلص لتولد أجنة جديدة وسلالات أخرى لم تعرفها هذه الأرض من قبل و انفجاره بات وشيكا. سهل حوران المشبع بالشحوب تنعكس عليه بقايا النباتات اليابسة والحقول المحصودة باصفرار مريض ممتد على وجه هذه البقعة الفقيرة الهائمة المنسية في الجنوب. هنا السلطة فقط للهشير وبقايا القصل الجاف يكفي عود ثقاب واحد ليشعل كل شيء، الحرارة تحرق كل شيء، تستخلص من الأرض كل حبة مخزنة من الماء ونسمة واحدة تجعل من الغبار سيد المكان. الغبار يغطي الوجوه، الأسى ينضح من الأعين، والبشر مغموسين بنزق حاد.

تكفي شرارة واحدة لتيقظ رغبتهم بالحياة، تكفي إشارة واحدة من جنوح المكان ليتغير إلى الأبد. ثمة مخاض صامت في هذه البلاد. يستنهض الدماء والأرواح والصخور.

لم أعد أستطيع الرجوع كما كنت ولم أعد أستطيع المسير. أني محتجز في لحظة بين عالمين وزمنين وتاريخين. وإن الشرق الذي أبدع ثلاث ديانات يستعد ليصدر ديانته الرابعة. ستكون هذه المرة طاقة أخرى ستغمر العالم. عالم سيشبه نفسه لا يتحدر من أحد. فبعد أن اقتنعنا أن الأرض كروية صار لامناص أن نتحمل الجميع، فلم نعد نستطيع ركل السفلة إلى الهاوية.

ولأن سرمدة مركز الأرض لهذا المساء. سأبقى اليوم أيضا. وأصغي.

كتبت ذلك في دفتر ملاحظاتي. ونزلت مشبعا بغروب حوراني الملمس.

يطلق على سرمدة ألقاب كثيرة: "أم الشجر"،" تل الريح"، "جرن الله".. ولهذه الألقاب كلها علاقة بطبيعتها، وسمات أهلها البسيطة حتى السذاجة، والمنفعلة حد النزق. والعميقة المتقنة لكل أنواع التقية.

تركّب حولها الطرائف والنكات والحكايات. استمد معظمه من كونها مصدراً قديماً لزراعة وتسويق القنب الهندي قبل أن يحظر استخدامه، فالبلدة تزرعه في الحقول، وتقطفه وتجففه في البيوت. ويصنع منه الحشيش الأكثر جودة في الشرق. يصدر إلى بيروت والقدس؛ ففي موسم جني الحشيش، كانت البلدة تغرق في مزاج رائق وضحك متواصل. جعل منها بلدة غير متجهمة على غرار القرى المحيطة. نساء ورجال عجائز وشباب يشاركون بجني الخشخاش وتجفيفه. بموسم صاخب. من يوم منعت السلطات ذلك. والناس بدؤوا يفتقدون الخفة المطلوبة لتمرير الزمن.

بلدة عادية من بلدات جبل حوران، والنبش في ذاكرتها يحتاج إلى إيجاد فراغات بين الأزمان، فلا منطق يؤدي إلى ما حدث، ولا ما حدث فيها يبدو منطقيا. ولكن اليقين الذي لا تكذبه العين وإن قيض لأحدكم أن يزورها يوما سيجد إن خضرة وارفة من بساتين الزيتون تطوقها من ثلاث جهات أما الغرب فهو سهل مفتوح على كل الاحتمالات.

زراعة الحشيش والتحشيش عادة أهلها القديمة وتاريخ البلاد ظلّ على أبوابها، لم يستطيع اجتياحها، وهي لم تشارك فيه إلا حين تحين موعد الثورات المسلحة فهؤلاء الناس هنا يملون سريعا من الحراك السلمي المعروف، لا يتقنون فبركة المطالب، أو الانصات للمنطق، فحين يستثارون ويشعرون إن كيانهم مهددا، يتحولون إلى كائنات لا يمكن لجمها، فيقتلعون كل شيء أمامهم ولكنهم لا يعرفون كيف يحافظوا

على ثوراتهم التي فعلوها على مدى التاريخ لكنهم يتقنون التربص بالزمن.

بحوزتهم إحساس جارف إن حياتهم ستتكرر مرة أخرى ولا ضير من هدر أحد الأجيال بكنف الفراغ. ولكنه من عادة التاريخ أن يمتلك الكثير من الوقت بانتظار أن تعي الأمكنة نفسها قبل أن تستسلم له، فيغمرها بلزوجته.

سرمدة من حجارة البازلت غزاها الأسمنت يأتيها الوادي قادماً من أعلى الجبل، ويتفرع إلى فرعين. يحضن البلدة ويطوقها ثم يتابع سيره متجها إلى حوض اليرموك.

"تل الريح" مثل مخدة، تتكئ البلدة عليه؛ سكنته مجموعة عائلات مسيحية ودرزية قدمت إلى الجبل من لبنان منذ ثلاثمائة عام وأستوطن على أطرافها البدو في محاولة لمقارعة الترحل بالثبات.

في محيط البلدة زرعت بساتين الزيتون وكروم التين، وامتدت الأرض الصالحة للقمح والشعير والجلبانة والعدس والحُمص متوغلة في سهل حوران، بعد قرارات الثورة بإزالة الخشخاش من الحقول، واستصلاح مناطق من الوعر الكحلي الغارق بالحجارة البازلتية الضخمة.بدت البلدة مثل كومة من الحياة وسط دخل من الحجارة الزرقاء. الموشحة بالسواد.

شجرة أم الكباش الخرافية تنتصب وسط الوعر، فعلى امتداد عشرة كيلو مترات من الحجارة البكماء، لا يمكن أن يلمح عرق أخضر سواها. الشجرة أصبحت مزارا، يؤمها التواقون للخصب، يقطفون أوراقها وينقعونها ويحاولون احتساء مرارتها، علها تساهم في تنشيط الأرحام العاقرة.

ذبحت على كعبها الخرفان، ونسجت حولها الحكايات؛ كلها تقول: إنها شجرة مباركة تتغذى على دم الأكباش الفحلة، لينعم القطيع بالأمان.

يجود عليها الرعيان بخيرة أكباشهم، كلما تسلط على خرافهم ذئب، أو كاسر، أو أصابها داء يقصف أعمار أغنامه! نبتت في وعر يثير الخوف و يولد الرهبة، وهو فقير الخضرة، فأخذت الاسم من الأضاحي المسفوحة على جذورها وأصبحت أم الكباش مع الزمن مثل الحد الوهمي لمشارف وحدود سرمدة

الشجرة الثانية موجودة على مشارف الوادي، وهي شجرة البطم المفخخة باللذة. ظل يحرسها "سمعان الأطرم" طوال خمسة وعشرين عاماً. شجرة.معمرة نسيها الزمن. نجت من البركان العظيم وثلاث هزات أرضية، وأكثر من ثلاثين معركة وقعت بالقرب منها. ولم يقدر على تحطيبها الجنود الأتراك التي أوكلت لهم مهمة تأمين الحطب لتشغيل قطار الحجاز فقصوا واقتلعوا ثلث أحراش الجبل.

عمرها يفوق أربعة آلاف عام، ومن فرط كهولتها، ظهرت لها جذوع جديدة، ثم هرمت وماتت، تولّدت أخرى. أما هي – الشجرة الأم – فبقيت راسخة. عملاقة متشققة، تملؤها الفتوق اللزجة الطرية.

سمعان الأطرم وجد في شقوقها الرطبة اللدنة المترعة بالحرارة، المكان الأشهى ليفرغ شهوته بدلاً من ممارسة العادة السرية! عرف لاحقا كيف يستثمر الشجرة، فسورها بحائط من الحجارة، ونصب حولها الستائر من أكياس الخيش، وأصبح رسميا قواد الشجرة! يجلب لها الزبائن ويهتم بحمايتها وتشذيبها.

الشجرة الثالثة المعروفة في سرمدة، تقبع أمام دكان أبو ممدوح. عمرها أكثر من مائة عام. شجرة حور عملاقة ارتفعت إلى ما فوق البيوت بكثير، فصارت المسكن المفضل لكل الطيور المهاجرة والمقيمة. في المساءات الرائقة، يصل ضجيج الطيور حتى خارج حدود سرمدة، تفرعت وتشابكت فأضحت دغلا عاليا تتقاسمه الطيور بحنكة.

الدكنجي أبو ممدوح خاف على أساسات المنزل من جذورها العملاقة، فقطعها بعد أن كسر ثلاثة مناشير حديدية، وأربعة أيام من العمل الشاق. في كلّ مساء، ولأسابيع، بقيت عصافير سرمدة تحوم حول الفراغ وهي تزقزق بأصوات مخنوقة، والكثير منها لم يستطع المبيت على شجرة أخرى.

بينما أسراب العصافير تبحث جزعة عن المنزل المقتلع، وتدور بالفراغ وهي لا تفهم كيف تختفي شجرة خضراء بهذا الاتساع من الوجود، فتبدأ بزرق فضلاتها وهي تزقزق بحنق فوق سرمدة لثلاثة أيام متواصلة كانت فريدة تصارع وهي بين الحياة والموت لتلد طفلها، مطلقةً صرخات علَت على أصوات العصافير التائهة.

على سطح الحوش، وقف الأستاذ حمود متبعا التقليد القديم: حين تعسر الولادة، فيقوم الزوج بالنط والقفز على سطح الغرفة التي تقبع فيها الزوجة، ليساعد على خروج المولود.

ثلاثة أيام والأستاذ حمود يرقص بجنون ويدبك بقوة، متحملا زرق الطيور وسخرية الناس.

وخرج الطفل أخيرا، وسمع صراخه وزغاريد الداية والجارات، فنزل كالمجنون يلوب أمام باب الدار، وركض باتجاه الدكان يشتري جوزا وحلوى للمناسبة.

بدأت النساء الحاضرات بالبسملة فللولد القادم قطعتين من اللحم بين فخذيه. غسلته أم ذياب الداية ولفته بهدوء وأعطته لها. سألت فريدة المنهكة القوى: **شو ولد، ولا بنت؟**

ردت الداية: **ولد ومكثر.. عندو اثنين! سبحان الخالق.** قالت فريدة: **راح سميه بلخير.. اسمو بلخير.**

شهران من الفرح العامر في حوش فريدة. وزّع البهار المغلي اللاذع

الطعم على أهل سرمدة. بأبوة متفجرة يحمل الصبي ويضمه إلى حضنه. يسهر على رعايته. يغيّر قماطته. يهدهد له. يقص عليه حكايات الرحالة العرب. يغمسه في زيت الزيتون. يطوع له عضلاته الغضة. يؤدي كل ذلك باستقامة عميقة، ومواعيد صارمة، وبحنان مثير للشفقة وكأنه فقد الأمل بأن تكون له ذرية، ثم فجأة داهمته الأبوة.

صحيح أن فريدة ومنذ لحظة عقد قرانها على الأستاذ حمود، قد تبدّلت وأصبحت زوجة وفية وهبت زوجها إخلاصها وحنانها، وبمزيج من الشعور بالذنب والرغبة بالنقاء، أغدقت عليه فيض جسدها وأنوثتها، وسدّت أبواب وشبابيك الماضي تماما. إلا أنها لم تتوقع أن يعامل طفلها بهذه الروح المليئة بالمحبة.حين عزمت على أن تخبره بحقيقة أن الولد ليس ابناً له، اكتشفت أنه على علم! وفي اليوم الذي قررت فيه أن تعتذر له، وتشكره.اندلعت حرب أكتوبر، فأعادت الحرب، الفرح القديم إلى الأستاذ فغضت النظر نهائيا عن فتح هذا الموضوع معه وخاصة حين رأته يصعد ليراقب بفرح عارم طائرات "الفانتوم" الاسرائيلة تحترق بالقرب من سرمدة، وبسرعة انخرط متطوعا في الجيش. حماسه قاده إلى الجبهة ليشارك بالقتال هناك، وبعد يومين من وصول الجيش السوري إلى بحيرة"طبريا"، ثم تراجع مع كتيبته بعد توقف الجبهة المصرية، فشارك في حرب الاستنزاف واحداً وثمانين يوما، واختفى أُسر على الأغلب. انتهت الحرب ولم يعد؛ بعضهم أكد أنه قتل، وآخرون – ممن حاربوا معه – قالوا: إن جماعته تعرضت للأسر.

انشغل أهل سرمدة بالشهيد الذي وصل إليهم، فشاهر منصور، الشهيد الوحيد من سرمدة. دفن بحفل مهيب، وألقيت بضع كلمات. تبرع أهل البلدة لبناء نصب تذكاري له في مدخل سرمدة قبل جسر الخشخاش.

بيرق سرمدة حاضرا، فالشهيد ابن الثائر الكبير حمد المنصور، واحد

من فرسان الثورة السورية الكبرى ضد المحتل الفرنسي، حمّال البيرق، أبدى بطولة خارقة في معركة الكفر والمزرعة. كان ثمة وجوم على الوجوه المقفلة على تساؤل مبهم، فآل منصور من عائلات الجبل الأكثر نزوعا للحرية والاستقلال. فهم يتفاخرون بتاريخهم الطويل في مقارعة من يأتيهم فارضا أتاوته وقوانينه عليهم، فجدهم الأكبر رفض كل إملاءات العثمانيين، وأحفاده حاربوا إبراهيم باشا وفتكوا بجيشه مرتين، وأبوه ظل طريدا ومطلوبا حتى خروج الفرنسيين من سوريا، وعمه شارك في كل الانقلابات الكبرى، فكيف لعائلة تقدس الحرية أن يكون إرثها قتل أخت طالبت بأن يكون لها الحق باختيار شريك حياتها، فتذبح ذبح الشاة!؟

مر شهران على مواراة شهيد آل منصور في الخشخاشة، حين خرج نواف من المضافة، وأطلق مخزنا من الرصاص ليسكت ذئابا تعوي؛ لكن العواء صار أقوى، فصعد إلى السطح، وصار يعوي عليها مقلدا أصواتها حتى الصباح. وبعدها اعتكف في بيته مشدوها بعوالم أخرى، يكلم نفسه، وكلما اكتمل البدر، وصفا الجوّ، صعد إلى سطح البيت وعاود العواء..!

مع تفجر أمومة فريدة وانذياح حليبها، شعرت بخوف يتسلل إليها إحساس موجع بالخطيئة. نفضته بسرعة وحزمت أمرها: عليها بالتطهر الكامل من تاريخها الماضي.

حملت طفلها إلى ممرض البلدة الذي يدعوه جميعا بالدكتور سالم.

تمحّص الدكتور قطعتي اللحم الغضتين بين فخذي الصغير. وجد أنهما متصلتان من الجذر، وبعد عدة دقائق قال لها: **هذه نعمة وليست نقمة. لا تفكري أبدا باستئصال أحدهما.**

عاشت من أجل "بلخير". كرست حياتها له. وبدأت نباتات بيتها تصبح أقل نضارة، ولكن فرحها الكبير بمولودها جعلها تتنازل عن هواياتها الأثيرة. فاكتفت بتطهيره كما كل الأطفال في سرمدة مسيحيين وإسلام ودروز.

وحين دخلت يوما لتأخذ قطعة من مخزون حليب الألم، رأت الديدان تعيث فيه رمته كله، وتوقفت عن تصنيع وبيع أجبانها المغيرة للأحوال، وعن مزج المشروبات بالحليب الغريب المذاق.

توجهت إلى "مجلس حمزة" طالبة من الشيوخ إعطاءها دينها.

لتتلقى الرفض المتكرر، ولم تجد شيخين يزكيان دخولها، فلكي تصبح درزية من مرتبة العارفين، هناك طقس: أن يزكي شيخان من العقلاء المنتسب، ويكونا مسؤولين أمام المشايخ والرب عن نقاء سريرة طالب الدين وعن سيرته الشخصية الخالية من الشوائب كما يفترض، ويكونا على ثقة من أنه سيهجر الحياة الدنيوية؛ وعلى عكس كل الطوائف، لا يتم التبشير بالمذهب، بل يُترك الناس لتختار الوقت المناسب للدخول، لأن من يرتدّ عن المذهب تعتبر ردّته نهائية، ولا يقبل طلبه مرة أخرى. ولا يوجد عمر محدد لطلب الدخول في الدين والإطلاع على الكتب الستة المقدسة. فما أن يبلغ أو تبلغ الموحدة وينضج الجسد، حتى يصبح بالمتناول - لمن شاء - الدخول في الدين وليس كما يظن بعض السذّج إن عليه بلوغ الأربعين ليصبح متدينا أو متدينة درزية.

أما من لم يُرد، فلا يجبر ولا ينكر عليه، ولا يخضع إلى قوانين الدين، ويترك ليملأ فراغه الروحي، بالطريقة التي يحب.

ومع الرفض المتكرر لمنحها دخول الدين، توجهت إلى الكنيسة. قابلت الأب إلياس. شرحت له حاجتها إلى الله، وأنها تريد أن تستلم دينها، لكن الشيوخ يرفضون. وسألته معروفا، فرد الـ "أبونا" بوجهه الصبوح:

- أي شي فينا نساعدك يا بنتي، لن نقصر.

- في مجال تخليني أعترف عندك. وتساعدني ربما الله يغفر لي؟

ضحك الأبونا:

- ولكن يا فريدة مكانك هناك في المجْلس. أنت درزية يا بنتي.

- طيب يا أبونا يعني المجلس ولا الكنيسة ولا الجامع، مش كلن بيوت الله؟ الله يوفقك اقبل توبتي واعترافي.

حزم الأب إلياس أمره، وأدخلها غرفة الاعتراف.

وبعد، طلبت منه تعميد بلخير، فلم يمانع...

مساء، جاء الأب إلياس لزيارة سائس وكبير مشايخ سرمدة. فاتحه بموضوع فريدة.

الشيخ فاروق استفسر: **طيب: ابنها ابن مين؟**

قال الأب إلياس: **ابن سرمدة يا شيخ. خلينا نستر عليها ونساعدها ورحمة الرب واسعة.**

وافق الشيخ شاهين على إعطاء فريدة دينها، ولكن بشرط واحد أن تبقى:**على البراني**، يعني أن لا تقرأ نصوص الحكمة، بل شروحات النصوص فقط. حتى تثبت صلاح نفسها. وحين يبدأ المشايخ بقراءة الحكمة من النصوص الجوهرية عليها بمغادرة المجلس.

شعرت فريدة بفرح غامض يدغدغ روحها وهي تنظر إلى وجه بلخير القمري الصغير. أرادت منحه أمًّا يفتخر بها. لبست أسود الحداد على الأستاذ حمود المختفي في غياهب الأسر، أو مجهول الموت غير الأكيد.

تحولت حياتها إلى العمل الدؤوب في خدمة الناس ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم. وصارت أعشابها الشافية، ووصفاتها الناجعة تقرن بالشكر والامتنان. تحول سياق حياتها لم يقترن أبدا بالندم، كما رغب رجال الدين. فهمس الشيخ فاروق للخوري إلياس:

بعدها عينها بادحة.. يعني: عين قوية، غير مهزوزة بالاعتذار والانسحاق المطلوب، لتحظى بالشفاعة من أولياء الله على الأرض.

حوشها الملبد بالغموض والمحموم بالزيارات السرية للمراهقين، فتح مصراعيه لحياة أخرى. فقد بريقه القديم، وبدأ يكتسب حلة جديدة.

كانت سرمدة مقبلة على تحولات نوعية.. بدأت تتشكل في البلدة المسالمة خلايا من الشباب الراغب بالتغيير، والمتأثر بما يحصل في سورية والشرق. وفوجئ الحصادون بمجموعة من الشباب الشيوعيين، يهبون لمساعدتهم في الحصاد والرجيد. واستطاع هؤلاء الشبان المفعمين بالطاقة والحماسة التغيرية، أن يكسبوا قلوب الكثير من الفلاحين والمزارعين. قبل أن تبدأ الحكومة بتسليط البعثيين عليهم وتخريب سمعتهم بأنهم ملاحدة كفرة يدعون للميبقات.

فريدة انتابتها الدهشة من تحول مسارات الرغبات الجامحة. ودخل جسدها الحار في حلّة باردة، أو سبات شتوي. نام الجموح الوارف، وتحول رويدا رويداً إلى أمومة فائضة بالحنان والرقة، مع قليل من النزق أيضا. هل اختفى أو توقف! لم تكن تريد أن تعرف، فانشغلت بالاحتفال بأمومتها. وتركت الحياة تسير كما تريد؟

لم تكن تدري أن الرغبة مثل الضوء، لا تتلاشى ولا تنتهي. ويمكن أن تورث وتنتقل إلى الولد الملائكي الوجه، ذي الخمس سنوات لوثات ممسوسة أودعتها في جسده الصغير لتنمو بهدوء وحشي، ولسوف تنفجر بعد حين...

* * *

ماتت أم سلمان الخطار بهدوء، وبقيت بثينة لوحدها في المنزل الكبير. شارفت على الخامسة والعشرين من العمر. كبرت فجأة. من يعرفها، يرى كيف نضجت. عيناها اللوزيتان أصبحتا تشعان بنظرة فاتنة. ووجهها القمحي انجلى عن بياض مشرّب بحمرة خفيفة. وجسدها سمق وضج بالحياة.

مخطوبة لابن عمها حسين المهاجر في فنزويلا. بعد حرب تشرين وعودة شباب سرمدة العساكر من الجبهة، برفقة شهيد وخمسة جرحى أحدهم حسين، وأسير أو مختف الأستاذ حمود، فُرِّبت فاتحة بثينة على

حسين النمر، وسافر بعد الحرب بعام ونصف، على أمل أن تلحق به بثينة في أقرب وقت.

يوم جلس إلى جوارها، وهي تقشر أكواز الصبار وتطعمه، سألها مرافقته إلى مكان أكثر حميمية ليفتح نواصي الحديث: بثينة: **أنت حبيتي من قبل؟**

أجابت بصلف عذراء معتدة بنفسها: **شو مفكر ما حدا حبني غيرك؟**

ثم أضافت: **وأنت بتحبني؟**

ضحك حسين من أعماقه، حتى إنها وضعت يديها على إذنيها من جلجلة قهقهته الشهيرة.

-بهل اللحظة بلشت حبك؟

كان قد انتبه إلى غمّازتيّ خديها الرائعتين، تظهران وتختفيان على وجه مصقول حزين قليلا، ولكنه ممتلئ بالجسارة. فاقترب من وجهها ليطبع قبلة عليه، أراد لمس غمزتها الشهية. تركته ليفعل ثم أبعدته عنها بغنج حاسم بعد قليل

- كُول صبيٍّر واقعود عاقل.

رحيل حسين فطر قلبها فهي ذابت به. عشقت رائحته، خفة ظله، إطلالته، رقته المهشمة، وذلك البريق الوامض في انكسار عينيه ورعد ضحكاته.

ويوم كشف لها عن أثر الرصاصة التي عطبت نصف يده اليسرى، بادرت – لأول مرة – وقبّلت مكان الجرح القديم، وغمرته بعد أن أضنت قلبه بالصدود.

شمت رائحته الدامغة النافذة الطيبة، وذاقت شفتيه القاسيتين المدهشتين بالرقة، وحين أدخلت يديها في عشب صدره الكث، شعرت بكل أمان العالم يطوقها، وبأنها تريد أن تبقى مع هذا الرجل للأبد.

غيابه جعل من وقتها متسعا والزمن يمشي ببطء. فعلت كل ما يجب

فعله لتكسو الفراغ وتحول الانتظار إلى فعل أقل وطأة.

ظلت تنتظر حسين الذي نسيت شكل وجهه مع مرور عامين على رحيله، لكنها حفظت تلك النظرة المجنونة المكسورة في عينيه، فبدأت تحاول تطريز ملامحه على وجوه المخدات.

أما غبطتها الأثيرة، فهي رؤية ناصر ساعي البريد، على دراجته النارية ذات الصوت المقرقع قادماً من جسر الخشخاش، فيطير الخبر بالبلدة التي هجرها نصف شبابها خلال سنوات، إلى فنزويلا وأمريكا اللاتينية وليبيا والخليج.

ناصر البوسطجي، يوقف دراجته، ويخرج كرسيه الشهير فيجلس عليه، ويبدأ بتوزيع الرسائل، وفي الأغلب، يقرأها لأصحابها مقابل وجبة أو كسوة أو ما يجود به الناس. غالبا ما يمر مرتين في الشهر على سرمدة التي أضحى نصف بيوتها في حالة انتظار.

مع كل رسالة، كانت توقد شمعة على مقام شجرة أم الكباش، وتضع فيه بضعة قروش وتتمتم:

-كثر خيرك يا "أم الكباش". احفظيه وساعديه بحق الله، ونذر علي كبش كبير بس يجيني خبر الروحة لعندو.

عاشت على رسائل حسين المعطرة بالحنين والشوق. تحرس غربته بإضاءة الشموع، وتقاوم السأم بشدّ اللحف، وتطريز قطع الكنفا. وحين تشتاقه في ليالي الوحدة، تضم المخدة المطرزة بوجهه الحلو، وتغفو وهي تتذكر ضحكته المدروزة بخيوط حريرية، فتراه في أحلامها وتصحو مبللة.

تعلمت غزل الصوف وحياكة الكنزات الشتوية بنقوش مبتكرة. صنعت قفاف القش. زينت صناديق المنزل بورود من الموسلين. طرزت وجوه العائلة على الملاءات البيضاء. وخصت حسين بعشرات الصور لوجهه الضاحك، الصارم، الشارد.. وصارت تقاوم المحو والغياب

بالتطريز. لكن ظلت كراهيتها لفريدة علامة فارقة؛ تمقتها من أعماق قلبها.

فريدة التي حاولت بشتى السبل، مدّ جسور الود مع الصبية الصغيرة، استسلمت وتركتها بشأنها لكنها أبقت الباب مفتوحا علّ الشابة الغاضبة أن تهدأ على مهل.

تفهمت بهدوء، أن بثينة تريد سببا يقنع عقلها، مثلها مثل الكثيرين ممن يؤمنون علنا بالقضاء والقدر، ولكنهم في قرارة أنفسهم، جبريون يريدون لعقلهم البارد أن يفهم ألاعيب الموت. ويبحثون عن تعريف له ولخبْط عشوائه، ولسياسته الغامضة في اختيار البشر. يريدون فهم كيف لمنجله أن يتصرف ويحصد الأرواح ويقهر الحياة.

جدلية كبرى غريبة ثملة بالمباهج والسخط. هو الحاصد، والحياة المولدة. الموت حقيقي، والحياة الزائلة. وكما حصل مع بثينة رأت في فريدة السبب والمسبب فارتاحت من السؤال عن الموت بتأجيج الكراهية لسببه.

في مأتم أم سلمان، جلست بثينة بالقرب من رأس أمها، والنسوة يتلينَ "التناويح" والأشعار المهيجة للبكاء، ويتذكرنَ الموتى من الأقارب والأباعد. ويوم أخذوا الجثمان إلى موقف الرجال لصلاة عليه، لم تصرخ بثينة أو تنتف شعرها، بل رسمت قبلة على خد أمها وودعتها بهدوء. كانت فريدة أقرب الحاضرات إليها وحضنتها بحنان أخت، وسارت بها إلى دار آل الخطار.

مرت الأربعون بهدوء. لم تتوقف فريدة عن المجيء كل ليلة لمواساة بثينة، وإعداد الطعام للمعزين، ومساعدتها في أعمال الدار.

بعد مرور ستة أشهر على موت أم سلمان، وثمانية أشهر على وصول آخر رسالة من حسين، كانت الوحدة قد أتلفت قلبها، والإرهاق قد نال منها. عيناها محتقنتان بالدم، وجسدها مهدود وخاطرها ينذرها بأن الأسوأ قادم. لم تعد نفسها المضطربة تهجع بتطريز الوجوه الغائبة وحضن

المخدات المحشوة بالفراغ.. تحولت الوجوه الموسومة بإبرتها الباهرة، إلى وجوه حزينة معتمة غائمة تتلاشى خلف خطوط إهلجية يتكرر فيه الرسوم بسرمدية لا نهائية.

جاءتها فريدة. شدتها من يدها وسارت بها إلى الحوش. حضّرت لها منقوع اليانسون مع البابونج والزعتر البري، وأضافت إليه بضعة أعشاب أخرى، جعلت من نوم بثينة عميقا ومتواصلا ليوم ونصف. حين استيقظت، رأت فريدة بعين أخرى. ولما شاهدت "بلخير" يحجل في أرض الدار، دمغ قلبها بوصمة فرح مباغتة. بلخير، في منتصف عامه الرابع مليئاً بالفرح المذهل.. أطالت له فريدة شعره وسيبقى حتى يدخل المدرسة كنذر لمزار" شيحان". اختارته فريدة من بين مجموعة كبيرة من المزارات الأولياء الصالحين ليكون حارسه وحافظه من كل مكروه.

-يخزي العين يا فريدة. ديري بالك عليه، والله يحميلك ياه.

خافت عليه بثينة من أن تصيبه بالعين، كان ولدا مترعا بالطفولة الأخاذة والضحكات الزاهية التي تخدش القلب.

وبين الفرح بملاعبة "بلخير" وانتظار قدوم ساعي البريد، مر الوقت بالترقب الممزوج بهاجس حامض الطعم واخز الطنين، فأذنها اليسرى لم تتوقف عن تنبيهها إلى خبر غير سار بانتظارها..

وصل البوسطجي إلى الدار الكبيرة مساء، وبحكم الخبرة يكفيه ملامسة الرسائل ليعرف محتواها. في الحقيقة -كان يفتح المظاريف بحرفية، يقرأ الأخبار قبل توصيلها ويعيد إغلاقها. فيعرف كيف ينال الإكراميات بحسب الأخبار المدونة فيها.

سلمها رسالتها وغادر على عجل. رأته يتوارى سريعا، فعرفت أن نبأ أسود ينتظرها؛ فعندما يهرب البوسطجي ولا ينتظر إكراميته، فإنما ذلك يعني أن الخبر ليس سيئاً فحسب، بل إنه الأسوأ.

قرأت الرسالة مرة واحدة، وأصبحت محتاجة لكل طاقة وقوة موجودة في العالم لتعيد التمحيص فيها. رسالة مؤلفة من بضعة أسطر تقول:

الغالية بثينة:

عندما تصلك هذه الرسالة، سأكون - إن شاء الله - في أمريكا. هنا الوضع ليس كما تتصورين، لقد خدعنا من قال: إن فنزويلا أرض الأحلام؟ لا اعرف عن أي أحلام يتحدث.

تعبت يا بثينة تعبت، فهذه السنوات الكثيرة تمضي بلا جدوى. سأحاول أن أجرب حظي في أمريكا. يشهد الله علي، وتراب سرمدة، أنك لم تفارقي خاطري مرة واحدة، ولكنني لا أريد لك أن تنتظري بدون أي أمل، فأنت حرة يا بثينة. حرة من لحظة وصول هذه الرسالة إليك! أتمنى أن تجدي ابن الحلال الذي يليق بك. وسامحيني يا بثينة سامحيني...

أعادت قراءة الرسالة مرة بعد مرة. طفرت دمعتان حارقتان، وسالتا على خديها المشبعين بالحمرة. مسحتهما بهدوء، ووارتها مع باقي الرسائل.

ومن يومها صار الليل بلا وجه.

فحين تأوي إلى وحدتها الشائهة، تنهشها قطعان من هواجس الشوق والرغبة والخذلان، تفرش رسائله حولها. تتعرى من ملابسها وترتدي قميصه فوق جلدها، تحضر تلك الصور التالفة من كثرة الاستعمال في خيالها، وتضع بين فخذيها مخدة طرية، وتظل تحاول الاحتكاك بها.

ثم تدخل يديها مداعبة جسدها، مطلقة نداء مكظوما مختنقا من الوحدة والانتظار.. ذات صباح، استيقظت، وبدأت تجمع كل ما يخصه: رسائله، هداياه، والصور الحلوة التي بعثها إليها. أوقدت التنور، وأضافت إليه القصل. خمرت صاعاً من الطحين وعجنته. أشعلت النار وجلست لتصنع أرغفة الخبز من ذاكرة كانت قبل أيام، عصية على الذهاب.

انتهت من حرق كل ما يخصه. صنعت من ذكرياته خبزا مرقودا، وطلامي شهية ومناقيش زعتر وكشك ولبنة!

بعد أن انتهت من طبخه أو إحراقه، التقمت بضع لقمات من تلك السنوات الجاحدة. ووزعت الباقي على الجيران. ولم تفاجأ حين أخبرها بعضهم: **لك يسلم يديك ما أشهى رغيفك يا بثينة.** قالت جارتها: كأن ثقلاً غامضاً قد اختفى عن صدرها. حاولت تذكر معالم وجهه، فلم تفلح. وارتبكت قليلا حين لم تجد في ذاكرتها أي مقابل: **معقول نسيت ريحتو؟ اختفى وكأنه لم يكن!** عرفت كيف تعالج خدوش المسافة بتجميع كل شيء وقضمه، وتوزيع حضوره على الناس. أخرجته من قلبها. في الحقيقة، غيبته ولم تخرجه، فشعرت لوهلة أنها خالية تماما من كل شيء يخصه.. بيضاء كما يجب. فارغة من جديد، ومنتظرة لأيام وارفة بدأت تعدها بالقدوم، بعد زوال آثار الهجران المر، وكلخ الحبيب الملون من جذوره وشويه مع قصل التنور.

بدأ جسدها يسترد عافيته، وتفتحت مسامّه التي خنقت وأغرقت الجسد في بحر الانتظار، ولفته بحرير التوق وسكنّته على أمل أن ينفتح يوما أمام الحبيب المسافر إلى شمس الكاريبي الحارة، فيذيب الثلوج والجليد، ويوقظه من سبات الحب البارد. ولكنه ظلّ قابعا في داخلها متجذرا فيها كلما أتلفته، ولد من جديد. وهنا سألت نفسها هذا السؤال الجارح: ماذا كانت تريد منه، حكاية أم طفلا؟ إذا كانت تريد حكاية حب، فليكن لها وجه آخر، ولتكن حكاية ملونة.. صورة مزورة.. فرحاً غامضاً، وخصوصية امرأة معشوقة؛ وهذا متحقق بغيابه الكبير فيمكن أن تدلق عاطفتها على أحد غيره. أما إذا كانت تريد منه طفلا، فلتحبل من آخر تتزوج من أي رجل يمنحها طفلا.

على كل وصلت لنتيجتها الغريبة: كل طفل هو نهاية حكاية. وكل

حكاية هي بداية لطفل محتمل.

أقنعتها الحكمة التي وصلت إليها، وأزاحت عن كاهلها عبئاً كبيرا، فهي لم تحلم يوما أن تكون رحما لطفله، إنما بطلة لحكايته. وهنا سيبدو الألم أقل وطأة.

حزمت بعض أغراضها وجاءت إلى حوش فريدة. لم تقل لها كلمة واحدة، بل تبادلتا أخبار البلدة على عجل، وأشعلت البابور ووضعت إبريق "المتة" فوقه. شرعن يتبادلن الكاسات الخضراء؛ يشربنها مطعمة بالحامض وحبات الهال.

فريدة – بعين المرأة الخبيرة – أدركت كيف قصفت بثينة في كيانها، بينما كانت تتهرب من نظراتها، وانخرطت تساعدها و تشطف أرض الحوش وهي تغني، بالأحرى تنوح بأشعار تقال في المآتم.

حضرت لها فريدة خلطة عشبية تفيد في معالجة خذلان الحب، وأضافت إليها توابل خاصة ادخرتها لمثل هكذا مناسبات؛ وتمنت لو بقي لديها بعض من حليب الأسى. وبعد ساعتين ونصف من خلط المقادير، صفّت المنقوع وأضافت إليه قبضة من الشيح لمعالجة تشنجات آلام الحب وتقلصاته الحارقة.

جاءتها وهي تحمل ما صنعت على صينية من القش، وتضع المنقوع في إناء من فخار.

رمقتها بعين الأم. أو الأخت الكبيرة.

قالت بثينة: **أنا تعباني. تعباني كثير يا فريدة.**

- بعرف يا بثينة بعرف. يا حبيبتي، راح ترتاحي بعد شويّ.

أمسكت سندويشة اللبنة المرشوشة بالنعنع، وألقمتها إياها. وطلبت منها كرع كأس الشراب دفعة واحدة.صحيح أن فريدة رمت كل حليب الأسى لكنها بقيت تعرف كيف تعالج آثار الخذلان بالأعشاب.

لم تمض سوى دقائق حتى كانت دموع بثينة تنهمر بلا تحفظ. ذرفت الانتظار كله، وكل ما ينتج عنه، أو يحيط به. أجهضته من رحم قلبها. فهذه الدموع ظلت حبيسة، من يوم اجتاحت سرمدة جائحة النحيب.

طفقت تبكي حتى جفت محاجرها، فغسلت روحها المحزونة، وانفتحت على مصراعيها طاردة كل الوجوه المطرزة على المخدات، ومعلنة بداية بياض جديد.

ركضت باتجاه البيت. نكشت كوارة القمح، وأحضرت الصندوق الذي يحوي كتاب الحظرد عن أسرار الموتى؛ أخبرت فريدة بكل التفاصيل المخبوءة في قاع روحها، وكيف كادت أن تتسبب بمقتل سرمدة بزرنيخ عرافة كناكر!

أخذت فريدة الصندوق المليء بالمخطوطات، وخبأته في مستودع القصل، إلى أن تنظر في ما يحتويه لاحقا، وتفرغت بكليتها لبثينة التي وجدت بحضورها الكثير من العزاء.كانت أيام من البوح والشهيق والتطهر بينهما.

في نهاية الأسبوع، جلستا بعد أن أوى بلخير إلى فراشه، وقررتا أن تقيما حفلَة "سكّر" لنتف الشعر الزائد، كعلاج مواز لتخليص مسامات الجسد من سخام الحب المحروق وتطهيره بألم النتف.

اقترحته فريدة لتخرج بثينة من مزاج الفقد نهائيا، وإلى الأبد، ثم للتأكيد على بدء صفحة جديدة، فهي تدرك بغريزتها الوارفة إنه لا يمكن لأي امرأتين أن تصفيا وينجلي عكر الأنوثة الحاقدة بينهما إلا إذا تعرتا معا.

سخنت فريدة ثلاثة قدور من الماء بعد أن وضعت فيها قشور الليمون، وأوراق الكينا، والنعناع. جعلت البخار يملأ فضاء الحمام.

بينما هيأت بثينة لزقات من شمع العسل وماء الورد وحامض الليمون، ونادت على فريدة: **في عندك زنجبيل؟**

ردت فريدة: **على الرف فوق**. كان الحبور يفوح من بثينة وهي تجول بنظرها على القماقم المغلقة في الرفوف المتسقة المرصوصة بتوابل الطبيعة. دون أن تنتبه إلى تلك النظرات المريبة وهي تمسح أقواس جسدها.

نظرت من زاوية الحمام بهدوء إلى بثينة المنهمكة بتحضير الخلطة لإزالة الشعر الزائد. كانت ترتدي قميصا أصفر، يُظهر كوزيّ صدرها يرهزان متوثبين، وبدت حلمتاهما نافرتين بارزتين من خلال القميص.

شعرت برعشة تسير في عروقها، وحين استدارت بثينة ثبتت نظرها على مؤخرتها الممتلئة المتأرجحة باهتزاز لدن.

-**أعوذ بالله**. تعوذت من شياطينها القديمة. **شو يا فريدة؟** حدثت نفسها متسائلة، وهي تلوم عقلها الذي فاجأها بنداءات جسدها.. يعني الرغبة عمياء لا يمكن حزر نواياها. عملت جردة حساب سريعة، فلم تجد – أبدا – في داخلها أي توق يخص امرأة من قبل. كيف إذن تنهشها هذه الفكرة؟ كيف تسللت إلى روحها التي طهرتها بالاعتراف والأمومة؟!

فبدأت تلعن نفسها، وتشتم مأزق الجسد. لتطلق أخيرا عبارة أقرب للسماع، تؤنبها، وتحذرها: **إياك، إياك يا فريدة حتى أن تفكري بالأمر**.

وجلست تتلو – بينها وبين روحها القلقة – بعض الأذكار والآيات المساعدة على طرد شياطين الطليقة..

– **بتساعديني على التنظيف**، قطعت بثينة عليها صلواتها الهامسة وهي تخلع ثيابها وتستعد للبدء بنتف شعر عانتها.

احتاجت فريدة لكل ذرة من عقلها لرفض النداء المشحون بالغواية، ولتشيح عينيها عن فرج بثينة.

– **لاء، لازم أطبخ لـ بلخير. "المرة الجاي بساعدك"**.

لم تكن تريد أن تقترب أكثر من محظور أقسمت أن لا تطأه، فتركت

بثينة ترتب نفسها، وتنتف كل الشعر الزائد، وتقضي في الحمام جل تلك الليلة برفقة ألم منعش يجعلها تفوح بالغناء.

اندست فريدة إلى جوار ابنها محاولة بكل ما أوتيت إبعاد ذلك الوسواس عن رأسها في الليل، اجتاحتها أحلام شبقية برفقة بثينة، جعلتها تستيقظ مرتعبة ومبللة تماما، فتعكر مزاجها أكثر، فحزمت أمرها وأخبرت بثينة:

"لازم ترجعي تفتحي بيت أهلك. وما تخليش الدار لوحدها"

بثينة التي برأت من الفقد – مؤقتا – صارت تعج بالحياة. وبرغم أن الطرد، أو سؤال فريدة كان مباغتا وقاسيا، و لم تفهم أسبابه، ولكنها لم تحاول أن تعطي الموضوع أكبر من حجمه، فعادت لبيت آل الخطار محدثة نفسها:

– فعلا فريدة معها حق، ما بصرش نخلي دار آل خطار تظل لحالها"

بلخير، مفرط بنشاطه، يزرع ابتسامة لَمّى حلّ، فأضحى الحب من بيوت سرمدة يتحول مع الزمن إلى لزوجة ترهقه، فهو لا يُزجر، وكل ما يقوم به يلقى الإعجاب والمحبة. لا ينفك من يصادفه يقبله. يمازحه أو يهديه شيئا، أو يشتري له.

كل من يعود بعد غياب، يحسب حسابه، ويتلقف أخباره تحت حجة أن أباه بطلٌ وشهيد؛ وكان أستاذا فاضلا، له أياد بيضاء على الجميع.

في الحقيقة، لم يكن بعد ليشعر بشيء غير مألوف في حياته، سوى أن له عضوين ذكريين يحتار بأيهما يتبول!

على مشارف عامه السادس دخل الصف الأول بفرح.. ارتدى مريوله الخاكي والقبة الطلائعية، وحمل حقيبة جلدية تعود إلى الأستاذ حمود أيام تدريسه الجغرافيا، ومضى فرحا إلى المدرسة. فريدة التي تركته يخرج لأول مرة في حياته بدون رقابة، شعرت أن البيت خاو، وأن عادتها

واعتيادها على نمط الحياة الجديد، بردَ لها المخالب بمبرد رتيب، صارت تجلخ به حواسها، وتقلم قدرته على إحداث الخموش في الحياة. لكنها تابعت سياق حياتها الجديدة

فرسمت علامات التعجب لدى الجميع، بقدراتها الاستثنائية على بث الأمل والمشاركة بالفرح والالتزام الهائل بتقديم الوقت والجهد للناس. تراقب ثمرة رحمها ينمو أمامها، فيملأها زهوّاً مختالا، و قلقاً عميقاً بنفس الوقت، فحين تحدق في عين الزمن، تدرك كم هو ممتد وطويل وبلا قرار كل لحظة فيه نهاية وبداية معا. وجدت أن الزمن بمسربين واحد يأتي بالأشياء والآخر يأخذها.

أما هي فحياتها قصيرة، وتمشي باتجاه واحد بعد أن أقفلت المعابر تجاه الماضي؛ سدته بجذوع شجرة حبها التي قطعتها وحولتها إلى حطب الوقت. ولكن ما أن بدأت بالزهد بالجسد مغدقة عليه سمات التفاهة، حتى برزت لها سخافات أخرى: كيف تمنح "هذا" الماضي المتجسد في هيئة طفل، سمات الحاضر وخواصه. أي الطرق يجب أن تجعله يسلك. إلى الأعلى حيث الله والوحدة والخواء. أو إلى نفق سري يتعلم فيه كيف يواجه ما يظهر على السطح!؟ قررت أن تترك كل شيء لحينه، وتعالج ما يطرأ لما يجيء. فأوات أسراب الظنون وبنت أعشاشها في صدرها. وتوقفت عن الرفيف.

كانت أول أم عازبة في المنطقة والكثيرون يدركون ذلك، ويثنون على حسن تصرفها، لأنها لم تقتل جنينها واستطاعت منحه غطاء يحيا به في مكان متخم بالحميّة والعار.

باغتها بسؤاله مرة: **ليش كل الناس عندن أب وأنا ما عندي؟**

-يا تقبريني، أنت أبوك بطل استشهد بالحرب. تشير له إلى صورة الأستاذ حمود المعلقة على الحائط. مع زيق اسود لميع.

لم يقتنع بالإجابة، ولكنه بدأ يدرك أن شيئاً مختلفا عن الآخرين غير الذي يحمله بين فخذيه.

حاولت بثينة صدَّ كل من يقترب منها. فبعد أن خذلها حسين لم تكن تستطيع أن تتقبل أي رجل من سرمدة. شعرت بالمهانة من انتظارها "البنلوبي" الأخرق. فهي تعرف تماما إنه لن يعود وإن حياتها ستكون محكومة للانتظار الذي حاولت التملص من لزوجته، دون جدوى.

صارت تعرف أن دروب اللذة التي تحرث جسدها، لم تعد تجدي معها ممارسة العادة المفتعلة. وبنفس الوقت تستخسر جسدها بلزوجة الموجودين. وهي بذلك تفتح احتمالات العنوسة على مصاريعها.

يوم شاهدته يلعب بالقرب من الوادي، نادته أن يأتي بسرعة، وبعثته مشوارا إلى الدكان ليحضر لها حاجات للطبخ. اعتاد أن يقوم بهذه المهمة دائما ويحظى ببضعة قروش، ويستعرض سرعته المذهلة بالركض. وإعجاب الكبار به وهو ينجز الطلبية بوقت قياسي.

عاد محمرّ الوجه لاهثا، أخبرته أن يدخل الأغراض للمطبخ، وحلّت له كوبا من شراب الورد. سألته عن المدرسة،رأت في وجهه شيئاً ملائكياً فاتراً حرك شياطينها النائمة؛ أرادت تطويل الحديث فقالت:

- **شو تعلمت اليوم؟** رد بجدية كبيرة: **صرنا عند حرف الغين.**
- **وإنت بتعرف تكتب حرف الغين؟**

رد بفخر صبياني: **بعرف نص الحروف....و إذا بدك بكتبلك إسمك.**

ابتسمت له بفرح، وقبلته على خده بالقرب من فمه؛ شعرت بشفتيه رقيقتين حين لامست فمه بحركة خاطفة. تركت الملامسة لديها قشعريرة غامضة صدح بها جسدها خلسة. ابتعدت متوجسة لكنها جلبت دفتراً وقلماً و أجلسته على الأرض:

- **فرجيني كيف تكتب أسمي وإذا كتبتو صح، راح تاخذ شغلة حلوة.**

راح يستعرض مهارته المدرسية، بدأ يخط حروف اسمها بحرفية: بثين... بعد تفكير أصبحت: بثينت ضحكت وصححت له التاء المربوطة.

أنا كتبت حرف النون ولم نأخذه بعد في الفصل.

ما يشدها إليه البراءة أم الفراغ الذي ينصب عناكبه في زوايا حياتها، تنظر إلى ملائكية وجه انكبابه على دفاتره أصابعه الملوثة بسخام قلم الرصاص، تشعر بحسرة على أخيها المقصوف العمر في عز شبابه. ماذا لو كان هذا الصبي ابنه، هل كانت ستحبه أكثر أم أقل؟ من أين يأتي وعي الدم والرباط المقدس أو المدنس؟

أوقفت التساؤلات المضطربة ورسمت ابتسامة صغيرة أرفقته بجملة هامسة: **حلو كثير حرف النون، راح علمك كيف تكتب باقي الحروف.**

أمسكت يده الصغيرة ورسمت نصف دائرة، ووضعت فوقها نقطة كبيرة ثم اختارت له بضع كلمات خطتها على دفتره.

نون، نار، نساء، نور.. وطلبت منه تكرارها.

وبعد ساعة من العمل الدؤوبَ، كانت قد أنجزت أعمالها، وقبل أن تنتهي من تنشيف يديها، انتابها هاجس شيطاني. فدلقت من مرطبان الدبس في صحن أبيض بضع دفقات، ومسحت ما خرج من الفوهة بسبابتها ولعقته. لذّعها الطعم الحلو، فعادت إليه لتجده منكبا – بكل فرح – على نسخ الكلمات وراء بعضها البعض.

- **خلصتها كلها.** صدح فرحا. كتبت كل الكلمات. راقتها وأحزنتها معا، مشاغله الصغيرة. كان يضج بالبراءة والجمال.
- **بتستاهل أشياء حلوة،** وغطّست إصبعها بصحن الدبس.
- **افتح حلقك.**

وضعت إصبعها في فمه، فأطبقه وبدأ يمص سبابتها مغمضاً عينيه فاندمغت الكلمات مرتبطة بالمذاق بين شفتيه، مدغدغا سبابتها اليمنى، جاعلا الدم يتدفق بسرعة إلى صدرها.. سحبت أصبعها وأعطته ربع ليرة وجعلته يغادر، طاردة الفكرة من رأسها الذي بدأ يفور بخيالات ماجنة.

بعد يومين حمل وظيفته وكتبه وجاءها. دهشت من هذا الصغير المحمر الوجه، يحمل حقيبة أكبر من ظهره، ودفتراً موشوماً بخط أحمر كتبَ على عجل: أحسنت ثابر على اجتهادك. قال لها بثقة لا تخلو من التوسل الهامس: **خالتي، بدي تعلميني باقي الحروف.**

صعقت من جديته المرسومة على وجه ينضح ببراءة آسرة، فأجلسته على الأرض، وجعلته يفرد دفاتره وأقلامه.

– بالمدرسة يعطوكم مرحى، هنا كل حرف تكتبه صح راح أعطيك لحسة.

وختمت جملتها بضحكة رنانة، صارت تخبو بتساؤلات مفاجأة.

ماذا تفعلي؟ هل معقول إنك انتظرته وإنه حين لا يأتي تشعرين بفراغ كبير يملأه هذا الأرنب الصغير؟ هل يمكن أن تصبح زيارته هي المتغير الوحيد في قحل حياتك يا بثينة. هل يمكن أن تلوثي براءته؟ أي خواء يا بثينة أي خواء. بهتت ضحكتها. في غمر مد وجز التساؤلات والرغبات.

بينما انهمك مجمِّلا خَطَّهُ، يُعيد بسرعة ترتيب ما تكتبه على دفتره، مقرباً وجهه من وجهها، ليشمّ رائحتها الفياضة العطرة، ويراقب – ببراءة – تكور ثدييها المتوثبين الرجراجين.

أنهى الواجب، جاءت بصحن الدبس. غطست إصبعها فيه، قربته من فمه، حاول أن يلتقمه، فزاحته بهدوء. تبعها مثل المنوَّم، بينما يدها اليسرى تفكّ أسر ثدييها وتخرجهما للهواء الطلق. وصلت الأصابع إلى ثديها، فتلطّخَ بالدبق العنابي.

وكجرو، يتبع خط الحلاوة وطعم الثدي الذي فطِمَ عنه منذ ثلاث سنوات ونيف، مرر لسانه يرسم بوجهه دائرة كلية التكور، مشبعة بحرف الميم الفريد من نوعه.دهنت الحلمة المتوثبة بعد أن فكت أزرار القميص الخمري.

كُلْ دبسا! قالتها بالفصحى ساخرة من مهمتها التدريسية.

اقترب من الحلمة المتوردة المغموسة بسائل يسيل فوق بياض مشعّ. لحس بشفتيه مدخلاً الحلمة إلى حلقه، مخرجاً إياها. سمع اضطراب صوتها وتهدج أنفاسها. غطست أصبعها في الصحن، ودهنت الحلمة الأخرى، أمسك بهما بالغريزة، وشرع يمصهما متنقلا بينهما. وبطء غريزي مدهش أخذ يتسلق على استلقائها واتكائها على مخدتين.

صارت تغطس أصبعين معا، وترسم دوائر تهبط من ثدييها إلى بطنها.. تبع رائحة العنب المخمّر، وقد استحال كجرو ذئب دائخ، يلعق ويلعق بلا كلل. وهي ترسم على بطنها حروف الأبجدية: الألف المهموزة وهو يردد لاعقا: **ألف مهموزة**.ويلعق بلسانه أبجدية جسدها.

الباء، النقطة من تحت. التاء، نقطتان فوق القوس المفتوح.

كرَّتْ الأبجدية التي حفظها يومها غيباً ولعقاً، وبقي طعم الحروف دبساً في فمه. استقر السائل في السرة! امتلأت به وفاض إلى الأسفل. أنزلت تنورتها الخاكية اللون، تحطمت كل الموانع المواربة وخلعت سروالها الداخلي الأبيض الموشوم بقلوب زرقاء صغيرة، انثال الدبس على العانة، فصار يبحث عن الحلاوة بين الشعر النابت.كانت رائحته مثل رائحة قصل القمح، يفوح منه طعم دبس محروق. انزلق بين فخذيها، قاده الحدس إلى أن بركانا من السكر ينتظره، بدأ بتذوق الشفرين المخضبين بمنقوع العنب الأسمر، شدت على رأسه الصغير، أخرج لسانه، وأدخله عميقاً يستطعم مذاقات باكرة، بينما أنفه يصطدم بعارضة الحوض، أمسكته

من فروة رأسه وحشرته بين فخذيها، شدَّته عميقاً، كان يلتهم طراوة ما بين فخذيها، غارقاً حدّ الثمالة.

كان أنه يود الدخول إليها بوجهه، بأسنانه، بلسانه، بأنفه العالق بين اختلاجات طراوتها، تقوده صعودا وهبوطا بيديها، حتى بلله الماء الدبق الكثير الخارج من بين فخذيها.

وفجأة توقف وأراد الانفجار من الضحك، وهو يراقب التأوهات الحارقة تخرج من فمها. فسألها ببراءة: **خالتي، شو صاير معك؟**

شدت رأسه بين فخذيها، تفرك وجهه غير عابئة بالضحك الذي أضحى خوفا وبكاء خافت على وجهه الملائكي الذي استحال إلى وجه حرذون شاحب ملغمط بالدبس.

مضى العام الدراسي الأول، ولم تنقطع دروس الدبس؛ لكن غريزتها الجامحة بحيازة طفل تلح عليها، ورغباتها بالأمومة تجلد روحها كل لحظة كان تريد طفلا "أكثر مما تريد زوجا، رغبة شائهة تهز جدران رحمها الفارغ.تحثها لإملائه وعاطفة مبهمة تدفعها لمتابعة دروس الدبس.

وسبرت بلحظة تجل خاطفة، شعورها وأسبابه: هل تريد تنتقم من فريدة بتلويث طفلها؟!

لم تستطيع الوصول إلى إجابة شافية، لكنها حسمت أمرها، فأحساسها بالذنب والخيبة أرتفع منسوبه إلى حد جعل من اللذة تمتزج بلزوجة الإثم، فزجرته ثم قادته أمامها بلؤم وأخرجته من بيتها صافقة الباب بحزم تريد إيصاله إلى رغبتها أولا.

بقي واقفا يحمل حقيبته المدرسية على ظهره. ويطرق طرقا متواصلا وهو ينشج متمخطا ويفوح بنهنهة تخرج منها كلمتين يرددهما وهو يشهق: **افتحيلي.. يا خالتي.. افتحيلي... يا خالتي... منشان الله افتحيلي.. يا خالتي.......**

وضعت أصابعها في أذنيها، ورفضت أن تضعف، قاومت رغبتها الملحة بان تفتح الباب وتضمه إليها وتمسح دمعه وتغمره بكل ما تملك وظلت تتعذب حتى غادر. لمحته وهو يمضي بقامته الصغيرة، ورأسه المنكّس على الأرض. ظلَّ يتطلع إلى الخلف، ثم يمشي تدلت حقيبة مدرسية كبيرة على ظهره ينوء بحملها. تعثر بحجر، فشهقت خائفة عليه. وقف فنفض ثيابه. مسح عينيه الدامعتين ومضى. كانت تلك آخر صورة انحفرت ذاكرتها بمنظره؛ وستظل تحفظها طوال العشر سنوات القادمة...

مساء ذلك اليوم، ذهبت لزيارة جمانا الريّاش، وأعطتها موافقتها على الزواج من أخيها سلوم وعادت للمنزل واستحمت بماء حار كاد يحرق جلدها. ولم تبكِ.

جلست بثينة قبل مراسيم الزواج مع سلوم الريّاش، تراقب – بقلب ممسوس بالتهكم – عينيه وهما تغمُصان بعصبية كلما رمش، وتتحرى أصابع يديه الطويلتين الناعمتين المريبتين طوقته بصمت أربكه أكثر مما يجب.

عجزت أسئلته ومحاولته لفتح الحديث معها بموازاة ابتسامتها الساخرة التي لبكته وجعلته في مهب الهشاشة. لكنه حين بدأ يقص عليها حكايته، نجح في إخفاء سخريتها المذلة وجعلها أقرب إلى الإصغاء. كان يريد تبديد مخاوفها، بالأحرى مخاوفه الدفينة. برواية حكاية عائلته الجديرة بالقول.

أراد أن يكون صريحا إلى أقصى حد واضحاً كما يليق بشيوعي سابق تخرج من قسم الرياضيات بدرجة جيد جدا. مثقفاً مترعا بالنظرية المادية للعالم، وبالحتمية التاريخية للتاريخ.

لكن في حديثه نَفَسُ البرجوازي الصغير؛ وللدقة، يحمل سمات الإقطاعي المتنور، مما جعله عرضة لنقد الرفاق دائما.لكنه نجح بجر بثينة

المعطوبة القلب إلى غواية الإصغاء.

لم يكن ليهتم، بكل أراء الآخرين به ولكنه فقط يود أن يخترق الحاجز الذي يفصله عن هذه البنت الشهية الجامحة القوية التي أردت قلبه مصابا بهواجس التمني والرجاء.

جاءته الفرصة ليذهب إلى الخليج، ضاربا عرض الحائط بكل التهم التي صبغوه بها: انتهازي صغير. هارب من المسؤولية، ويساري غير ناضج؛ فقطع علاقته بحلقات التثقيف الشيوعي التنويرية حين أوقف - بنقطة نظام - الرفيق القادم من العاصمة وهو يقول: الأخوان المسلمون، والنظام، شرّان.. علينا أن نعطي الأولوية للتصدي للأخطر، والأخطر الآن، هم الأخوان لأنهم يريدون تحويل سورية إلى إمارة إسلامية، وسوف يفتكون بالطوائف الباطنية مستندين إلى مرجعيات متخشبة، هي: ابن تيمية، وابن الجوزي، وتاريخ طويل من البطش في حركات الفكر الباطنية المتقدمة بأشواط عن الكلاسيكية الطرح الإسلامي المفتقر للنضج.كان تخويفا طائفيا مشمعا بتحليل ماركسي.

لم يعد سلوم يتحمل هذا الهراء، فوضع كفه اليمنى المتخشبة وسط كفه اليسرى المفرودة، وأعلن أنه يريد تسجيل نقطة نظام، ويطالب بحقه في الكلام قائلا: **الرفيق لينين، كان يردد: إن معركتي ليست مع الرأسمالية، بل مع القمل في رؤوس أطفال روسيا.**

أعتقد أن معركتنا ليست مع السلطة، ولا مع النظام، ولا مع أمريكا والرجعية العربية، وليست مع إسرائيل أولا فكل ما نكافحه متصل ببعضه وسينهار حين نستقل من الداخل، لأن معركتنا مع أنفسنا، فقبل وضع الشمّاعات لنعلق عليها الهزائم والتبرير وتصنيف الأخطار، والتنظير للمستقبل، علينا أن نبدأ بذاتنا كأفراد وكحزب أو خلايا لحزب طليعي ونسأل أين نحن الآن؟

إننا نتجاوز الأمية والفقر، ولا نلقي بالا إلى الفرد، إلى الشخص، إلى حق الإنسان وكرامته، إلى الحياة كقيمة حقوقية، وليست الآخرة. نحرض ونحض على المقاومة والاستشهاد. نسمي قتلانا شهداء مستخدمين الفقه الديني الذي نسعى لاجتثاثه أو تحجيمه.

يا رفيق، الردة الدينية مزدهرة، لأن العدالة غائبة. لأن الإنسان كفرد وإحساسه بذاته وقيمته يساوي صفرا في الحياة، ولأنه في ظل تعاسة الأرض تزدهر السماء. في ظل أفكار عقيمة وغريبة وساذجة وغير مستمدة من واقعنا، لا يبقى لنا سوى الشعوذة والجنة والحور العين، أو أن نكون حطبا لمحرقة القادة.

أنا شخصيا، لن أكون قربانا لأحد، من أجل أن أستبدل من يضطهدني ويسلبني حقي في الحياة والتعبير عن نفسي.. حقي بأن لا أكون جمعيا بل فردا خاصا تقدس حريتي الشخصية أولا. حقي بأن أخرج عن قطيع الطائفة، وقطيع الحزب - الذي هو طائفة أخرى وإنْ بلغة أخرى - وقطيع الوطن المستقل المحكوم بمستعمر عيناه أقل زرقة، وقطيع الله ومن يستخدمونه ويلبسون قوانينه ليحكموني ويسلبوني قدرتي على التواصل معه، إن شئت.

يا رفيق: إذا كان لا بد أن نعمل من أجل الوطن والخير والحرية، علينا أن نعمل من أجل الحب والحرية الفردية والكرامة والأهم من كل ذلك الأصولية الدينية والدكتاتورية وجهان لعملة واحدة. بمجرد انهيار الأنظمة العربية ستنهار كذبة الأصولية. ولكن لن يسقط النظام من قبلكم وقبل الأحزاب العربية لأنها مصنوعة من نفس المادة التي صنع منها النظام. النظام سيسقط من مكان لا يتوقعه أحد. حين تتوقفون عن استيراد اللغة الأخرى، وحين يكتشف الناس لغتهم الحقيقية، وحين يكتشفوها سيسبقونكم ويدهشونكم. وستجدون أنفسكم تلهثون خلفهم.

بالأخر أنتم تريدون انقلابا ثوريا، والناس ستبتكر تغيرها حين تجد لغتها التي صادرتموها منها. لأنكم لم تعرفوا يوما كيف تخاطبوا الناس البسطاء.

وبين صخب الرفاق ومحاولتهم مقاطعته، تابع صابا جام ما اعتمر قلبه طوال سنوات من الهذر والهدر من غضب وألم.صائحا بهم: **من عمق كراهيتكم للديكتاتور،أعمتكم الكراهية، صرتم تشبهونه؛ الدكتاتورية لوثتنا جميعا والأهم أبعدتنا عن شعبنا وعن أنفسنا. ولكن جيلا أخر سيصنع الثورة وحتما لن نكون نحن لأننا مخردقين ومستلبين محتقنين بالكراهية لأنفسنا أولا، الناس ستثور على الظلم بعد إن تتيقن من فشلكم وعدم جدواكم.** وقبل أن يطردوه خارجا كان قد غادر مفوتا عليهم الفرصة.

وبدأ يكتب قصائد حب لبثينة، التي صدَّته عدة مرات. ولكن مجرد مقارنته بفتوة حسين، تجده غلام جامعات؛ يتكلم بلغة جديدة على سرمدة، ولا تعرف إن كان حزيناً أم سعيدا. يتعامل مع الناس بافتعال واضح.. كان مشروخا بين فوقيته الثقافية وحقيقته التي ستكتشفها بعد قليل وهو يحكي. ويقص عليها بعضا من نتف حكاية عائلته المشهورة في الجبل كله. يمتزج فيها الواقع بلا معقول، ولكنها بالأخير، واحدة من قصص سرمدة التي جعلت منها بلدة لا تتقن الحديث عن نفسها وتترك لمن أصابه مسّ منها أن يقولها كما يريد، والحقيقة إن حكاية سلوم نجحت باستقطاب انتباه بثينة المتعجرفة فاشاحت وجهها إلى "تل الريح" بعينين مليئتين بالسخرية التي تتقنها، يشوبهما بريق غامض. من خلف التل، كان جبل الشيخ ملتح؛ استمد اسمه من كهولة الثلج الراسخة، والتي تبدو كلحية عجوز ناصعة البياض تومض لها وتجعلها تعود النظر إليه مشجعة إياه أن يروي ويقص كل ما لم يستطيع قوله من قبل.

صوت سلوم المشوب بحزن شفيف، يتردد على سطح بيت آل خطار، وصحن العنب لا يجد من يقترب منه. وكأس المتة لم يرتشف منها غير رشفة واحدة. لأن يديه تتطوحان في الفراغ حين بدأ يتذكر الرواية. ستتذكرها كما تريد هي لا كما رواها سلوم. ولكي نكون عادلين. سأرويها كما سمعتها من الاثنين معا.

– تَحْكي الحكاية: إنَّ "البنيّ" الجد الرابع لسلوم الريّاش، كان مولعا بالصيد. توجّه صباح يوم ثلجيّ كاظما على جرح في ساقه بدأ ينز الصديد، حاملا بارودته، سارجا فرسه، مع زوادة سبعة أيام، وغرّب باتجاه الوعر.

"البنيّ " الذي وصل صيته "اسطنبول"، وكلف الحامية العثمانية أكثر من خمسين انكشاريا، وسنوات من نقصان الهيبة، حتى أقرُّوا له بشكل غير معلن بالرياسة على حدود الوعر الشمالية، وصولا إلى "الهبرية" العظيمة وجعل من سرمدة رمزا للتمرد على الحكم العثماني: لا تدفع أتاوى، ولا يخدم أبناؤها في الجيش الانكشاري.. فتحت مضافته أيام الجائحة للجياع من بلاد الشام، وأصبحت غرف بيته ملجأ للفارين وطالبي اللجوء والإغاثة والمطلوبين لمشانق العصملي من شبه الجزيرة وبلاد الشام كلها. كان رجلاً ضخم القامة، شارباه معقوفان، يقف عليهما الصقر فعلا. صياد ضباع، صديق ذئاب، قصاص أثر، يعرف مفازات اللجاة ودروبها، حافظا أسرار الصخور الكثيفة ومخابئها. لا يطيق المكوث، وما أن يجيء حتى يغادر، ولا يبقى إلا حين يجيئه طالب أمان أو ضيف ضاقت به السبل فيلجأ إلى هذا المارد القليل الكلام، السريع الغضب، القناص الدقيق. ذي العينين المكحلتين، والضفائر المجدولة المتدلية على ظهره وكتفيه لا يترك نخوة أو غزوة أو فزعة، إلا ويلحق بها أنى كانت، ترافقه زمرة من فرسان اللجاة الجوالين المنسرحي الضفائر المكحولي الأعين المصحوبين بالدعاء والزغاريد، أينما حلوا في الجبل ومفازاته وقراه.

كانوا يمثلوا تلك النزعة الخارقة للحرية على طريقة اللجاة.

"البني"، لم يكن طلاَّب إمارة أو عقيد قوم، ثائرا على أي سلطة غريبة تحاول تغير ائتلاف المكان و باحثا عن خيوط قدره. يعلم سلفا أنه أخر ذكر من سلالته، يودُّ حلَّ اللغز أو إعادة تبسيطه وجعله قابلا للفهم، علّه يفكَّ رموزه قبل الحتم المبهم الذي رضع قدومه كأولوية لا تحتمل النقاش قبل أن يُفطمَ في عامه الخامس بعد جفاف أثداء ستٍ من مرضعاته.

باتجاه "مطوخ الزعاتري" في قلب وعر "اللجاة". رد الراعي على سؤال ميثا زوجة "البني" المنقبض قلبها منذ أيام. صحيح اعتيادها أنماط غيابه وحضوره. وتعرف إنه لا مكان يهدئ من روعه بقدر ظهر فرسه الأصيلة "كحيلة" تحمله عبر رقق الوعر ووحشة الصخور وتجب به الحدود البعيدة لتوقه.

فبدأت تعدّ العدة لسنوات البكاء الطويلة. ستبكي البني أربعين عاما، حتى يتحول بؤبؤها من الأسود الداكن إلى الأخضر المزرق.

ما يذكره الراعي: **كنا معا يا عمتي والبني أطلق النار على الطير الحرّ، فعل ما فعله جده قبل سنوات، والطير الحر لا يمكن اصطياده إلا بخديعة، وإذا صدفَ ووقع أسيراً يرفع رأسه إلى أعلى، ويغرز منقاره الجارح وسط قلبه، ثم إنه لا يهرم، فإذا بدأ يشيخ، يحلق عاليا باتجاه تواجد الشمس حتى أقصى ارتفاع ويبدأ بالهبوط الحرًّ منتحرا.**

عرض الراعي معرفته وابتعد في حديثه، مغرقا في تفاصيل لا تعني شيئاً للسيدة الحامل المختفي زوجها في الوعر المليء بالأسرار.

ميثا التي استمعت، وعيناها تفيضان دمعا لحكاية الراعي، توقفت عن النشيج لما قال لها: إنه سمع البني وهو يحدث الطير الحرّ، وإنه مسح جرحه وظل يعتني به طوال ثلاثة أيام، ثم سكب في جرح جناح

الطائر بعضا من البارود وكواه بنصل متوهج ثم أطلقه، فحلّق عاليا بعد أن دار عدّة دورات فوق رأس "البني"، وأسقط له ريشة نتفها من صدره، أمسك بالريشة وانتظر فسقطت واحدة أخرى، فثالثة، وتبعتها الرابعة......

قال الراعي: **سمعته عندها يقول: أعطانا القدر فرصة جديدة، سيكون لدينا ذكور.**

- ماذا قال أيضاً؟ تذكر أي شيء، كيف بدا؟ أين توجه؟

- والله العظيم هذا كلّ ما لدي، طلب مني العودة وبقي هو في الوعر.

طفقت ميثا تفكر فتعود مخاوفها القديمة، البني أخر السلالة الريّاش. جده مر بنفس التجربة ولكنه قتل الطير المحرما من سلالة الحر في وقت التكاثر، فدعا الطير على السلالة بالتهلكة. البني أخر السلالة. هذا ما حكاه العارفون بالأسرار.

لابدّ وأنها إشارة عظيمة من الله. حدثت نفسها

وقطعت وعر الإرباك لمفازات الالتباس، يعتريها خفقان قلب مترع بالفقد. حملت قبصة ملح واتجهت إلى النبع. النبع نفسه الذي تعرفه عزة توفيق. وأخر ما تذكرته هيلا منصور.

رمت الفصوص الفضيّة مرددة أمنيتيها: أن ترزق بطفل ذكر أولا، ثم إياب الغائب المختفي إذا كان ذلك ممكن وهي تهدس بان طاقة الينابيع لا يمكن أن تحقق سوى أمنية واحدة لا غير.

"البني" اختفى، بالأحرى تبع خط أسلاف قدماء. حين يتأكدون من دنو الأجل يخرجون بعيدا إلى البراري ويموتون بلا قبر وهم يقدمون أجسادهم للكواسر والحيونات المفترسة.

جرح البني القديم في فخذه، يتفتق من جديد، و"الغرغرينا" أضحت تلتهم جسده.لم يكن ليتحمل نظرة شفقة من أحد؛ لم يكن ليستطيع أن يموت

تحت أنظار التعاطف المُذل، أو يرمق من قبل إنسان وهو يتألم أو يتآكل. فقد عاش حرا خارج نطاق قوانين الطبيعة، ويريد أن يموت كما عاش.

ميثا كانت حاملاً، وأنجبت شروف، وشروف أنجب قفطان، وقفطان أنجب شاهين، وشاهين تزوج من امرأة تدعى صالحة الكنج؛ جاءته بأربع بنات: فاطمة، سارة، مريم، ورحمة، وبقي أن يأتي الذكر ولكن، دون جدوى. خمسة ذكور خطفهم الموت قبل أن يبلغوا الثالثة لأسباب يمكن أن تعرفها الطيور المقدسة، أو تحدس بأمرها عرافة كناكر، فنصحت المرأة المستسلمة لقدرات الطيور على بتر السلالات، لما جاءتها مستغيثة قائلة: **دخيلك، ساعديني، بدي ولد يعيش.**

– كله بأمر الله، إذا لك قسمة سترزقين.

– ما خليت دواء ولا نذر، ما خليت إمام ولا عارف؛إلا وقصدته.. ولكن دون جدوى الصبي ما عما يجي ما بدنا تنقطع بذرة العائلة.

تأملت وجهها الصبوح وعينيها الزرقاوين، وطفقت تفكر.

وبعد صمت بدا لـ"صالحة الكنج "وكأنه امتد عمرا: **الولد الجاي، ضعي باسمه كلمة الله، وعمديه عماد المسيح وزوريه مقامات ست من أولياء الدروز.**

وسيبقى...

وأضافت بصوت متحشرج، وبخشوع مصطنع: **بإذن الله...**

– الآن انصرفي يا امرأة.

نادتها وهي تهم بالخروج: **يا عبدة الله...**

استدارت وكلها لهفة: **خير إنشاء الله**

–عندما يأتي، لا تدعيه يغيب عن أعينكم ولو للحظة، لحظة واحدة من الشرود، وكل شيء ينتهي، لا ليل ولا نهار، لا خلوة ولا حاجة. لا سر له. يبقى محروسا من الموت باليقظة بلا غفلة أو شرود ولا شائنة.

مصانا بالمراقبة و نقيا طاهرا بدون أدنى زيف، ولا خطيئة واحدة؛ حتى يبلغ الحُلم، فزوجيه.

إياك والنسيان.. والآن اذهبي...

حملت صالحة الكنج نفسها وخرجت، وغبطة سرية تحرك أحشاءها. وقلق مجبول بهواء الخوف تطلقه مع كل زفير.

جاء عزالله مشبّعا بالدعاء، محمولا من مياه المعمودانية في سرمدة، إلى مزارات الدروز.. ربته صالحة "كل شبر بنذر" فعلا. من "شجرة أم الكباش" إلى "عمار بن ياسر"، ومن "عبد مار الجليل" إلى "الشيخ البلخي" المتصوف الكبير، ثم من "عين الزمان" إلى مقام النبي "هابيل" وأزارته مقام "يوحنا المعدان" في "الجامع الأموي"، ومسجد الشيخ الأكبر "محي الدين بن عربي". كل ستة أشهر، تقوم بذبح نذر فتوزعه على المقامات، التي تدخلها حافية القدمين والقلب، متضرعة لكل أولياء الله، أن يحفظ لها ذكرها الوحيد...

وبنفس الوقت، ظل محاطا بعيون مراقبة، مغمورا بالحب الجامح حدَّ الهوس. فأضحى صراعا شرسا بين رغبة الحياة وسلطة الموت قادته "صالحة" لوحدها في البداية؛ ولما كان النعاس يلتهم أجفانها، كانت تكلف كل بنتين من بناتها بورديات المراقبة، لتستيقظ مذعورة بعد غفوة قصيرة. كبر بفرح، وكبر معه أرقها حتى صارت تسمى ذات العمرين، لأنها لا ليلاً تنام، ولا نهارا.

صالحة الكنج، أدركت المغزى من كلام عرافة كناكر الموت يأتي من الغفلة. يتسلل من قلة الاكتراث. إذا بقي الإنسان تحت الأنظار لا يموت. كل حوادث الموت تمت في شرود من الآخرين.. وتحدثت جارتها أم سعيد عن زوجها مؤكدة حصافة العرافة: **طلب شربة ماء، وصلتُ إلى الخابية وعدت، وإذ بصاحب الوديعة قد أخذ وديعته..يا حسرتي، بس**

غفلت عنه لحظة مات ظمآن. الله يرحمك يا أبو سعيد

- اسم الخمس حدود، بتطلّع الروح على السَكِتْ

تدخلت "زليخة الجودي" واضعة حدا لتفاهة الحديث.

مش هذا أبو سعيد يالي نوّحنا عليه يوم موتو...

مات شيخ من البلاد، مات شيخ من الكبار.

مات خيي أبو سعيد وبحفظ زب الحمار.

غرقت النسوة ببحر من الضحك الذي ادمى العيون، وخرجن شاتمات سوقية العجوز المعروفة بسلاطة لسانها.

كانت هذه الأحاديث اللا متناهية تساعدها على التصدي لغول الزمن وتمريره ريثما يكبر ولي عهد العائلة وتكسر لعنة الطير المقدس

وتستمر الثرثرات والزيارات بين نساء سرمدة ورجالها؛ وبيت الريّاش ونظموا أيضا ورديات مراقبة جماعية لمساعدة صالحة على حماية الطفل من غفلة الموت.

ونجحت الخطة، نجا عزالله من براثن النبوءة، وأخرجت رحمة أخته الصغرى من المدرسة وهي في الصف الأول، وقبل أن تكمل فصلها الدراسي الثاني، لتساعد الأخ الجليل كي يبقى على قيد الحياة محاطا بالتمائم السرية واسم الله ومحاطا بالمراقبة والأعين المحمرة المشرعة لمقاومة الموت.

وما أن يدخل عز الله ربيعه السادس عشر سينظر إلى تزويجه من فتون الحمد.

كانت بالخامس عشرة من عمرها قادمة للتو من مدرستها الثانوية، متأبطة حقيبة جلدية زينتها بأزرار ملونة وقطع من الكتف، عاقدة شعرها الفاحم كذيل حصان. لو فردته لوصل إلى مُثنى ركبتيها. وجهها أبيض مشبعٌ بالحمرة وبالبراءة. لسانها حادٌّ سليطٌ يجرح كل من يحاول أن

يقترب من كبريائها. أكثر ما يؤلم فتون هو أن لا تكون الأولى في أي شيء. تقود كتيبة من الأولاد والبنات، لتتحداهم قفزا وجمزا وسباحة. فهي أول من لبست تنورة قصيرة لعند الركبة وكنتزي حفر في سرمدة، والجميع يبرر لهذه البنت.. يجوز لها ما لا يجوز لغيرها.

شو مفكرة حالك فتون بنت جابر!؟

هذا هو جواب الكبار عندما تحاول إحداهنّ عمل شيء خارج عن العرف، أو تضبط بملابس تكشف شيئا من رجليها.

نظرا لعنفوانها الجارف وأيضاً لكونها الحفيدة البكر لأبي جابر حازم الحمد، أحد الثوار الكبار، وصاحب السر العجيب عن النكبة، لأنه حارب مع "عز الدين القسام" في حرب 1936 وكان ملازما في جيش الإنقاذ و سجينا سياسيا طوال حكم الوحدة مع مصر لأنه كشف باكرا أن القومية العربية حلم ساذج لا يعني شيئا في دهاليز الواقع وإن العرب ما يربطهم لا يقنن بوحدة شوهاء.

حازم الحمد أغدق حفيدته بالعاطفة، أو لنقل: هي الوحيدة التي استطاعت ملامسة جراحه، وظلت تحتكم على أحد عشر شريط كاسيت لذكريات هذا الرجل الذي مات عن عمر يزيد عن القرن بتسع سنين. أودعها أسرار النكبة وأوصاها إنَّ السوريين لا يمكن أن يتحدوا مع غيرهم مهما كان هذا الحلم نبيلا.

* * *

قادمة من المدرسة بقدمين مبللتين بعد أن قطعت الوادي الهادر متحديةً نائل بن إسماعيل أجسر أولاد البلد. مختنقة من الغيظ لفشلها أمامه في القفز لأبعد من ثلاثة صخور؛ فلما لم تستطع تحمل تهكمه، شّدته من سترته وخضته، مهددة إياه إذا استمر في تهكمه.فهمّ بالدفاع عن نفسه فصفعته، فرد إليها الصفعة، فأمسكت حجراً مشحوفا فضربته

به فتسربلت ثيابه بالدم، ثم شتمت أخته التي حاولت فكّه من براثن هذه الهبلة المجنونة.

حاولت إخفاء وجهها المشبّع بالبياض المشرَّب بحمرة الصفعة بيديها الملوثتين بالوحل ودماء ابن إسماعيل، وعيناها تحاولان الاستفهام المستتر عمّا يجري داخل الدار الممتلئة بالغرباء. لاقتها خيزران قريبة عزالله بزغرودة، وانهالت عليها التهاني والتبريكات. أخبرت ابنها بعد سنوات عن ذلك اليوم العالق في ذاكرتها.

-شوي شوي صرت أعرف ما يجري. كانوا قد قرروا عرسي، والغريب أني لم اعترض أو أصرخ صحيح أنهم حضَّروا رشوة صمتي سلفا: مشوار إلى الشام، لأكل البوظة من بكداش. ثياب جديدة فيهما تنورتين لفوق الركبي مع كشكش موسلين شفاف على شكل أزهار، وثلاث بلوزات حفر مع علبيتين من الهريسة الحورانية.

لكن لم تكن الرشوة هي التي منعتني من الاعتراض، ولا موافقة جدي حازم، ولا مباركة أبي الصامتة، إنما الرغبة العجيبة في أن أضع خاتما ذهبيّا في يدي قبل كل صبايا البلد. الرغبة لأن أكون الأولى فحسب.

وبعد ستة شهور كان العرس ظلّت تظن أن الزواج مزحة مشاغبة من ألعابها، وستنتهي قريبا، لكن الإغواء باكتشاف عوالم الجسد، والإجابة عن الأسئلة المحرمة، والرعشة المذهلة التي سمعت عنها الكثير من صبايا سرمدة المتزوجات، جعلتها تتورط أكثر بالقبول.

فزفَّت على فرس بيضاء كأميرة. وضعت على رأسها طربوشا مشنشلا بالغوازي والليرات الذهبية، مع أطقم من أثواب العرس مخملية مزينة بالحرير الطبيعي. أثارت غيرة كل صبايا سرمدة.

حضرت العرس طوائف الجبل كلها؛ وكان مزيجا من عادات الإسلام والمسيحية والدروز.

ولما وصلت باب البيت الجديد، تقدم عزالله لإنزال العروس. في هذه اللحظة بالذات، أحست بمدى الورطة التي وقعت فيها، وبأنها لم تكن تمشي إلى قصر الرغبات الغامضة، بل إلى جحر العادات المناقضة لطبيعتها البريّة! اشتاقت لرفيقاتها، لألعابها. رغبت بالرجوع والتخلص من هذا اللغط المتعب. و الهروب من عيون المحتفلين والاحتماء بأقرب حقل للقمح و "تكيّع" الباحثين عنها؛ لكن عز الله وصل لينزلها عندما فنترت يده وقالت له بأعلى صوت لها:

شيل إيدك ولك خرى، بنزل لحالي.

جملة جمدت العريس الشاب ذا السابعة عشر المبتلى بهذه الفتاة المشبعة بالرفض. لفّه الخجل الدفين، وقيّده عن الرجوع والاحتماء عن أعين الناس. حينها صرخت خيزران: **اصفعها على فمها كف و هزّ لها سنانها**

فأجابتها فتون وهي تمسك برسن الحصان وتستعد للانطلاق بعيدا:

وأنت كلي خرى وليه شرموطة!

تلك الشيمتان، كانتا آخر ما تلفظت به من كلام بذيء علني.

عزالله، فشل بالإعدادية للمرة الثالثة، لأنه وجد أن تضاريس جسد فتون، تستحق العناء أكثر من جغرافيا الوطن العربي المقرر في المنهاج وغناءها المشحون بالشذى أسهل من قوافي أشعار العرب في كتاب اللغة العربية.

فرضت صالحة الكنج قوانين صارمة للعائلة الجديدة، أرادت أن تأتي الذرية وتحبل فتون بأسرع وقت، فوضعت جدولا دقيقا لطعام المناسب، وتخضع الكِنة لفحص شهري وتسأل مرارا وتكرار عن مواعيد طمث وتتأكد بنفسها أنهما يفعلانها في أيام الإخصاب. وتنتظر آخر كل شهر أن تتأخر العادة الشهرية دون جدوى.

تجبر عزاله على التهام العسل المخلوط بالزلوع والمكسرات، تطبخ له الوجبات المناسبة للخصوبة، وتُخضع الفتاة المتمردة لانضباط عسكري للأكل والشراب والنوم والغسيل والاستحمام. حتى ضاق الشابين ذرعا وقررا موجهتهما معا، بتحريض من فتون بالطبع.

دخلا إلى غرفتها. وبدأ عزاله يتأتأ ويفأفأ. فنظرت إليه ببرود شلّ يديه،وقالت: **بعد ما تجيبوا الصبي أعملو يالي بدكن ياه. غير هيك ما عندي، يلا انقلع على غرفتك أنت وإياها.**

فانسحبا منكسرين وضما بعضهما يكفكفان خيبتهما وهما يكادان ينفرطان من الضحك.

ثلاث سنوات مرت بالجذب والرد وكسر الإرادات والاحتيال على صرامة قوانين صالحة الكنج التي شعرت إنها أخطأت باختيارها فلم تحب أبدا هذه الفتاة المحتاجة لإعادة تربية والمسكونة بهواجس الطفولة. لكنها بغريزة المراة المجربة صبرت بما يكفي حتى أثمر صبرها ببوادر الحمل، فلانت صالحة قليلا، ورجعت حكاية البنيّ ولعنة الطيور، لتؤرق لياليها. أما إحساس فتون بالأمومة جعلها تتوقف عن مواجهة قوة صالحة المطلقة.

فقبعت في الغرفة القبلية التي أعطوها لها ولعزالله محرومة من استقبال صديقاتها. فقانون المرأة المتجبرة واضحٌ ومؤكد، ويسري على زوجها سليل البني المنزوي بالمضافة فهو أقرب لخيال لا ينتبه له أحد. وما عليه سوى التفرغ لكرم التين والحصاد وحزر نية الغيوم، إن كانت ستهطل هذا العام، أم أنها ستغادر غرباً باتجاه جبل الشيخ.!

فصالحة التي قمعت زوجها الطيب القلب عرفت أنه بدون نظام وأوليات وعمل، لن تبقى العائلة متماسكة، ولهذا مررت صرامة قوانينها على الجميع ولم ترحم ابنتها رحمة التي أخرجت من الصف الأول لترعى الذكر الوحيد. فلما انتهت مهمتها، ونجا عزالله من الموت وجدت نفسها

قد صنفت بدائرة القداسة، ودخلت أول أطوارها عندما رفضت صالحة الكنج الشاب الوحيد الذي تجرأ على طلب يد رحمة: **ماعنا بنات للخطبة،**

وحجة الرفض أن أباه كان عميلا للفرنسيين.وصار كل من يفكر برحمة، يحسب حساب ذاكرة هذه المرأة الجبروت، فهي خبيرة أنساب مدهشة تعرف مثالب سلالات الجبل وحمولته فلم ينجو كل من تجرأ على مصاهرتها من مثلب أو نقيصة أرتكبها أجداده وخزنته ذاكرتها المدهشة.

صحيح أن البنات الثلاث الأخريات قد نجون بأعجوبة من العنوسة، ولكن صالحة أشبعت أزواجهنّ ذلا وقهرا، وهي تكشف لهم مثالب أسلافهم.

وحين وعت صالحة أن الأمر لم يعد يتم بهذه الطريقة، وتساهلت بشروطها التعجيزية. رحمة قد وصلت أعالي وحدتها فقررت أن تنجز مهمتها التي اختيرتها بنفسها فأقسمت: أن ترعى أخاها وعائلته للأبد.

فأعلنت لأمها: **ما بديش أتجوز. بدي ربّي ولاد خيّي.**

فأصبحت خارج ملكوت التصنيف. تحيا بأقل قدر من الأشياء. ترتزق من ماكينة الخياطة "السنجر"، وتوزع الحنان على الحيوانات والدجاج، وتقدم رعايتها للجميع، في طقس أقرب للقداسة.

رحمة لم تتغير. ظلت تستخدم الثياب ذاتها طوال عقود، وتمتهن نفس العادات التي عهدتها بها حتى اليوم، و نفس الروح الطيبة، والأقرب إلى صفات الأولياء الصالحين. لم تغادر محيط سرمدة، وهو لا يزيد عن عشرين كيلو متراً مربعاً سوى مرتين.

مرة لتعمل خادمة في بيروت مثلها مثل العديد من فتيات الجبل أيام الوحدة مع مصر؛ حين داهم البلد الجفاف والجراد والمخابرات.وجعلت حياة الناس ضنكا وقسوة لم يعهدها الجبل في تاريخه.

فوصلت بيروت التي لا تتذكر منها سوى كيف كسرت صحن

القيشاني، تبكيه لساعات وتقول للسيدة البيروتيّة: **كنت أتمنى لو أنكسرت أيدي ياستّي، ولم ينكسر صحنك!** فتصمت الست بهدوء وتغادر. الأمر احتاج لثلاث ثوانٍ لتنهي رعشة الشفقة على دموع رحمة القادمة من الجنوب السوري، مع عشرات البنات دون السابعة عشر من جبل العرب، ليعملن خدّامات في قصور وفلل بيروت، كي يساعدن ذويهم المبتلين بالقحط والجفاف واستخبارات عبد الناصر التي شكّلت الذهنية الوحيدة التي بقيت في سوريا بعد خروجه من ورطة الوحدة.

هؤلاء أنفسهم، هم أحفاد الكرم الموصوف أيام "سفر برلك"، يوم اجتاح الجراد والجيش الانكشاري، فسخط الرب على بلاد الشام. بقي الجبل، مزدهرا يتملقه الأتراك. وظلَّ متمتعا بحرية إيواء المستجيرين من بطش "العثمانيين" والباحثين عن الأمان، فأضحى الجبل مكاناً يثير حفيظة الباب العالي، ويشكّل مركز قلق وإقلاق دائم لا ينفك يدسون الإشاعات، حول ناسه وكفرهم وإلحادهم، مما جعل أعداءه يستفتون الشيوخ المأجورين لإخراج الدروز من الذمة والملة، فيجودَ هؤلاء بتحريم الأكل والشراب مع الدروز كلهم، سعياً وراء حصار المكان بالفتنة، ليتوقف عن إيواء الهاربين والفارين من عدالة "تركيا" المتعفنة، دون جدوى.

وحين ضرب الجوع بلاد الشام. فتحت مضافات الجبل لاستقبال النازحين من لبنان والأردن وفلسطين والحجاز وسوريا كلها. أطعموا وكسوا وتقاسموا ما لديهم مع الغرباء المستجيرين بالجبل فشرعت لهم الأبواب مهما كانت طائفتهم، ليحظوا بالأمان والطعام والطمأنينة. أنقذ الجبل أكثر من خمسين ألف نازح هجّرهم الجوع، وهدهم التعب والتجنيد الانكشاري. لكن ذاكرة المكان تمّ تضييقها أو تحجيمها، ولأن سرمدة كما الجبل، لا يكشف عن نفسه إلا بالملمات، ولا يفاخر ولا يمنن، تمّ نسيان كل ذلك في بعد الاستقلال و مجيء العهد الوطني!

قدم الجبل ألفين ومائتين وواحداً وثلاثين شهيدا؛ الكثير منهم، قتل وهو يدافع عن دمشق وحماة وإدلب وتل كلخ والبقاع وحوران ومرجعيون وراشيا الوادي، بينما سوريا كلها قدمت ألفاً وثمانمائة شهيداً لتحظى باستقلالها. وكل ما فعله قائد عام الثورة بعد الاستقلال وهو ابن الجبل أنه عاد إلى حقله مزارعا، يأكل مما يزرع ويلبس مما ينسج.زاهدا بالحكم والحكومات. فاتحا مضافته على مصراعيها لكل من له حاجة.

كيف يمكن لمن ساهم بصناعة تاريخ بلده بالدم والألم، ألا تجد بعض بناته أيام عبد الناصر سوى الذهاب كخادمات إلى بيروت؟ وحين سؤل سلطان الأطرش يوما عن موقفه من الحكومة الوطنية بعد الاستقلال. أجاب بغصة وبجملة واحدة (سقى الله أيام فرنسا)

رحمة التي هتفت لعبد الناصر عام 1960 لما زار الجبل، مع الجموع على مشارف سرمدة طوال ساعات:

يا جمال ويا رحيم

خوذ رجال

وهات طحين. كانت تتوقع من الزعيم الملهم أن يقترب من الناس الذين أمنوا به وبمشروعه.

ولكن جمال حيّا الجموع، وأخذ الرجال فعلا، ولكن إلى السجون، واستطاع حكمه الفاسد إن يجعل من أبناء الثوار وعزلتهم وفقرهم أن يرسلوا البنات خادمات إلى بيروت، وجلب القحط والعسس، ولم يأتِ الطحين أبد إلا تهريبا.

صالحة التي وافقت على مضض لذهاب رحمة للعمل في قصر لأحد الأقارب الميسورين، لم تنم طوال أسبوع. فحزمت أمرها، ذهبت إلى هناك اقتحمت القصر. وأخرجت رحمة غير عابئة بمن فيه وأعادتها إلى سرمدة. ولأول مرة في حياتها تسمح بإظهار حنانها على الملأ،

فتحضن ابنتها إلى صدرها، وتخرج بضع ليرات ذهبية أخفتها لمثل هذا الأيام السوداء. وتنفق على العائلة إلى أن انتهى الجفاف.

والمرة الثانية التي تركت فيها رحمة سرمدة، يوم غابت عشرين يوماً دون أن يستطيع أحد معرفة وجهتها، لكنها عادت وهي تحمل ابتسامة واثقة وصمتا غامضا حول وجهتها. لم تبح بها يوما.

ما لا يعرفه أحد، هو أنها ذهبت لتعيد إلى آل حمزة أمانة استأمنها عليها أبوها

يوم موقعة المسيفرة الشهيرة، كان حمزة اليوسف وأولاده الخمسة، من حاملي البيارق. استشهدوا جميعهم في المعركة؛ وقبل أن يلفظ مهنا أنفاسه بين يدي صديقه شاهين والد رحمة، أعطاه سُبحةً وخاتماً فضةً فيه فصّ من حجر كريم، وأخبره أن يسلم الأمانة إلى زوجته. شاهين جرح في تلك المعركة، وجلا من الجبل إلى "وادي سرحان" مع مجموعة رفضت كل أشكال العفو، وبقيت هناك طوال عشر سنوات. حتى استلام الحكم الوطني مقاليد السلطة فعاد مع رافقه

بحث طويلا عن زوجة صديقه دون جدوى فلم يجد لها أثرا وظل يحتفظ بالأمانة و يوصي رحمة أنا تؤديها لصاحبتها، وهكذا فعلت دون أن تعلم أحدا. ذهبت إلى المقرن الشرقي. ووجدت مدللة وابنها حمزة الذي سمته على اسم ابيه الشهيد. فأعطتهم الأمانة وعادت.

عشرون يوم من اختفاء رحمة بلبل سرمدة، ونسجت الحكايات الكثيرة حول غيابها، لم يكن لأحدٍ أن يتجرّأ حتى على التفكير بأن لدى رحمة رجل تقابله، فصدعَ غيابُها سرمدة، واشتعلت المخيلة، فامرأة بهذا الحجم من الحضور غير المرئي، يسبب غيابها - إذا لم يكن موتا - اضطرابا في حياة الكائنات المحيطة من بشر وحيوانات وحتى النبات! لكن آخر من رآها يعرف أنها سلكت درب البنيّ القديم واختفت.

حين عادت، امتلأت الدار بالحياة، والعيون بالأسئلة. وانبعثت رائحة الزبل طبابيع الجلّي، و امتلأ معلف البقرة الحمراء، ومربط الحمار بالعشب الطري والقصل الهش. شذبت أغصان شجرة التوت العملاقة المزروعة منذ 1927، مع وضع حجر أساس الدار على يد أبي عبود الذيب البنّاء الأكثر شهرة في المقرن الغربي، ووالد عبود السهيان الذي مات بسكتة قلبية من شدّة الفرح، حين وافقت فريدة على زواجها منه.

أرض الدار، مرصوفة ببقايا حجارة رومانية تعود لألفي عام. بعضها ما زال يحمل نقوش المعابد الأزلية، وصور إله رومانيّ قديم منقوشةً على جرن الكبة. أمام الدار حاكورة، تتوسطها شجرة التوت فتية؛ تربت على أوراقها يرقات دود القزّ في بدايات القرن، قبل أن يحتل الحرير الصناعي الأسواق وتنهار التجارة الجليلة.

كل صباح، تبدأ يومها مع صوت أذان الفجر القادم من "بصر الحرير". تطوي الطرّاحة الرقيقة، تبسمل وتردد شيئا مباركاً، وتنهض لمواصلة أشغالها.. تطلق صغار الخراف، تعلف البقرة، ينطحها الخروف مداعباً، وتصفعه مازحة على وجهه: **"على العيد يا مال الدم ياالله كبّرلنا الليّة"**.

تسرع الخطى توقد محطبة الجلّي: **"غدرني العجين، اسم الله، لقد اختمر"** وتشرع بخبز الأرغفة الشهية في الصباحات الندية.

الغناء والثغاء والحياة تدب، والفجر يطلع، وينضج الخبز.. تتجه إلى البقرة تغسل الضروع، ويبدأ صوت الحليب بالارتطام في الطنجرة، مقترنا بالبركة وباسم الله، ثم تكنسُ أرض الدار، وإطلاق الماشية للرعي، والحديث الدائم مع حيواناتها.. انتظار المطر، جمع الأطفال ليبدؤوا طقوس النداء للمطر. يحملون الأواني الفخارية والطناجر، وتنضم إليهم الأرامل فقط، لأن دعاء الأرملة مسموع أكثر في السماوات العلوية من

دعاء المتزوجات! يدور الجمع على البيوت يرددون:

"يا أم الغيث غيثينا/ بدار الشيخ ضيفينا

لولا فلان ما جينا/ يفتح الباب ويعطينا"

ويتابعوا الأرجوزة:

"يا أم الغيث يا سلمان/ تسقي زرعنا العطشان

يا أم الغيث يا شبلي/ تسقي زرعنا القبلي

يا أم الغيث يا دايم/ تسقي زرعنا النايم"...

وما هي إلا أياماً معدودات حتى يأتي الغيث..!

ينزل المطر فتخرج "الفجيلة والعكوب وعرف الديك و الفطر والحلندوق والخبيزة والهندباء".. ويُضبط إيقاع المكان الزاهد القليل الخضرة الكثير الخير، فلا البشر يجورون على الطبيعة، ولا الطبيعة تبخل عليهم.

رحمة، جزء من هذا النظام الائتلاف والتآلف. من الغريزة الخيرة لروح المكان، فابتساماتها الفذّة كفيلة بجعل كبش يستبعد للذبح؛ يكاد يبتسم لقضاء الطبيعة والطقوس التوراتية القديمة، يوم كان فداء "الابن إبراهيم". تثغو بتسليم فريد وتقترب منها تمسح وجهها، محدقة في عين الحيوان كاشفة تلك العروة الوثقى بين مصيرين متناقضين: عين الشاة ترف بهدوء.. وعين "رحمة" التي تتقن معرفة ماهية الدواخل دون لبس. تدرك بروحها الوارفة سياقات الطبيعة ودوراتها المدهشة؛ المرة الوحيدة التي لم تستطع التحديق في عين الحيوان، كانت يوم سقوط أميرة بعد أن عجز رجال البلد عن إنزالها عن حافة الجرف. لكنها سنّت سكين الذبح وأعطته لرجال وقفت تنتظر بقرتها الأثيرة وهي تهوي لمصرعها.

- عزالله، هو أبي، وأمي هي فتون بنت جابر، وعمتي هي رحمة التي ربتني، وأنا آخر سلالة آل الريّاش..

نظر إلى عينيها بحزن ثم أضاف.

- يا بثينة، أنا بعرف أنو الكثير من هذا الحكي خرافات، ولكن حبيت خبرك فيه قبل ما تتزوج.

كان المساء قد حل على سرمدة. صمت شهي يغمس حضورهما على سطح البيت. نظرت إليه من غلالة الظلمة المشوبة بشعاع الغروب وهو ينوس رويدا. قالت له جملة واحدة: **إيمتا راح نسافر؟**

لم يصدق ما سمعه لشدة فرحه أراد ضمها إلى صدره حملها والطيران بها. فصدته بهدوء

قائلة: **بعد بكير.**

خلال أسبوعين تمت المراسيم في ذلك الصيف من عام 79 وسيسافران في أيلول لأنه يعمل كمدرس معار إلى الإمارات..

أقيمت حفلة صغيرة، حضرها بعض الأهل. أعلنت بثينة رغبتها في ترك مفاتيح البيت عند فريدة، وقالت لها: **إذا مارجعت بعد 15 سنة، بيعيه و تبرعي بالمصاري على روح إخوتي وأمي.** وتركت لها توكيلا، وحجة البيت لتتصرف به.

أرادت المغادرة بلا أي رغبة بالعودة، فمحت كل أثر لها في سرمدة، أو لنقل: كانت بهذا تواري ذاكرتها في أعماقها، بطقوس أقرب للدفن استعدادا للحياة الجديدة.. قبل ليلة السفر، زارتها فريدة على عجل، وقالت لها: **انتبهي من ابن الريّاش، يمكن ما بيجيب ذُرية.**

قالت لفريدة: **إذا لي نصيب، راح يجيني.**

عند الباب، كان بلخير يقف دامع العينين، وقلبه يختبر الحزن الأول الذي لن يُشفى منه أبدا.

مع زواج بثينة السريع من سلوم الريّاش، وسفرها إلى الخليج. وانقطاع دروس الدبس أصابت بلخير الحصبة فأودعته فراش المرض،

وبدأت الحمى تلتهمه والحبيبات الحمراء تغزو جسده. فطر قلب فريدة عليه، وسهرت ثلاث ليال وهي تنقع له المحاليل والأعشاب وتبدل الكمادات الباردة. وتستمع إلى هذيانه عن الدبس وذكر خالته بثينة، بقلب يتقطع وحيرة من لا حيلة لها. فشلت مهاراتها في تركيب الأعشاب المناسبة لطرد الحمى من جسده الغض.

عادت مخاوفها القديمة ترشح من ثقوب ذاكرتها لتكتسح أمانها الهش، ولم يخفف من غلوائه سوى استرداد بلخير لعافيته، ولكن حزنا عميقا يجعل عينيه الجميلتين تفتران عن أسى يفطر قلبها. بات مخذولا وصامتا اختفت ابتسامته الجميلة، وترخى نشاطه المائر بالحياة. وصار ينزوي معظم الأوقات شارد الذهن.

سارت أيامه هادئة وسط التغيرات القادمة على سرمدة المجبولة بالدهشة والخوف من وصول الكهرباء وتزفيت الطرق وتغير معالم المكان.

بقرار من الدولة، بدأت معالم الحياة الجديدة تشق دروبها وسط غابات الصخور البازلتية والرجوم الجرداء، وبدأت الكهرباء تمتد إلى البلدات والقرى. فتغير شيء في هذه البلدة الواقفة على مشارف توقعات جديدة تقتحمها عنوة، تنسحب منها كل الخصال القديمة وتتوارى، وكأن طورا نهائيا من عقاب سلطوي خلخل برية المكان ويدجنه ويسحب منه معالمه الراسخة الثابتة.

بدأ الناس ينتظرون أحداثاً جديدة تطرأ على حياتهم ولا يتوقعونها في خضمّ هذا التغير أو التحول تجاه أنماط الحياة الجديدة التي بدت وكأنها عالمٌ آخر. داهمتهم قوات شرطة الناحية. جمعت السلاح من البيوت، جرت من يضبط معه سلاح غير مرخص، إلى سجن تدمر الرهيب الذي سيصبح وشما أبديا في ذاكرة السورين حول ماهية الرعب الذي أطبق

عليهم وسحق حياتهم.

زرعت السلطة – التي بقيت خارجا – العيون والعسس وأصبح أصحاب الخط الجميل يتبارون بتحبير التقارير بأي شاردة مارقة أو واردة عابرة، يحصونها ويبعثونها لفروع المخابرات المختلفة. فتتكفل تلك بزيارة المكتوب عنهم مع خيوط الفجر، وقيادتهم على سراديب العذاب والرعب.

حتى إن أحد قادة فروع الأمن، حين أنهى خدمته في الجبل منتقلا إلى محافظة ثانية، قال مازحاً في حفل توديع أقامه له أهل الجبل مكرهين:

إن الجبل لا يحتاج إلى مخابرات وفروع آمن.

وحين استفسر أحد الحاضرين عن السبب

قال شامتا: لأنه أصحاب الخطوط الجميلة (هي كناية عن كتبة التقارير وجواسيس السلطة) في كل حي ماشاء الله فلا تحتاج السلطة لتوظيف جواسيس الناس عندكم يقمون بذلك! فضحك وجوه وأعيان الجبل ضحكة صفراء مداراة لرجل الفساد الأول.

شرع شيوخ البلدة يراقبون التغيرات التي أودت بسلطتهم المتهاوية أصلا وأخذوا يحذرون الناس من علامات القيامة واليوم الآخر، وانهمك الشيخ شاهين الذي ورث المشيخة عن شيخ الأبو كعب فاروق، بفك رموز كتب الحكمة فيعلنها، بعد خلوة طويلة:

– نحن في دور الكشف. هو الدور الأخير من دورة الحياة. وساعة القيامة قادمة بلا شك فهي تؤلف ولا تؤلفان يعني لن نبلغ عام ألفين إلا والقيامة قد حصلت. فرد عليه أحد الخبثاء طيب شيخ أنو كتب الحكمة الشريفة، ماشي على التوقيت الميلادي ولا التوقيت الهجري؟

فغادر الشيخ شاهين مدمدما..بكلمات مبهمة وسط سخرية ثلة من الشباب التقدميين.

أهل سرمدة شعروا أنهم لم يعودوا أسياد حياتهم، وأن زمنا قادما سيغير كل شيء، وعليهم قبوله، والتخلي عن ثلاثمائة سنة من الاستقلالية والفروسية وأنماط الحياة البرية. فهم بارعون بمقارعة عدو واضح المعالم غريب يدخل مدار حياتهم أما سلطة بهذا الخفاء فلن يتحرك لهم ساكن.

بلخير مع صديقه الوحيد فياض يراقبون ما يحدث بدهشة لا تصدق. يسمعون صوتاً راعدا.

بارود اهربوا.. جملة ستتردد طوال الخريف.يصيح بها العمال، بعد تفخيخ الصخور البازلتية العملاقة بالديناميت يتبعها انفجار يهز النوافذ.

يتبعها انتصاب أعمدة الكهرباء باتساق على جانب أول الطريق أسفلتي شقَّ بين بيوت البلدة، ويربطها بـ بطريق الرئيسي للجبل وخارجه.

بهدير وضوضاء أجفل الحمير والأغنام، تقدمت آلة ضخمة تطحن حجارة الطريق وتضغط الأسفلت فتسوّيه.. خرجت سرمدة عن بكرة أبيها، لتراقب هذا الوحش الحديدي العملاق يملّس الأرض.

حين سأل فياض:ما اسم هذه الآلة العجيبة؟ رد أحد العمال متباهيا: **إنها المدحلة.**

بعد أسبوعين ستتعرض المدحلة لحادث غريب. شلعت منها الكثير من البراغي وكل ما هو قابل للخلع، وبقيت هيكلا حديديا ضخما جاثما وسط سرمدة، وسيظل هناك طوال عشرين عاما، ريثما تقرر السلطات إخراج هذه الخردة وإعادتها للصيانة.

أنهى بلخير عامه الدراسي الأول بشق النفس، مشحوطا للصف الثاني، ومدموغا بالخبل والشرود، فبعد أن توقعت له المعلمة ابتسام مستقبلا زاهرا - كما كانت تخط على دفتره - ارتكست الرؤية، وصار التلميذ الأكثر كسلا. الفراغ كبير، بل الهوة سحيقة تلك التي خلفها سفر أستاذة الدبس جعلته يفقد حماسه القديم للمدرسة، وهو الذي أدهش

الآنسة والتلاميذ بقدرته الفذة على القراءة وكتابة الأحرف وابتكار الكلمات الأكبر من عمره. فقدَ كل شغفه فجأة فترك معلمته في حيرة مؤقتة: كيف لهذا الطفل الذي قارب العبقرية بسرعة التعلم والحفظ وإجراء الحسابات، أن ينسى كل ذلك دون سابق إنذار! لامت نفسها على تسرعها بالحكم والإعجاب بتفوقه، ثم عالجت انحداره في الدراسة بالطريقة السورية التقليدية فأرجعته إلى المقعد الأخير، بجوار أكثر تلميذ عديم للجدوى مر على مدرسة سرمدة منذ إنشائها يدعى فياض الهادي. حيث يجلس الاثنان متجاورين غير عابئين بكتاب القراءة وشخصياته المثيرة للملل.كـ "باسم ورباب وحامد الفلاح النشيط"، وبكل الصفقات الطلائعية والصيحات المهيبة لتمجيد الأب القائد والبعث العملاق، والتهاجم على كامب ديفيد وعمالة العرب، وإلى آخر الهراء المحشو في أدمغة الأطفال الهشة.

لاحقا تعلموا كيف يشتموا النظام العراقي وقائده الدموي، من دون أن تفهم عقولهم الصغيرة، كيف لبلد شقيق مثل العراق، يردد نفس الشعارات، ويحكمه نفس البعث، أن يكون أسوأ حتى من إسرائيل، كما قالت المعلمة بحزم بارد.

طبعا فياض و بلخير لم يعبآ بكل هذا الهراء ولا يكادان يحركان شفاههما أو يخطان وظيفة، فكانا مشغولين بأمور أكثر أهمية بالنسبة لهما من الغناء والصيحات الثورية ودروس القراءة والمحفوظات السمجة.

فبلخير مبتلى بالفقد الحارق، وفياض بالأحلام الطائرة لمغادرة سرمدة إلى بيروت؛ مدينة حلمه واشتهائه. بأسرع ما يمكن.

فياض الهادي، أخرجته أصوات العمال وهم يحذرون من التفجيرات:

باردو أهربوا!

من خيالاته الجامحة، ووجد في صديقه بلخير العزاء الوحيد. بلخير

الذي يعاني المرارة من هول الحب الذي تغمره به سرمدة. كان يلقى الود والتسامح من كل الرجال ومعظم النساء في سرمدة، يغدقون عليه الهدايا والرعاية، يعاملونه بحب مبالغ فيه حدّ الدبق. أما فياض فعلى عكسه تماما. يلاقي الجحود والإنكار والنهر والزجر من الجميع. فوجدا الحب اللزج والكراهية المعتمة تجعل بينهما ألفة خاصة.

شعرا أن قاسماً مشتركاً غامضاً يجمع مصيرهما، فترافقا طوال أيام الطفولة الكابية، رافضين أن يصادقا أي أحد آخر، إلا من باب الرفقة والمشاركة في المغامرات، منتظرين بفارغ الصبر أن تجلب فريدة ما وعدت به بلخير: "تلفزيون" سيرونكس بالأبيض والأسود، وجاء اليوم الموعود. وقفت شاحنة كبيرة وأنزلت منها ثلاث آلات عجيبة.

ظل بلخير يومين وهو يسأل أمه: **هذا هو البراد؟ لا يا حبيبي، هذه هي الغسالة. طيب هذا هو التلفزيون؟ لا يا تقبرني، هذا هو البراد...**

حتى جاء سعيد الحداد، الذي تحول أيضا إلى كهربجي، وأوصل الكهرباء إلى بيت فريدة.

في تلك الليلة لذات خميس ساحر في ربيع عام 1980، انتصب "الأنتين" فوق الحوش.. شاهد بلخير وبرفقته صديقه – بعد أن ذهبت أمه للمجلس من أجل صلاة الخميس – على قناة "إسرائيل الناطقة بالعربية" الفيلم المصري: عشاق تحت العشرين، لينتهي الفيلم، وتبدأ قصة حب من طرف واحد بين فياض والممثلة يسرى!؟ ومن يومها ستقتحم يسرى حياته كعاصفة يتحول إلى مهووس بها، مغيرا وجه حلمه، من بيروت إلى القاهرة! سيجمع كل صورها وكل أخبارها من المجلات والجرائد، ويحضر أفلامها، يتابع حركاتها وسكناتها، وكل همسة تهمسها. كان يغمض عينيه، ولا يتحمل أي مشهد تغرق فيه بقبلة مع أحد الممثلين الآخرين.

حتى اقتربا من الصف السادس، فياض أكبر من عمره، دخل المدرسة متأخرا سنة ورسب في الصف الأول، وفي الثاني حين التقى بلخير، وقرّر الأستاذ زيدون مدير المدرسة إنجاحه شاتما فكرة التعليم الإلزامي المليئة بالغباء، فلم يعد يرسبه، حتى يستطيع التخلص من هذه البهيمة كما كان يلقبه.

وبالطبع المدرسة بالنسبة إليه مكانٍ للنوم أو للقاء بلخير. يعيش مع جدته شبه الضريرة و يعمل أحيانا مع سعيد الحداد الكهربجي لاحقاً، في محله؛ خطف له الضوء المشع من لَحام الحديد نصف بصره فصار "يعشوش بالليل". في أوقات الفراغ القليلة،لا ينفكان عن ابتكار وسائل إزعاج سرمدة. ودائما تم التغاضي عن بلخير ويصبون جام غضبهم على فياض!.

يقومان بنزهات يومية. يمشيان في الوعر. يحلمان بالهروب معا من هنا؛ بلخير إلى دمشق حيث حلمه المشتهى، وفياض إلى القاهرة حيث حبيبته يُسرى! في هذا المكان البائس تعمقت صداقتهما ورغبتهما بالانتقام من مدير المدرسة الصارم وعقوباته. كانا آنذاك، على مشارف البلوغ..

الأستاذ زيدون، واحد ممن تشبعوا بالبعث وأتخموا به. رزق بطفل لديه "متلازمة داون"، والثاني يعاني نقصاً في النمو العقلي؛ لهذا حّول المدرسة إلى نظام عسكري لا يعرف الرأفة! يسبب الرعب لأطفال الابتدائية جميعهم.. دس بينهم مخبرين يأتونه بأخبارهم، حتى في العطل الصيفية. منع عنهم السباحة في "المطخ" الغربي أو الشرقي، وابتكر عقوبات لا تخطر على بال لمن يحصل على علامة 7 أو أقل!؟

فالكسالى من الطلاب، يقفون رتلا أمام مكتبه وهم ممن تقاعسوا عن حل الوظائف، أولم يوفقوا بالامتحانات. ويدمغ خدودهم الطرية بقلم أزرق فلوماستر بعبارة: أنا تنبل!

ويقوم التنابلة - بدلاً من اللعب في الفرص - بالسخرة وتنظيف المراحيض، وتشكيل قطار يثير الضحك، فيدورون حول الملعب طوال دروس الرياضة أو الفسحات؛ على رأسهم بالطبع فياض الهادي.. يصيح بصوت جهوري: **قطار التنابل**، يجرّ و يسحب الباقين وراءه ممسكين بخصور بعضهم بعضاً وهم يرددون: **تشك تشك تشك...**

الأستاذ زيدون، يدير الفرقة الحزبية والمدرسة الصفراء - كما يسمونها للونها الكالح - بروح قتالية خالية من الرحمة، صابا جام غضبه على القدر الذي منحه تدريس قرود لا أطفال، وتحولت نقمته إلى "اليونسيف" نفسها لأنه منظمة تعنى بالأطفال فيشتمها كل صباح هي وكل ما يخص الطفولة.

يعنّف الطلاب بلا شفقة. يلهب أياديهم بالضرب، ولا يتردد برفعهم بالفلقة أو صفعهم وتخبيصهم تحت قدميه، بخاصة في دروس الطلائع، حيث يتعلمون الانضباط الصارم، والمشي المنظم. وتحشى بعقولهم الصغيرة بذور الانتماء للحزب الرائد والأب القائد والويل لمن لا يتقن الحركات العسكرية، أو لا يعرف ترديد الصيحات الطلائعية التي تمجد البعث الشامخ.

مع الزمن اعتاد الصديقان على أن يكونا تنبلين، ولم تعد تزعجهما تلك الكلمة المرقّوشة على وجهيهما!

وقابلا سخرية الأهالي، بالسخرية المضاعفة وعدم الخجل، لا بل وزادا عليها بمزيد من الوقاحة الشريرة، فكانا يحفران القبور ويخرجان الجماجم منها بعدما اكتشفا أنه يمكن تسويقها عن طريق "جودت" طالب كلية الطب البائس، فيشتري منهما الجمجمة بعشرين ليرة ليبيعها في دمشق بخمسين. وصارا من نكاشي القبور القديمة.. سارقي أسلاك الكهرباء وتحويلها إلى كرّجات وسيارات للعب، ويبيعونها للأطفال الآخرين. أو

يعملون مراقبين لمنقبي الكنوز الضائعة في الوديان والرّجم والوعر.

تعلما فنون تنصيب الفخاخ للطيور، وصنع المقلاع والنقافات، وسرقة الدجاج من الأخمام؛ بارعين في لعب الدحل والغلل وتطبيع الجحاش صغار الحمير على البيادر. وجمع الفطر، وصناعة طائرات الورق.

ويوم عاقبهما الأستاذ زيدون وزميله أبو أربع عيون، كما يلقبون الأستاذ المنبوذ خليل الشيوعي الصارم ثقيل الظل المرتدي نظارة سميكة، ودائم التأفف من كل شيء، ولا يكف عن تعبيرهم بعدم جدواهم، وتفاهتهم، وهو المثقف الكبير الممنوع من تدريس أكثر من مرحلة ابتدائية، بقرار من السلطات الأمنية لتحجيم تأثير المعلمين المنتمين إلى أحزاب معارضة.

يوم عاقباهما، اجتمع حقد الرجلين - كل له أسبابه - لصبّ جام غضبه على بلخير وفياض، لأنهما أثارا رعب البلدة بعد أن طلسا نفسيهما بالسخام الأسود، وارتديا فروتيّ غنم، ومشيا شبه عاريين، يطرقان الأبواب ويطلقان صرخات ترعب الساكنين. ولم يتوانيا عن إرعاب الأستاذين بعد منتصف الليل، لينهيا ليلتهما المجنونة بكتابة شعارات سخرية على قوس النصر الحديدي في مدخل سرمدة. فبجانب عبارة "أمة عربية واحدة.. ذات رسالة خالدة" تسلق فياض وكتب: **زيدون وأبو أربع عيون، بيتتاكو بكيلو ليمون.**

ثم رقشوا العبارة في كل مكان على حيطان المدرسة. بجانب الموقف العام. جدران الفرقة الحزبية، وعلى جانبي جسر الخشخاش.

استيقظت البلدة على هذه العبارة التي أصبحت تتردد بين الجميع بسخرية مبطنة، محيين في سرهم من قام بكتابتها، فأهل سرمدة ضاقوا ذرعا من زيدون الذي يتدخل في كل شاردة وواردة؛ صحيح أنه شجّر

البلدة، وقدم بعض الخدمات، ونظم وصول باصات النقل إلى المدينة، ولكنه فرض البعث فرضا على البلدة المسالمة؛ جبا الاشتراكات المالية وألزم الجميع بحضور الاجتماعات يوم الاثنين، وكان يردد دائما: **البعث فوق الجميع.لا احد يعتقد إنه أكبر من البعث. البعث فوق الله نفسوا.**

ونظراً لعلاقاته المخابراتية المتشعبة، ودفع "البراطيل" والرشاوى للقيادة، وإقامة الولائم الدورية لأمانة الحزب وعناصر الأمن السياسي في الجبل، والتقارير الأمنية الدقيقة عن وضع البلدة فأوقف كل المحاولات للإطاحة به.

أما خليل الشيوعي، فظل معزولا عن الناس بعد أن أصابه العقم وفشله بتلقيح رحم زوجته التي فضلت الطلاق ليس بسبب عدم قدرته على الإنجاب، بل لمزاجيته المقيتة وتأففه من كل شيء فانعزل لا يشارك أحد في عيد أو مناسبة. ووصل به الأمر ان تعالى أيضا عن الشباب الشيوعيين يعاملهم بفوقية لتغطية عقد النقص والاخصاء التي تعتمل في ذاته فأصبح حقودا لا يتسامح ولا ينسى أو يغفر أية هفوة مهما صغرت، فهو نقم على رفيق شيوعي لأن الأخير مرّ بقربه شاردا ولم يرد عليه السلام.

منجزه الوحيد إنه نشر كتابا نقديا عن الصراع الطبقي بين الإقطاع والفلاحين، وبضع أشعار مملة، لكنها متخمة بالالتزام بالقضايا الكبرى، وتتبع منهج الواقعية الاشتراكية المستنسخة من أدباء موسكو والمعسكر الاشتراكي. أطنب عليه الشيوعيون المشاركين في السلطة والجبهة التقدمية كعادتهم، فهم قبلوا أن يتحولوا أذنابا للحزب الحاكم مقابل بضعة منابر الثقافية متاحة في البلد كمناصب في وزارة الثقافة، أخذوا ذلك كرشوة من النظام لامتصاص حماستهم الثورية والتغيرية،

واكتفوا بامتيازات اتحاد الكتاب الأقرب لزريبة مثقفين يثغون فيه

بشعارات المقاومة والتصدي للامبريالية، والعدو الصهيوني الغاشم. ويبجلون القيادة التي وقفت بصف الممانعة وحركات التحرر، وفرضت على البلد أشرس نظام كاذب زائف وقامع عرفه تاريخ منطقة.

وحولوا الثقافة السورية إلى لون واحد وشكل واحد، وخصوصا بعد موت أو سجن أو نفي الشيوعيين الرافضين هذا التدجين البخس. بقي حفنة منهم – من أنصار الأستاذ خليل – تعلي من تريد، وترمي من لا يعرف كيف ينضم إلى جوقتهم أو حفلاتهم، فيوارونه بإجحاف.

وكانت حراشف الثقافة اليسارية بحاجة إلى أحد من الجبل ليضفوا على أنفسهم سمة اللاطائفية والوطنية الهجينة، فوجدوا في الأستاذ خليل ضالتهم، ونصبوه كـ"نيرودا" سوريا.

أما أهل سرمدة، فقد سعدوا بالشعارات المناهضة لأكثر شخصيتين كريهتين في البلدة.وكالعادة، خففت العقوبة عن بلخير، واكتفوا بزجره وتوبيخه، مع ست عصي بحرف المسطرة على اليد. ورُفع فياض على دولاب، ونكّل به كمجرم حرب، حتى تورمت قدماه بفلقة لا تنسى.

بالطبع لم تردعهما العقوبة، فقط أصبحا أكثر حذرا. دارت أيامهما تلك حول موضوع واحد شغلهما بالعمق كيف يمكن لهما اجتياز الاختبار الأصعب، و ترك ألعاب الأطفال والانضمام إلى عصابة فتيان سرمدة.

قبل أن يغامرا، ويذهبا إلى معقل الفتيان الأكبر سنا؛ أرادا تأدية طقوس الانتقال من الطفولة إلى الشباب التي تتم في "المطخ" الغربي، حيث تتجمع بقايا مياه الوادي في حفرة صخرية فتحفظ تلك الحفرة الماء طوال الصيف، فيكون المكان الأمثل للسباحة واجتماع الأولاد. فياض وبلخير، المتشوقان إلى الانضمام لعصابة البلدة، كان عليهما أن يقوما بالاستعراض أمام جمع من الأولاد الأكبر سنا؛ حينها، تردد فياض في القيام بالاستحلاب العلني لمائه الأبيض ليثبت للجميع أنه أصبح رجلا،

وتراجع ببساطة، لأن الفرصة لا تمنح مرتين، وإن أي فشل سيكون صاحبه عرضة للمضايقات التي لا تنتهي. بلخير، تضامن مع صديقه ورفض الاستعراض كاظما غيضه من هول التعليقات الجارحة التي أمطرها عليهما رامز أبو قتة. ولكنه سمح لهما بمراقبة عملية انضام ثلاثة آخرين جاؤوا إلى "المطخ":

يصطف الأولاد المستعدين للبلوغ، ويقدموا العرض أمام الجميع.. خلعوا سراويلهم، وجلسوا نسقا واحداً أمام مكان تجمع المياه الآسنة وبدؤوا يداعبون أعضائهم الصغيرة، في حين جلس عطا، "العكروت" الحكواتي، يعيد على مسامعهم حكايته مع النوريات، مرددا نفس الحكاية بإضافته الدائمة، مستحضرا روائح القرباط، واستلال اللذة من النخاع. الولوج في فرج طري رطب. إيلاجه المحموم في المؤخرة، وصياح النورية من اللذة. إلى آخر التفاصيل المختلقة، فيزيد عليها؛ كل مرة يمزجها بصور يشاهدها في القناة "الإسرائيلية" التي ما تنفك تبث أفلاماً مليئة بـ: "الأيروتيك". بالأحرى أفلام سخيفة لا يقتطع منها المشاهد الساخنة.

كانت الحكاية تزداد تشويقا، بينما القبضات تمسك بالأعضاء الموتورة، وتزداد اهتزازا ورهزاً. فيتوه الأولاد في خيالهم الخاص، ينعضون ويكتمون صرخات اللذة وسط تشجيع الأولاد الأكبر سنا، لينهوا المهمة ويدخلوا عالما رحبا يتوقون إليه.

يقف عطا مهنئا الأولاد، ليقدم لهم الطقس النهائي، قاطعا نباتاً أخضر اللون ذا أزهار صفراء يدعى الحُلَيِّب جاعلا كل ولد ينقط من النسغ الأصفر القلوي عدة نقاط حارقة على عضوه، وهي كفيلة بتكبير أعضائهم الصغيرة، بالأحرى بتورمها، وجعلهم يقاسون أياما من الآلام المبرحة بعيون محتقنة بالبكاء، وابتسامة كبرياء كاذبة.

حاول بلخير تشجيع فياض للقيام بالمهمة، فهو بدون إثبات قدرته على القذف العلني لسائله المنوي، لن ينضم أبدا للعالم الآخر،أو يحظى بزيارة بيوت الدعارة في دمشق مع المجموعة، والاستماع إلى قصص الكبار المحملة بالإثارة، وتعلم سياقة دراجة عطا النارية بأسعار زهيدة، ومشاركتهم الغزوات للظفر بالنوريات وسيبقى ذلك الفتى المحروم من المشاركة في جل ما يحدث في الجانب الآخر غير المنظور من سرمدة.

لكن فياض كان مذعورا، وقال لبلخير: **ما حصل مع عصام ابن ممدوح الدكنجي يرعبني، فقد فشل تماما في الاختبار، مما جعله عرضة للتحرش ومعاملته كفتاة بين جموع من الأولاد.**

كان محقا تماما فرغباتهم الحارقة، تهتك المواشي وتنتظر أمثال عصام لتخترقه؛ فما كان منه إلا أن ارتدى قلنسوة وشروالاً، وصار شيخا لا يبرح المِجلس، منهيا حياته الدنيوية حاميا مؤخرته، فلا أحد يستطيع الاقتراب من شيخ صغير محروس بروح القدس، والحدود الخمسة، والباري جل وعلا.

صار فياض يقوم بقياس عضوه في خلوته محدقا في صور ممثلته يسرى، فهذا العضو الصغير هو المفتاح للانتقال إلى العالم الأكبر

حتى جاء الحل من بلخير، حين عرف صدفة، إن إثبات الجدارة يتم أيضا عند الأطرم حارس الشجرة.

- هل أرافقك؟ قال بلخير

-لا، سأذهب وحدي وسأخبرك بما يحصل لاحقا. أصرّ فياض.

من بعيد تبدو سرمدة وكأنها تقلع ثيابها بعد يوم صيفي حارق، متأهبة تنتظر من جديد صباحا آخر. كاميراتي تلتقط الصور العريضة،

وتمر بلقطة واسعة على الفضاء المسكون بالغواية والفضول.نعم عشت هنا وكأني لست من هنا. البلدة النائمة تمنح حلمها ليقظتي ويقظتي تنتقي من الحلم ما يتوافق مع ذاكرتي لتشكل فضاء جديدا. كنت أتساءل هل سترى عزَّة توفيق ما أراه. هل ستستمع إلى ما يحدث خلف هذا الصمت أو في قاعه. كنت أريد فعلا أن أتحدث معها. وأسألها للمرة الأخيرة. هل أنت فعلا هيلا منصور؟

لكي تعرف نفسك جيدا. قف أمام المرأة عاريا وأرتدي ملابسك على مهل وغادر. الانطباع الأخير هو الانطباع النهائي. فلا يوجد شيء بالأعماق. كل شيء يتم نقله دائما إلى السطح وتحويله إلى مفردات جديدة. عليك فقط ان تعرف كيف تجمعها معا. تتعلم كتابتها. من قال إن علينا استغلال الزمن، ينتمي إلى ماكينة العمل في حياتنا المعاصرة؟ من يستغل الزمن هو بالحقيقة يستغل الأخريين. هنا في سرمدة اكتشفت إنه لا قيمة للزمن. بل القيمة للمكان.

فمعرفة المكان المناسب تلك مهمتنا الأثيرة أما الأزمنة فلا شأن لنا بها.

هل أصابتني عدوى النهايات والخلاصات؟ ليس بعد. فسمعان الأخرس هو من يروي فبالصمت فقط تتم الرواية. لذلك سأسكت الآن.

الشجرة معمرة، تنتصب في وعر مفتوح على سكون مطبق. أكتشف فيها سمعان الأطرم وسيلة مجيدة لإثبات الرجولة، فأصبحت محجا للخصوبة يأتيها الناس من أصقاع البلاد ليقطفوا من أوراقها، فينقعوها مع الحلندوق وإكليل الجبل والروباص ويشربونه فيزدادون خصوبة.

أسلم فياض أمره للشجرة المباركة، التي يقول عنها: إنها لم تكن سوى امرأة عظيمة الغلمة، شديدة الشبق والفسق. لم تكن تشبع أبدا، حتى

أنها نامت مع فرقة كاملة من "جيش "الأنباط" دون أن ترمش. عاشت هنا قبل ألف ومائتي عام. فهي امرأة "عشتارية" بأثداء وضّاءة، وعجيزة شهية. خطفها واحد من "الجان"، ولكن ملكه أعجب بها وتزوجها، وبعد حين طردوها لفسقها الشديد وخصوبتها العظيمة، فقد أفسدت العالم السفلي تماما.. فعادت لعالم الإنس بمهبل تفوح منه رائحة مسك تدوخ الكائنات. ظلت ممسوسة بالرغبة حتى قتلت ببلطة رجل مخصي فتحولت إلى شجرة بطم غريبة. اكتشف قدرتها سمعان الأطرم. أحاطها بسياج من أشجار السرو. وبدأ يعمل قوادا لها ربما كان قواد الأشجارالوحيد في العالم كله؛ فشقوقها اللدنة وصمغها الحار المتدفق من جذعها العملاق، أصبحت هدفا لأولاد البلدة. واحترازا لتخرشات غير متوقعة، اشترى رطلا من الفازلين النتن، الكريه الرائحة، حشا به الشقوق الملائمة. نسجت عنه نميمة إطلاقها شيوخ البلدة: إنه بعد أن قوّد على الشجرة وأفسد بها مراهقي البلد، ابتلي بالصمم والخرس. كل ذلك يبدو غير مهما لفياض واصفا لصديقه التجربة بمرح وافتخار: - **دفعت لحارس شجرة البطم سمعان الأطرم ثلاثة أرباع، جمعتها فرنكات أنزلت البنطلون، أخرجت عضوي واختبرت أحد الشقوق بأصبعي، وجدته رطبا لزجا، فأولجته فيها بحذر، وأغمضت عيني. شعرت إن للشجرة فمٌ يمتص انتصابي، حضنتها وكأنها «حبيبة قلبي» يسرى، وسمعتها تتحدث لي بلهجة المصرية.**

وإذ بي أنفجر داخل الشجرة. يراقبني الحارس الأطرم إلى أن انتهيت. جاء تفقد أن مائي انسكب في الشجرة، ورفع أبهامه كعلامة نجاحي بأداء المهمة.

ضحك بلخير وأضاف: **ما زال الأطرم رفع أبهامه لك، فكل سرمدة ستعتبرك رجلا من اليوم.**

وللتأكيد جلب فياض الأطرم معه إلى «المطخ". تجمع الأولاد

لمعرفة النتيجة، بإشارات وبضع حركات بالرأس واليدين، ثم إعطاء علامة "الأوكي" لفياض بإبهاميه معا. فهم الجميع إن فياضاً دخل عالمهم. وهنا نبز رأس صفوان الأهتل من بين الجموع قائلا: **وأنت يا بلخير، شو وضعك ولا بعد بكير عليك؟**

دون أن يجيب، وأمام جموع الواقفين، أنزل سرواله و شلح كيلوته الداخلي، وأظهر لهم عضوين ذكريين، كل واحد يزيد عن قبضة ونصف. جعل بضعة أولاد يهرولون هربا من هذا المنظر المرعب، والباقون انزلقت أحنكاهم وهم يراقبون "بلخير" يداعب أحدهما بسرعة فائقة وينتج ماءه من العضو الأول، ليمسك الثاني ويكمل طقس الاستحلاب العلني أمام هياج وأهازيج الأولاد الذين أقروا له فورا بالزعامة، وتقلوه إلى مركز القيادة رغم صغر سنة، وسنوات عمره التي لم تتجاوز الاثنتي عشرة.

* * *

رحلة مدرسة سرمدة غيرت حياتهما معا وللأبد. فقد أقرّ الأستاذ زيدون رحلة مدرسية إلى معمل الأحذية الشهير في المدينة، ومنه إلى أعلى الجبل لرؤية طلعة المرج العجائبية، حيث تتجه السوائل - إذا سكبتها على الطريق - من تحت إلى فوق، وإذا ما أوقفت سيارة أو "باص" في أسفل الطريق النازل، وتم حل الغيار وتحرير المكابح، سيتحرك الباص ولكن إلى الأعلى. تجربة مثيرة شغلت الجبل وزواره؛ وكالعادة، بدأت التأويلات الخرافية بابتداع كل الحكايات اللامنطقية حول هذه الظاهرة العجيبة.

وبالطبع لم يستمع أحد إلى عالم الجيولوجيا، وهو يحاول شرح الخدعة البصرية للحالة، وأنها ببساطة، خطأ إدراكي يؤدي- بسبب طبيعة التضاريس- إلى خديعة بصرية. بل استمرت التأويلات، و لسرمدة القدرة والسبق على تحويل حدث من هذا النوع إلى احتفالية خيالية، تتردد بين

الطلاب وهم يستعدون إلى الرحلة.

خط الرحلة يمر من طلعة عين المرج إلى سد الروم الذي أنجزته الثورة "المباركة"، ثم يمرون على حرش "كوم الحصى" حيث الغداء، وبعدها يتابعون المسير للتعرف على معمل تقطير العنب وصناعة العرق والنبيذ ومنه إلى معمل الأحذية،تم الاتفاق مع الشوفير صهيب ليكون باصه "السكانيا" الكبير، هو باص الرحلة.

ما لم يعرفه بلخير وفياض، هو أن مؤامرة تمت حياكتها من المدير، فتغير موعد الانطلاق من السابعة صباحا إلى السادسة ونصف، كي لا يتسنى لهما الالتحاق بها. وللدقة، كان فياض هو المقصود، فالمدير لا يريد لهذا الغبي، أن يتواجد في رحلتهم فيخرب مزاجها بسوء سلوكه وبغلتته.

قبل موعد الرحلة بنصف ساعة، أعطى المدير أوامره "لعُرَفاء الطلائع" وسائق الحافلة، بأن لا يسمحوا لهذا الكسول الأزعر بالصعود مهما كلف الأمر. المدير يريد أن يبدو الموضوع وكأنه من اختيار الطلاب.

- **أنتم، هل تريدون فياضاً بالرحلة؟**

- **كلا أستاذ.** ردد أحد الطلاب، ممن ذاقوا صفعة سابقة من الولد الأرعن.

تبعه آخرون، بحمى القطيع وبتشجيع من ابتسامة المدير التي يروها كل بضع أشهر مرة. تم حشد الجميع ضد "فياض" وشعروا بالزهو والفرح، مع المفاجأة بالطبع من هذا المدير القاسي الفظ، يتواطأ معهم ويتملق شجاعتهم ويعدهم برحلة لا تنسى بشرط أن تكون خالية من الولد المشاغب.

- **ولا يهمك أستاذ، وما بيطلع بالباص والسما زرقاء.**

المدير بخبثه رد: **الموضوع راجع لكم أنتم، قرروا: تريدونه في**

رحلتكم أم لا، أنا ما عندي مشكلة.

استمعوا بتحفز طيّر نعاس الصباح من أعينهم، ووزعوا المهمات فيما بينهم، وبعضهم تسلّح بعصا المدير نفسه. قام اثنين منهم بتعلق على السلم الخلفي ليمنعا أية محاولة من التشبث في رحلتهم المنتظرة، أمّا الأكبر حجما والأقوى رفسا، فوقفوا عند الباب لمنعه من الدخول إلى الحافلة مهما كلف الأمر.

من بعيد، بينما الباص يستعد إلى الانطلاق كان بلخير وفياض يطلان مسرعين من جانب "المدحلة" الخربة الجاثمة في ساحة البلدة، ركضا بكل عزمهما، فوصل بلخير أولا إلى الباب، فأمسك به الطلاب المكلفين بالحراسة ونتروه إلى الداخل، ومدّ فياض يده عله يحظى بالمساعدة نفسها، فانهوت على رأسه عصا المدير لم يفهم لماذا، فتراجع محاولا التشبث بالسلم الخلفي، فتلقفته الرفسات والركلات فأربكت حركته وتعثرت خطواته فسقط متدحرجا بين أشواك جانب الإسفلت الذي بدا كأفعى سوداء ابتلعت الحافلة في جوفها، ولم يعد يرى منها شيئا سوى بقايا دخان أسود بدأ يتبدد رويدا رويدا.. وسط صمت مخترق بهبات البكاء الجارح يتقطع في صباح له طنين، وقف مطلقا دموعه في هذا الفراغ الهش. استجداهم بصراخ مشروخ دون جدوى؛ فسرعة الحافلة، وهستيرية فرحهم بتواطؤ مديرهم، جعلتهم يتحولون إلى أطفال قساة يقفزون كالقرود. يطلون برؤوسهم من الشبابيك، مطلقين أصابعهم وأياديهم في حركات وإشارات وقحة، مع كيل من الشتائم للراكض الباكي وراءهم. حاول بلخير الاحتجاج، فعاجلته قبضة قوية على وجهه أدمت أنفه. أراد النزول وطلب من صهيب الشوفير التوقف دون جدوى. بدأ بشتم الطلاب، وحاول المرور بينهم إلى الباب، ليقفز منه ويعود لصديقه.. منعوه بالقوة، وبطحوه أرضا، وثبتوه حتى ابتعد الباص، غير

عابثين بشتائمه وتوعداته؛ بينما المدير ينشغل بمحادثة الآنسة كاميليا معددا إنجازاته الخارقة في فرض النظام على الطلاب والبلدة معا، كانت الآنسة الجديدة تحاول رسم ابتسامة مواربة وتفكر كيف نسيت على الكومدينا علبة المحارم النسائية؟ وتضبط تقلصات معدتها المصاحبة لدورتها الشهرية التي باغتتها في غير موعدها هذا الصباح.

لم يجد أمامه سوى العلم المرفوع فوق المدرسة لينتقم منه ويمزقه. الغضب أعطب عقله.

فما إن عاد لاهثا من لحاقه الخاسر للحافلة، حتى جلس إلى جوار حائط المدرسة الفارغة مكفكفا دموعا حرقت قصل قلبه، لاعنا الساعة التي ولد فيها في بلدة الخراء هذه. رأى علم المدرسة هو المتحرك الوحيد أمامه بهدوء، فتسلق السطح وأطاح بالسارية، وأمسك بالعلم وبدأ يمزقه شرّ تمزيق.

العلم الذي استمر طوال ثماني سنوات يحيّيه كل صباح، ويقدسه ويعتبر تعظيم السلام له واجبا لا يقبل النقاش في الصباحات الباردة أو المتجمدة، مع آلام البطن أو الاحتقان في الأنف؛ كان يشعر دائما بمحبة خاصة لهذه القطعة من القماش.الهروب من تحيَّتِه شيء لا يتخيله عقل، وخيانة لا تغتفر، ومثله مثل الشعار الطلائعي الذي يحفظه غيبا، ولا يفهم كلمة من معناه.

فالعريف الذي يقف أمام الطلاب، يردد بصوت خارق ماحق للفضاء المنضبط، ويطلب من الأطفال أن يتعهدوا لبناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد والدفاع عنه، فعندها يرفع فياض يده اليمنى متعهدا بما طلب منه؛ يشعر بالفخر أن صوته الأجش هو أقوى الأصوات. كان تمزيقه لأحب شيء في المدرسة على قلبه، انتقاما من كل تلك السنوات القارسة، ونهاية طفولته التي تأخرت كثيرا لتنتهي.

داخل الباص، رقص الطلاب لنجاحهم بالمهمة، وبدت أصواتهم المتعالية وصخبهم تزعج المدير المشغول بالمعلمة الجديدة. فوقف لينهر الجميع ويسترد هيبته وسطوته التي تراخت في الصباح، فعادوا إلى المقاعد، وبقي صوت بلخير الذي يجلجل ويشتم، غير عابئ بسلطة المدير. ونهض فألحق لكمة بمن لكمه، وأخرى لمن رماه أرضا. ورفس من كممه ومنعه من الحركة على خصيتيه.

فاستشاط المدير زيدون غضبا، وفقد السيطرة على لسانه فشتم بلخير الهائج شتيمة ستبدو له مثل مفترق طريق لحياته القادمة:

أجلس يا ابن الستين زلمي. يا ابن الحرام، ولاك أنت مش معروف مين أبوك. عما تتمرجل وتهدد. أجلس أحسن لك! صمت لزج تبعه تعالي الضحكات والسخرية، فقد صعقتهم كلمات المدير التي لم يتوقعوا أبدا سماعه يتفوه بمثلها.

فيفحّ الهرج والمرج، ويثور بلخير يحتقن بالغضب ويرمي نفسه على السائق، ويريد احتلال المقود منه وخلخلته. فيتوقف الباص ويقوم المدير برمي بلخير منه ركلا! ويتابع مع الباص رحلته العلمية الشائقة.

تعفر بلخير بالتراب. ومضى الباص مطلقا زمورا حادا.. عاد مخذولا، وكانت سرمدة تبتعد عنه بضعة كيلو مترات. شعر أنها مسافة شاسعة لن يصلها أبدا. ودَّ لو أن هناك مكاناً آخر غير هذه البلدة التعسة يمكن له أن يلوذ بها للأبد. اجتاحته أسراب الهواجس تزعق في فراغ رأسه. يقطعها صوت قاطرة عسكرية تحمل دبابة معطوبة أو سيارة "زيل عسكرية" مخلعة الأطراف. تلبد الجو بالضجيج ودخان أسود يتنشقه ويزفره بسرعة. بينما ذاكرته تجمع كل الهمس والغمز واللمز القديم المخزون فيها، ليعيد عقله تشكيلها معا مكتشفا حقيقة دامغة، فهو بالفعل بلا أب. وإنه ابن حرام. وإن أمه ليست إلا شرموطة معروفة في الجبل كله. الكل يعرف ما عداه،

وما ذلك الحب واللطف الذي يحظى به من أهل سرمدة، إلا لأنّ كل فرد من سرمدة كان يظن أنه يمكن أن يكون قريبا له.

فبينما يقوم فياض بتمزق علم المدرسة، كان بلخير يخزق الغشاوة التي لفت عينيه؛ وبدأ عالمه بالانهيار.

وصل الحوش بعد ساعتين من المشي المخذول. كانت فريدة مستغربة قدومه، صرفت المريضة التي جاءتها طالبة علاجا للغازات وانتفاخ القولون، ومسحت يديها بخرقة بيضاء، وبدأ قلبها يخفق باضطراب جعل يديها ترتجفان، وسكنها القلق الحامض المذاق من هيئته المعفرة ووجهه المحتقن بسموم الحقائق العارية.

وقف أمامها محدقا في عينيها، شادا قبضته سائلا إياها السؤال الذي لم ولن تعرف إجابته أبدا: **أنا ابن مين؟**

- **خير يا حبيبي، خير شو في؟** ردت وكادت تنهار مرعوبة من السؤال الجازم.. لقد عرف أخيرا. لم تكن متهيئة لذلك الآن. ظنت أنه مازال الوقت مبكرا لتبدأ بدفع ضريبة قديمة.

- **مين؟ خبريني مين هو؟**

- **شو باك يا تقبرني.. خبرني!**

قاطعها جازما: **جاوبيني، عم إسألك جاوبيني.. مين هوي بيي؟**

تبلكمت من حزمه. جالت بعينيها على بيوت سرمدة. مر شريط الذكريات مثل دبابيس واخزة. أرادت أن تصفعه، أو تضمه، فلم تجد سوى أن تمسك المكنسة وتسكب بعض الماء وتبدأ بشطف البرندا وهي لا تتمالك دموع عينيها من الانهمار.

ظل واقفاً وقد كبر عشر سنوات دفعة واحدة. بدأ المكان يصمت، واختفت الأصوات البعيدة أولا، وتبعها حفيف الأشجار، وسكنت حركة البلدة، ولم يعد يسمع صوت ارتطام المكنسة على الأرض. ولم يبق غير

طنين بدا له أن لونه أصفر. صوت ملون بالاصفرار أطبق عليه، فدخل غرفته، وأقفل الباب.

في صباح اليوم التالي، كان الطنين الأصفر مازال يكسوه، فلم يسمع هدير سيارات الأمن التي اقتادت فياض بعد وشاية المدير زيدون، وخوفه من أن يكون موضوع تمزيق العلم أكبر من حادث فردي؛ كما دافع عن نفسه عندما لامه بعض الناس على نذالته.

دخل العناصر المسلحون ببنادق الكلاشنكوف والمرتدون تلك القمصان المقلمة ذات النقشات الفاقعة؛ اقتحموا غرفته واقتادوه – كمجرم حرب – إلى فرع التحقيق.

وبعد تسعة أسابيع، عاد إلى البلدة. وجد بلخير قد استرد سمعه، ولكنه لم يعد يميز اللون الأصفر ببصره بل يسمعه فقط.

زاره في بيت جدته. جلسا متقابلين، بينما العجوز شبه الضريرة، تبكي من الفرحة، وهي تهب لتحضر له بعض الطعام. بدا فياض وقد انكسر للأبد. لا يمكن إصلاح أو ترميم روحه. لم يجد بلخير أياً من كلمات العزاء، لا لصديقه ولا لنفسه. فتركه مع خيباته دون أي كلمة، ولم يستغرب أبداً حين غادر فياض بعد عدة أيام. لم يسمع عنه أحد أي خبر، ولم تصل منه رسالة طوال عشرين عاماً.. حتى عام 2006.

فالشرق الأوسط الجديد المبشر بولادته قد ولد ممسوخا. الموت المجاني يقدم وجبات يومية في العراق، والديمقراطية العربية الوحيدة الممسوخة في لبنان تثير السخرية. ومن قتل الحريري؟ هو السؤال الذي سيضاف إلى التاريخ كأحد الأسئلة المفتوحة دون إجابة منذ أيام قميص الخليفة عثمان.

وحرب تموز وضعت الجميع في مأزق. فلا المنتصر منتصراً ولا الخاسر خاسراً. ولكن سرمدة بالذات، رأت على شاشات التلفزيون فياضاً

الهادي، وهو يعود من لبنان بعد الحرب، وصل إلى الحدود ومنها إلى بلدته. جاء من ذاكرة منسية شاحبة. ذاكرة جماعية استعادت ملامحه فجأة، فأضحى حديث الساعة، عندما بدأ الجميع يتذكر اسمه، ويترحم على جدته التي ماتت وحيدة بعزلة باردة. نظموا له استقبالا حاشدا مرفقا بالأهازيج والزغاريد والاحتفال والشعر المنبري الرفيع، كما يصير عادة أصبح الجميع يتكلمون عنه وكأنه واحد من أصدقائهم المقربين. مدح المدير الذي أضحى رئيسا لبلدية البلدة، خصاله البطولية وتفانيه في خدمة قريته منذ نعومة أظفاره، مستذكرا اجتهاده وحماسه وهو يفخر شخصيا – أي المدير – بأنه نال شرف تدريسه دروس العز والوطنية.

في الحقيقة، لم يستمع فياض إلى كل ذلك، فقد كان منزويا في صندوق خشبي ملفوفا بالعلم السوري راقداً داخل تابوت أنيق. عاد بعد عملية التبادل الشهيرة للأسرى ورفات الشهداء بين حزب الله وإسرائيل. عاد إلى لبنان ثم إلى سرمدة بعد كل تلك السنوات. ويطلقون اسمه اليوم على المدرسة الابتدائية التي تعلم فيها بلوحة كبيرة مدرسة الشهيد فياض الهادي. وفوقها يرفرف العلم نفسه.

* * *

رحيل فياض إلى لبنان، والصمت الذي عاقب به أمه، ومقاطعته لسرمدة وأهلها، لم يعد أمام بلخير سوى نزهات في الوعر، وكتب الأستاذ حمود يلوذ بها. نكشها من العلية؛ حوالي السبعين كتابا. مطبوعة في الستينيات، بألوانها الكالحة وورقها المشبع برائحة العث. بعضها، ما تزال صفحاته ملتصقة، مما يعني أنها لم تقرأ سابقاً. نفض عنها الغبار ووجد بها العزاء. أول ما فتح شهيته للقراءة، كانت رواية: "لمن تُقرع الأجراس – لهمنغواي". على الصفحة الأولى وجد تلك العبارة المكتوبة بخط واضح جميل: من كتب حمود العايد. شعر بأنه يريد محو اسم الأستاذ،

أبيه الافتراضي، ويكتب اسمه فارتعش، لأن كنيته لن تكون العايد أبدا.

التهم السبعين كتابا في أقل من ثلاثة أشهر، وآثر أن يسجل للمرحلة الإعدادية في بلدة مجاورة، ولم يشأ أن يدرس في مدرسة سرمدة. لم يعد يستطيع أن يتعاطى مع أي من أهلها، فذهب إلى "إعدادية المنطار" المجاورة؛ يقطع كل يوم ثمانية كيلومترات ماشياً في دروب الوعر، متمتعا باستعادة أحداث الروايات، ومتأملا هذه الغابات الصخرية وأشكالها المذهلة.

في مدرسته الجديدة، ظلّ صامتا بحزم، سريع الغضب، حين حاول بضعة مراهقين امتحان صلابته فأمال أنف أحدهم إلى الجهة الآخرة بلكمة قاسية. من بعدها صار الجميع يتجنبه.

غرق في مكتبة المدرسة بلا أي صديق سوى بضعة أولاد يتبادل معهم الكتب، ومنهم صبي طويل القامة، أقرب للبلاهة، ولدى والده مكتبة ضخمة جمع فيها كتب للزينة! حاولوا الاعتداء على هذا الصبي الطويل، فتدخل بلخير مرتين لحمايته من أولاد أكبر منه سنا.

بدا لبلخير، أنه نوع من الوفاء والشكر من صديقه فارس الخطيب، حين زوّده الأخير بدواوين المتنبي وأبي العلاء وأبي النواس.. حفظ منها عشرات القصائد غيبا وبسلاسة. ولكن في الحقيقة، كان فارس قد رأى حيوانيّ بلخير متدليين من بين فخذيه في مرحاض المدرسة، فوجد فيه شيئاً خاصاً أثار فضوله وميوله أيضا، فأغدق على بلخير بالكتب بعد أن عرف أنها المفتاح الوحيد لبناء علاقة معه؛ وتقرب منه وطلب منه زيارته ليختار بنفسه من المكتبة الضخمة ما يريد.

لبى بلخير الدعوة، ولم يكن أحد بالبيت الكبير، فأخذ بلخير ينتقي من الكتب الكثيرة التي جمعها والد فارس، الضابط الكبير في الجيش، تكملة لبرستيج محدثي النعمة. فكلما أعجب بكتاب، يمسكه فارس

ويضعه في حقيبة كبيرة حتى امتلأت بالكتب. شعر بعدها بلخير بالخجل من هذا الكرم الفائق. جلسا ليحتسيا كوبين من الشاي أعدهما فارس، في غرفته. لم يستسغ بلخير المكان، فصديقه بدا مائعا مقتربا منه أكثر من اللازم. وضع موسيقى "المونامور" في كاسيت المسجلة وحاول أن يمد يده إلى ما بين فخذي بلخير الذي انتفض بحنق، أراد فارس استبقائه، فصفعه صفعة أناخته على الأرض، وخرج شاتما صافقا الباب خلفه، يحمل بعض الحسرة على الحقيبة المليئة بالكتب.

إلى جانب التهامه للكتب، صار يقوم برحلاته الطويلة وسط الوعر؛ يقضي ساعات وساعات متأملا الصخور البازلتية العملاقة وغابات الوعر، متتبعا تاريخ زمن ليس ببعيد، حين أجهز أهل المكان على جيوش "إبراهيم باشا" المصري، وضاعت فيه فرق من "الإنكشاري" وكتائب من المرتزقة الفرنسيين دون أثر.

وعر فسيح موحش أضحى المكان الأكثر ألفة لديه واعتاد مع الزمن أن يجهز مخيما صغيرا، وحقيبة فيها أدوات الأستاذ حمود، ويسلك دروبا صغيرا. يتأمل وينضج وسط وحشية المكان وبربرية الوعر ويستمد منها وجومه وصلابته وتمنحه سلاماً وصفاءً يفتقده.

صارت رحلاته تمتد لأيام، يقضيها شاردا مستأنسا بأحافير الصخور والكتل الناتئة والحجارة الجاثمة بمهابة. لا يشعر بانقضاء الوقت يخيم ويوقد نارا بجوار الينابيع المتدفقة، أو تخوم حظائر الأحراش؟ الممتدة على أطراف الجبل، تتطوق تشكيلات الصخور العملاقة المنتشرة على أطراف سرمدة.

توالت رحلاته إلى قلب اللجاة، يجلس بين الخرائب الغريبة لساعات طويلة مستمتعا بالصمت، متأملا روح البازلت وأشكاله، وغرائب تجلياته وصوره. في فضاء مفتوح بنور خال من الغبش، وشمس وضاءة، وهواء

مشبع بالنقاء وروائح الصخور.

فصارت وحشية الوعر جزءاً أليفاً من عالم تأملاته، وبدأ يسجل أولى شذرات مكثفة، على دفتر خاص، سمّاها: تحولات البازلت والشعاع. ثمل بالبهجة وهو يدون حياة الصخور وأشكالها. علاقتها مع المطر والشمس. ألوانها، كيف تتغير بتغير ساعات الظل والضوء، وأنفاسها وهي تلتقم الإضاءة وتزدرد العشب، وتجمع بعد زخة من مطر أحواضا صغيرة تؤمها عصافير عابرة، أو زيزان وحشرات مقيمة بدت له هذه العوالم أقرب إلى الكمال؛ مفتوحة تحت سماء شديدة الزرقة نهارا، نقية باذخة بجلاء النجوم المرشوقة كنمش على جسد السماء في الليل.

كتب في دفتره عن الصخرة الحبلى بحَصيّات صغيرة، ورسم بكلمات كيف تشرب الأرض من فم القمر حليب سوائل النجوم. كتبَ عن نزق حصاة ظلت جاثمة بجوار أحفورة ماء مائتين وتسعين عاما، وهي تتحمل سلح العصافير العطشى. دوّن هسيس الصمت بجمل مشبعة بنتوءات وجه مجدور لحجر غاضب.أرشف أرق الحجارة وهسيس الثبات، ودون اختمار الطمي ورقص الفالس لصخرة مكرشة، وخط روائح المكان موثقا تلك الأنسام المغموسة بنترات الرسوخ في قصيدة أسمها قواميس الريح والخدوش.

كان يشع فرحا وهو يكتشف لغة البازلت ورائحته؛ يتماهى معها ويحولها إلى كلمات جديدة تنض طاقة وألقا. قادته الرغبة الهائلة بالاكتشاف إلى تلك البقعة الساحرة من الجبل، فعزم على التخييم في "الهبارية".

وصل الهبرية مساء. وجد بالقرب من الخرائب، رجلاً ملتحيا معتكفاً للعبادة، فاستصلح فناء بقطر عشرة أمتار، وبناه من بقايا الصخور الغريبة، ويملك معزاة وبضع دجاجات. استقبله الشيخ بهدوء ودعاه للمبيت. شرح

بلخير له أنه سمع الكثير عن "الهبارية" ويريد معرفة حقيقتها. هل المكان، هو بقايا "سدوم و عموريا"، أم أنه أرض مأهولة، بوغتت بالبركان قبل خمسة آلاف عام؟

قال الشيخ: لا هذا ولا ذاك، إن هذه المنطقة صنعت قبورها من بقايا الجثث. أعتقد أن سكان المنطقة قد جمعوا مئات الجثث من كل المنطقة، وشووها مع الصخر، بدرجة حرارة بين الستمائة درجة إلى الألف، فخلطت العظام بالصخور، وهي كما ترى. ولا أحد يعرف لماذا.. هل هي قرابين للمكان، أم أنها طقوس بدائية تخص أوثانا قديمة.

نظر بلخير حوله، كانت عدة صخور كبيرة، تبرز منها بقايا أشكال لِمفصل أو حنك أو فك بأسنان واضحة المعالم. قطع من عظام وتراب قاني اللون، مع كلس وصخور ترسبت فيها بقايا فقرات وجماجم. المنظر لم يعهده من قبل، وهو الذي حفظ - عن ظهر قلب - أشكال الصخور وأنواع البازلت في اللجاة. ولكن هنا سبع كيلومترات كاملة من الصخور والأحجار والحصى. كلها مجبولة بعظام البشر والحيوانات وبقايا أشجار تفحمت وبُرِّدت واختزنت أشكالاً لا يمكن تفسيرها. ثَمِل بالمنظر. فراح يقفز كالمجنون وهو يرى ويحدق وينكش ويشاهد ويدون ويجمع ما تقع عليه يداه من أحجار صغيرة وفلزات تمنحه فرحا لا نهائيا. وحين ابتلاع الظلام المكان، أوقد الشيخ نارا وتسامرا طوال الليل. قرأ بلخير على الشيخ أشعارا "لأبي النواس" و "أبي العلاء"، وبعضا من رباعيته التي نظمها في تجليات الحجر. وأسمعه الشيخ قصائد "للحلاج والسهروردي ومحي الدين ابن عربي"، قبل طلوع الفجر. استيقظ بخدر، وصعد إلى تلة مرتفعة قليلا، وتطل على المحرقة أو حوض الصخور العظمية. كان الندى يبلل طبقة الطحالب التي نمت على الصخور، وحين بدأت أشعة الشمس بالشروق، تحول المشهد إلى معزوفة من الألوان المدهشة.. صخور

مغسولة بقطرات ماء انسكبت عليها بدايات خيوط الفجر. اضطرب قلب الفتى المسكون بهيولة النبذ، وشعر – لأول مرة في حياته – بتلك الرعشة السرية التي يحتويها روح المكان.

حدق بالصخور مليّاً، فكانت تحمل ملامح الناس؛ وجوههم، بعضها حاد مؤكّد، والأخرى ملتبسة ومنطوية. بعضها شاهق وراسخ، وأخرى متوارية بلا شكل أو هوية. بدت وكأنها طرية متحولة متناغمة،ومع التماع قطرات الندى وتلاصفها تحت حمام النور المسكوب من شمس طازجة، كان المكان الفقير قد أصبح دغلا يعج بالألوان وأصوات الحشرات. وعبقت رائحة عمرها آلاف السنين، ومازالت مختزنة هنا في هذا المكان البكر والموحش. شعر أن للأمكنة أيضا وسائلها للدفاع عن نفسها، مثلها مثل الكائنات البدائية، وأنه إذا أتقن الإنصات والرؤية جيدا، فسيحرر الجغرافيا من الجمود. "فما المكانُ إلا زمانٌ متجمدٌ، وما الزمان إلا مكانٌ سائلٌ" تلك الجدلية التي صفعت روحه، وجعلته يرى ما لم يصدقه أحد. فهم للحظة أن قدر من يحتك بهذه البقعة من العالم، أن يغدو شبيها لها؛ يكتنز عواطفه خلف غشاء صخري كميت لا يبوح بها إلا في صباحات كهذه.

وفهم للمرة الأولى وللأبد، أن ما يربط الناس هنا، ليست عاطفة الطائفة والعشيرة، بل روح الصخور، والاحاسيس العذراء المخزونة في باطن الوعور وأسرار البازلت. شعر بتجلي أرواح من أحرقت جثثهم؛ سمع همهمات أصواتهم، خبب تراكضهم. تلامحت أمام عينيه أحلام بشر أدوا أدوارهم وعادوا إلى مستقرهم.

الطبيعة الحقة لا يمكن أن تكون نباتات هشة وغابات ورمال، بل صخور وفلذات اتحدت في توافق مدهش لتنسيق العبث، فبدون صلابة لا تبنى، لا الأرواح ولا المدن. وغالبا ما تتشكل روح المدينة من نوع

الصخور التي تأثثت بها، تبنى العلاقات من نوع "الفيلز" الذي يتدرع البشر به احتماءً وتماهياً مع الطبيعة.

حين ارتفعت الشمس في كبد الجهة الشرقية، صفعت الحرارة الندى فتبخّر؛ لم يجادل عقله وهو يوحي إليه أن يعود إلى سرمدة، دون أن يفكر حتى بالشيخ: هل كان موجودا أم تراءى له نتيجة لهلوساته.

فوجد مستظلا من الهجير المستعر. وغفا وهو يرى تاريخ المكان يكر في منامه كرا سلسا ليهتدي حين استيقظ إلى نتيجة مفادها. أننا نمشي للوراء. ونعود إلى النطفة الأولى للكون رجوعا. وما فكرة المستقبل إلا تاريخ قديم تم انجازه.

فكرة ستنخر به للأبد وتقوده في عوالم لم يطأها أحد من قبل.

فريدة التي اعتادت صمته طوال السنوات الأربع الماضية، وفشلت كل محاولاتها لجعله يكلمها، فأسلمت كالعادة أمرها للزمن ليقرر لها ما يشاء. وهي تقترب من الخمسينيات، وجهها يزدهي بنصاعة وبلا أثر لتجاعيد كثيرة حول العينين، أو لوزن زائد؛ بقيت قامة مشرئبة، لها حضور تفوح منه روائح الأنوثة القديمة المذهلة. انكبت أكثر على العمل لتحسين أوضاعها، وظلت تضع مصروف بلخير بين طيات كتبه. تترك له طعامه في المطبخ. تدخل أحيانا، وفي ليالٍ كثيرة، لتتأمل وجهه الوسيم، ومعالم لحية فاتحة اللون بدأت ترتسم على وجهه الحنطي المائل للبياض والأقرب للاستدارة، وتتمنى لو تحدق في لون عينيه الأخضر الداكن.

تساءلت مرة: من يمكن أن يكون أباه؟ أتعبت روحها المسألة، فالذاكرة لم تحضر لها الوجوه القديمة للمراهقين فقط، بل مزيجاً من عنفوان رغبة خطيرة ظنت أنها نسيت طعمها، فحاصرتها من جديد؛ فلم تجد سوى أن تداعب نفسها مطلقة رعشة ممزوجة بمرارة الإثم، جعلتها تتعهد ثانية – ليس للرب بل لصورة بلخير المعلقة في غرفتها – أن لا

تقترب من عتبات اللذة مرة أخرى.

وهنا وضعت خرقة سميكة في فمها وأحمت محماس القهوة حتى تجمر، وكوت به تلك القطعة المشرئبة من بين شفريها، فأغمي عليها من الألم. حدث هذا في السنة الأولى من بداية القطيعة وبعدها اعتادت صمته وتأقلمت معه ويكفي بالنسبة لها أني يكون بصحة جيدة.

بعد يومين، وصل بلخير من رحلته. كانت جالسة أمام باب الحوش، مشغولة بتجفيف تيجان ورود الجوري. نظرت إليه فإذ بوجهه خاليا من العكر القديم، وقبل أن يدخل إلى غرفته، لم تصدق أذنيها وهي تسمعه يقول لها بصوت خافت وصاف مليء بالحرارة أغدق على قلبها فرحا لا يوصف ورسم على وجهها ابتسامة افتقدتها طوال أعوام:..... **مساء الخير!**

دون أن ينتظر ليسمع أجابتها، دخل إلى غرفته وذهب بنوم عميق.

* * *

عادت بثينة مطلقة في عطلة ربيع عام تسعة وثمانين. جاءت بيت فريدة تحمل حقيبتين كبيرتين وشنطة يد من نوع "فرزانتشي". تضع نظارة "ديور"، وقد صبغت شعرها بلون فاتح.

رفعت النظارة فبانت عيناها كبلورتين بلا دهشة، وأيضاً بلا حزن. الوجه الدائري والأسنان البيضاء، الشفتان الأقل حمرة، الجبهة العريضة، والصدر الأكثر امتلاء.. بلحظة واحدة، عمل مسحاً شاملاً لكل تفاصيلها، وانتظر أية إشارة منها توحي بأن بينهما ذاكرة مشتركة، دون جدوى. صهد عرقا بارداً بمجرد أن اقتربت منه مقبلة وجنته. شمّ رائحتها، فكانت مزيجاً من دهن العود الخفيف تنبعث من ثيابها المبَخرة وعطر حديث ممزوج مع القرنفل.

بدت وكأنها متخفية أو متصنعة غابت رائحتها القديمة المخزونة في مساماته.

امتدحت قامته التي طالت، وقالت له: **ما شاء الله، صرت شب!** دون مبالغة.

أخرجت قميصاً أبيض اللون جلبته كهدية. بحيادية تامة قالت: **انشالله يطلع على مقاسك**. تناول هديته بلا اكتراث، ومضى يتساءل: هل يعقل أنها لا تتذكر؟ هل ما حصل بينهما كان حقيقياً أم نزوة مبهمة لوّنها غيابها؟ كانت تساؤلات "بورخيسية". فالشك بدأ يتسلل إلى عقله؛ إن حكايته مع بثينة لم تكن سوى اختراع مخيلة لعوب.

عزاؤه الوحيد أنه سيتأكد لاحقا، فهي جاءت للإقامة في بيتهم، على الأقل لشهر أو أكثر، لأن دارها تحتاج إلى ترميم بعد أن لاكها الانتظار وشلعها الفراغ، وسيرى خلال الأيام القادمة إن بقي له موطئٌ أو سَعة في عاطفتها.

لم يستطع الذهاب إلى الوعر كعادته ليسترد هدوءه، بل صعد إلى سطح الحوش، تقضمه الوساوس القارصة والحيرة الهلامية. هل يعقل أن تكون صاحبة حبه الأول وانتظاره وشغفه، بهذه البلادة!؟

صرخ – بلا سبب – من فوق سطح الدار، فأربك الحيوانات الأليفة في الجوار، بينما تحت السقف، كانت بثينة تشكر فريدة على كرمها، وتقص عليها ما حدث في الإمارات.

في دبي داهمتها منذ لحظة وصولها، رطوبة خانقة، ملل دبق، روائح غارقة بالتوابل، و زنخ قلي السمك مع الكاري.. قالت لفريدة: **من لحظة خرجت من الطائرة بقيت هذه الرائحة عالقة بي؛ صرت أحسها تنبعث من جسدي**.

كان سلوم شهماً وودوداً، ولكنه لم يكن حاضرا. زوجاً بلا ملامح. بعد أسبوع واحد من مغادرتها سرمدة إلى الإمارات، أدركت أن الفراغ والوحدة والحصار، هي نفسها.

أصبحت المهمة هي انتظار عودة الزوج من دوام المدرسة، ولم يخلُ الحالُ من بضع صداقات شحيحة مع زوجات المدرسين، تكاد لا تتجاوز الثرثرة، فتبدو الوحدة جنة خالصة قياسا إلى الهتك المستمر للخصوصية الذي تولّده الأسئلة الساذجة، والنميمة، والتدخل بكل تفاصيل حياتها واستباحتها.جعلت من ابتعادها عنهن شيئا حتميا.

جمل أيامها تتشكل في مفردات مبعثرة، لتمضية الأيام بأحلام شحيحة.. سلوم كان مغتربا تقليديا يعمل على مبدأ الجميع هناك: "غيّب شموس، وعِدّ فلوس"!

ومع تراكم السنوات وانشغال سلوم الريّاش بتحسين وضعه، حيث فتح مطعما صغيرا يشرف عليه بعد عودته من المدرسة. ورويدا رويداً، صارا لا يلتقيان إلا لماما.

لم تكن متطلبة، أو معترضة. لم تكن لتعبر عن تذمرها أو تشتكي من شيء. وجدت في تصنيع قلائد الخرز،وموهبتها القديمة بالتطريز ومتابعة التلفزيون فرصة لكسوة الفراغ.. وبقي الرحم أجوفا لا ينبت حملا.

لم تحبل، ولم تطلب. وبقيت في حالة من الانسجام الهادئ مع ما تجلبه الحياة، تتقبله بهدوء وصمت. ما عدا مرة واحدة. قالت لسلوم: **لازم نشوف طبيب...**

حملها إلى عيادة نسائية فأجريا الفحوصات. في المساء ذهب وجاء بالنتيجة، وبهدوء قال: **أنت لا تنجبي. بس هذا قدري ولن أعارض.**

حاولت – على مدى أسابيع – إقناعه بحقه في ولد يرث اسم العائلة الممسوسة بلعنة الطيور. أعادا الفحص مرة ثانية وثالثة. فيعود إليها أكثر حبا وبنفس النتيجة؛ كانت عاقرا بلا أمل، حتى إنها بدأت ترتب حياتها على قبول فكرة التبني التي طرحها سلوم، ولكن مغصا حادا فاجأها مرة، فذهبت إلى طبيبة عراقية، أصرت على عمل التحاليل شاملةً لها.

اتصلت بها، فأخبرتها حقيقة أخرى: **أنت يمكن أن تنجبي عشرة أطفال. خلي زوجك يأتيني**، وبعد جهد جهيد، رفض سلوم الخضوع للفحص عند طبيبة. ومع تكرار المماطلة اكتشفت أنه هو الذي لا ينجب. بهدوء، لملمت أشياءها، وقررت الطلاق.

– تعرفي لو أنه صارحني، ولم يهرب، كان يمكن أن أبقى معه، لكنه كذب وحملني شعوراً أكبر من قدرتي بالامتنان والذنب. كل شيء صار مغشوشا. الأهم أنه لم يمانع ولكن له رجاء واحد: أن أكتم ما حصل خوفاً من ألسن سرمدة الطويلة. وهنا طلبت بثينة من فريدة أن تحلف بحياة بلخير أنها لن تفتح فمها.

– طيب شو عما تفكري تعملي؟

– راح أرجع على الدار! أعطاني ما يكفي لأرمم حياتي واستمر كم سنة بلا حاجة أحد. ووعدني بأن يتابع بعث ما يتيسر معه.

* * *

جسدها اللدن الممتلئ ينقضّ عليه، انتصابه يعذّبه. فراغ يطيح بكل شيء. لم يترك فرصة للمسها إلا وفعلها، صار يباغتها وهي بجانب المجلي، يمر ماسحاً قفا يده بانثناءات مؤخرتها، ويمضي مشبوحا، يتوارى قبل أن تلتفت!

يقضي أكثر من ثلاثة أرباع يومه وهو موتور بانتصاب لا يكل. يرصد حركاتها وسكناتها. تهرب عيناه من النظر إلى عينيها. يحاول أن يتوقف دون جدوى.

يعاود الكرة مرة إثر مرة، يقتحمها، ويلاصقها، ولا يترك فرصة وإلا ويقترب من لحمها.

في البداية ارتبكت، ولكنها لم تحاول إخبار فريدة. كانت تصدّه بكل عزم وثقة، غير أن رضاً مخملياً يجعلها مطمئنة ومبسوطة بهذه اللعبة

الخطيرة، بين مطلقة في الثلاثينيات من العمر، ومراهق في أواخرالسادسة عشر.

يلامس زغب خواء أيامها، ينتحه الإثم وتؤججه الذاكرة والفراغ، مما جعلها تستسلم بشكل ما وتستكين بدلاً من مواجهته. لامت نفسها. قرعت ذاتها. سارعت لترى كيف تتم عمليات ترميم الدار. دفعت أكثر للعمال لينجزوا المهمة أسرع. خافت أن تضعف؛ لم تكن تريد المضي مع مراهق جامح في حكاية تبلبل روحها المخضوضة أصلا.

فانفجرت فيه، بعد أن لمسها على مؤخرتها المكتنزة وهي تكنس؛ باغتها بيده التي ضغطت أكثر مما اعتاد فعله كان تطوراً لم تحسب حسابه، فقد عوّدها على اللمس الخفيف الذي لا يترك أثراً، فاقشعر بدنها، وبلمح البصر توارى مبتعداً، لكن هذه المرة اختلف الوضع.

نادت له: **وقف بلخير. بدي أحكيك...**

توقف وألتفتَ إليها..

– المرة الجاي بس تمد إيدك راح أقطعلك اياها،عما أتْحَمّلكْ لأني بعرف هالوقت صعب عليك، فهمان؟!

وقف مرتجفاً. حدقت في عينيه مباشرة، فشعرت بالشفقة على هذا الكائن المبتلى بجسده. اغرورقت عينه حين لفظ عبارة ساحقة: **سامحيني يا خالتي.**

استدارت وهي تقول: **مسامحتك.**

وتركته فريسة نوبات جديدة من الهواجس الذئبية الجائحة.

تلك الخيالات، رافقته سنوات طويلة، تأتيه كل حين؛ ظلّ محتقناً تماماً ممتلئاً بالعواصف الجسدية التي تدمر كل الوصايا، فحطمها واحدةً تلو الأخرى. فقد السلام الهش الذي أمدته به الهبارية. وخرجت الرغبة الصريحة من معاقلها فأضحت هاجسه، ديدنه، وشغله الشاغل. فقد

التركيز في كل شيء، واحتشد بأنثاء الأقرب والأبعد. فتح ثقبا في باب الحمام ناسيا طلبه للصفح والمسامحة مقتحما عريها، وقد أصابه الحول وهو يترقب أن تداهمه فريدة متلصصاً. وشغف رؤيتها عارية.ثبت عينه على الثقب وبدأ يراقبها وهي تخلع ثيابها. رآها تتمتم أدعية إلى الله، تبسمل قبل دلقها الماء على جسدها وتفركه بصابون الغار؛ كانت تتعذب من عطش الرغبة والوحدة ونداءات الجسد التي لا ترحم...صار وجهها محتقنا بالغضب ويكظم انفجارا عاتياً، حين اكتشفت الثقب الذي صنعه ليتجسس عليها فارتدت ملابسها مذعورة وخرجت ساخطة: **شو رأيك خبر فريدة عن قلة أدبك؟!**

رد بكبرياء مجروح: **ما عاد فارقة معي. مشتهيك، راح موت عليك.**

صفعتها كلماته. عرفت أن الحاجز الأخير قد قارب على التحطم أمام إصرار هذا الشقي..

قالت: **عم تحلم، أنا مثل أمك ولاه.**

وحدقت في عينيه الداكنتي الخضرة، قاطبة حاجبيها المقوسين، فضاقا على عينيها السوداوين الممتلئتين بالخذلان والغضب.

فرد بإصراروقح: **بس إمّي ما طعمتني دبس وأنا صغير، إمّي طعمتني خرا، وجابتني على هالدنيا القحبة!**

وخرج صافقا الباب خلفه.

غادر إلى الوعر ثلاثة أيام، يبيت في كهوفه البازلتية، ويمشي بين الصخور، يقلد الذئاب والكلاب، عاويا صارخا. كان الربيع قد أطل، والوعر يغدو معجزة بصرية؛ فجأة تلبدت السماء بغيوم ربيعية فأمطرت من الجهة الغربية، بينما الشمس تضيء القسم الشرقي من الوعر. شعر بغبطة ما تدغدغ وجهه. رذاذ مخملي يغسل وحدته. خلع ثيابه وبقي عاريا. وقف فاتحا ذراعيه للمطر ينسكب عليه ضوء شمس مغسول بقطرات صافية. من

بعيد، كان ابنا أوى يلوذان بجحر وينظران بحذر إلى هذا البشري العاري يتدلى من وسطه عضوين ضخمين، وتغسله السماء بزخة مطر.

شرحت فريدة لبثينة عذاباتها السابقة معه، وكيف يقابلها بالصمت قاتل شرحت لها استعدادها لأن تموت إكراماً له، وأنها مشوشة لا تعرف ماذا تفعل:

- لم يعد يكلم احد، لا يتعاطى مع أحد، قلبي يتقطع. كلما ذهب إلى الوعر، أيام غيابه أحسبها بالدقائق، لا أستطيع منعه أو الكلام، وحين يأتي يغلق الباب على نفسه ويبقى يقرأ لأيام، أحيانا يظل يومين بدون أكل!؟ باحت لبثينة بأن كتب الحكمة ساعدتها، وهي تسلم أمرها لله؛ واستبدلت "فوطتها" القديمة "الجرجيت" الشفافة بواحدة أخرى أكثر سمكاً كعلامة على زيادة الإيمان في قلبها. وأنها لم تعد تجد الأمان سوى بقراءة الرسائل المباركة؛ وكيف كوت رغبتها بمحماس القهوة الحارق.

والشيء الجيد أن تجارتها مزدهرة، درت عليها ما يكفي لتوسيع الحوش، وبناء غرفة أخرى هي التي تستعملها بثينة الآن.

عاد وتوارى خلف صمته، تاركا السيدتين تهمسان وتبوحان بفيوض قلبيهما.

قرع الباب، وصله تنبيه لغيابه من المدرسة، وأنه معرض للفصل إذا تكرر الغياب. مزق ورقة التنبيه والتحذير، غير عابئ بالرسول الذي جلب الرسالة له، صافقا الباب في وجهه ودخل إلى غرفته وأمسك كتابا أسمر الورق، وشرع بفتح صفحاته الملتصقة بمسطرة؛ كاتبه "صدقي اسماعيل" يبسط حياة "رامبو قصة شاعر متشرد " بشكل آسر. بدا له اسم "أرثر رامبو" ممتلئاً برعشة خاطفة صار يعرفها كلما قرأ شيء له أو عنه. فانكبّ عليه وأنهاه بليلة واحدة. عاود القراءة مرة ثانية في اليوم التالي، كان ثمة طاقة من الحياة تنبعث بموت هذا الشاعر. وإن عليه أن يبعده عن رأسه،

فأخذ برواية "مجدولين أو تحت ظلال الزيزفون"، "لالفونسوا كار"، أعاد صياغتها "المنفلوطي" ولأول مرة في حياته، يجد دموعه تنهمر من القراءة؛ كان ينشج حين دخلت الغرفة. وجدته يقرأ والدموع تخضبه. لم يشعر بوجودها. ظلّت مترددة، حتى حسمت أمرها واقتربت منه:

- شو في؟ شو باك ليش عما تبكي؟

رفع نظره، و بسرعة مسح دموعه عن وجهه، قائلا:

- لا ما في شي فات غَبْرَه على عيوني.

مدت يدها على فروة شعره الخرنوبي.

أرادت احتضانه. ضمّه إلى صدرها. إغراقه بفيض روحها، وينابيع حنانها، لكنها لم تفعل أياً من ذلك، بل اكتفت بمسح شعره بكفيها، والهمس المتحشرج له:

- أنت روحي!...

لم تقفل باب غرفتها من الداخل كما تفعل كل ليلة تجنبا لغارته الطائشة، بل اندست في فراشها بعد أن تعطرت وارتدت شلحة خفيفة، وقلبها طبل كبير يقرع بانتظاره. فتح الباب على مهل، فأغمضت عينها مدعية النوم.

كان ضوء النوّاصة الشاحب، يدثر وجهها. تقدم نحوها على رؤوس أصابعه واندس خلفها بهدوء تحت اللحاف دون أن يلمسها، كان لهاثه مسموعا؛ تمتد يده لتستقرعلى كتفها ومنه إلى شعرها يمسده ويتنشق روائحها المنتظرة، تركته يفعل دون أن تجفله، فهبطت إلى قمة صدرها المكتنز المندلق على جنب. حاولت التنفس بانتظام مدعية النوم، بينما يداه توقظان كل ذرة خامدة في جسدها اللدن الفائق الروعة والتنضيد. قرصَ حلمتها، فردت يده، وبافتعال مكشوف هامس استدارت إليه:

- ولاه، شو عما تعمل؟

- اشتقتلك.

تحركت شفتاه وكأنهما في حالة عبادة، وصمتت يده مستعدة لجولة جديدة من صلاة الجسد، مستجمعة كل ما لديها من قوة لتغزو مكامن الفتنة. أصلحت من نومها واستلقت على ظهرها، فأطبق شفتيه على شفتيها، وباستراق مراق بين الشفاه الجامحة كان الريق يحتك بالبريق فُيْضاء الجسد. فاتحا للأصابع العودة من الذاكرة الندية والمشي في حدائق مزروعة بفيوض الينابيع الرقراقة.

راحت أصابعه تتسلل متسلقة فخذها العاجي، وكأنها قطيعٌ من ماعز أضناه الجوع فبدأت تتقافز في دغل العانة الخصبة بالتوق، تمسدها بهدوء الحصّاد الماهر، لينزلق بين الشفرين في وادٍ من السيول الحارقة، تلامس البظر الشاهق.

أمسكت يده مصممة على إيقافه، فقد تجاوز حدود ما أرادته وبسرعة. كانت تظن أنها ليلة رومانسية، سيحضر فيها بعض من الجسد وكثير من همس الحب. لم تكن لتتصور وقاحته المباغتة، وكادت تهم بطرده والانسحاب من الفراش عندما همس لها بكل ما في العالم من شغف:

- منشان الله خليني حط إيدي.

تحطمت كل أسوارها دفعة واحدة تحت وابل الرذاذ العاطفي الجامح والشوق الهائج؛ شعرت وهي تمسك يده عاليا بأنها أمام لحظة لن تتكرر. لحظة ستوشم أيامها للأبد. ستشويها بحمى لا فكاك من حرارتها، وإلا فإنّ عليها أن توقفَ كل هذا الجنوح المنافي للمنطق.

انتصرت الرغبة، وجوحُ قطعان الذئاب المتوحّدة في يدها المنتظرة لأصابعه الفتية لتطعمها لحمه ودمه وحرارته، وبدلاً من صده، أعادت يده مشبوكة بيدها إلى فرجها المبلل تماما، تاركة له كل المساحات المتبقية

دون أسوار ولا مخاوف. وهمست بصوت أقرب للينبوع النقي:

- لا تحرقني بنارك! مقلدة عبارة شاهدتها في احد الأفلام المصرية وهي في الإمارات.

ستعرف يده معنى الرطوبة الوارفة.. ويكتشف طقوس الندى الأنثوي، وستمد يدها تبحث عن حيوانه المنتصب، وحين وصلت إليه أصابتها قشعريرة، فأمسكت بعضويين! فأوقفت كل شيء:

- لحظة.. لحظة. همست له وجلست. أرادت أن ترى ماذا لمست، فكشفت الغطاء، وخلعت سرواله فكاد قلبها يتجمد من مرآهما منتصبين يرهزان معا. أمسكت بهما بيديها، وانفجرت بضحكة مكظومة. تبعتها حالة من الشبق المجنون، فوصلت عشرات المرات.. كادت تتفتت من الرعشات المتواصلة. هو لم ينتبه إلا وهي تئن تحته، وقد دخل أحدهما في جوفها والآخر بقي يمسد عانتها ويصل حتى سرتها.

- لا تكبّن جوى... لا تكبن.

سارت ليلتها بجلاء نحو نخاع البهجة المحرمة. انفرط التحفظ الهش، وفتح الجسد على أقصى سهوبه الشاسعة. أدخلته معها إلى الحمام، متحدية كل مخاوفها الكامنة من الإمساك بهما متلبسين.. حمّمته، دعكته كطفل وغسلت عضويه الضامرين ومسحتهما بالصابون، ثم عصرت عليهما معجون أسنان دلكتهما بالماء، فشعر بنعناع هواجسه يفوح في فضاء مكدس بالشهوة. وأضحى سلوكه طقسا أقرب للعبادة؛ شعرت إنّ ما نالته من لذة لا يمكن أن تحظى به امرأة. ومن الغباء التفريط ببذخ جسدي كهذا تحت أي مسمى.

جثت أمام قدميه، وبدأت تقبله، وتقبض على طمرتيه بشفتيها، تتمضمض بهما، تدخلهما في فمها تمصمها. وبينما يدها تستحلب الأخر، تحثهما، حتى أصبحا قريبين من الإنعاظ، شدها من شعرها، لكنها التصقت

به فقذف، بلعت ماءه، وتابعت لعقها مدخلة إياهما فمها الحريري، منظفة منيه بشفتيها، كمشيمة حيوان ولد للتوّ لينهمدا بين شفتيها، بينما وجهه المبرقع ببعض حبيبات حمراء يراقب طقوسها، كوجه سحلية تتشمس بعد زخة مطر يرف رأسه ويهبط في حركة موتورة متناغمة.

يعيده صوتها إلى الواقع المخيف:

- **شو انبسطت يا عرص؟**

....

خلف الباب.. وقفت فريدة تسترق السمع وهي تحبس دموعها. وتعود منكسرة إلى غرفتها. تبكي بصمت وتنتهي نوبة غضبها. بالتسليم بما حصل دون أن تجرؤ على مواجهتهما.

* * *

أشرق وجهه. أوقدت به بثينة شعلة الحياة، ومنحها معنى آخر لوحدتها. صارا يفعلانها كلما وجدا فرصة. ثملان بعشق لا قرار له. تجنبا فريدة التي بدأت علامات الهيام بالله والأيمان بالكتب المقدسة تنخلب في وجهها، فلا تنقطع عن زيارة "المجلس" وخدمته، تعسيفه وتنظيفه، والاهتمام بسجاده وشموعه وتبخيره. صار بيتها الثاني.. فهي تهرب مما يحدث في حوشها المحتشد بأجواء فائحة بالرغبات، وشعور قديم ترتعد حين تتذكره شهر من الجنون والشبق المستعر.أضحى بعده منزل بثينة جاهزا.

فانتقلا إلى فضاء أكثر حرية؛ صحيح أنهما افتقدا لذة استراق اللذة، لكنهما فتحا علاقتهما على جنون شبقي مستعر. كانت زيارته يومية، أحيانا يبقيا معا ثلاث أيام متواصلة، لا يقطع حضوره سوى جنون مفاجئ بالذهاب إلى الوعر والعواء فيه، أو بلوثة قراءة لكتاب جديد، مقرونة بتعلُّمه شُرب العرق، وأحيانا، يرتدي بذلة الفتوة ويضع إشارات الصف

العاشر، ويمضي - ليس رغبة بالدراسة - بل بالمشي في وعره لتصفية ذهنه وشحذ جسده بمكرمات الصخور البازلتية وطاقتها المشعة.

بعد مرور ستة أشهر، ومع بدء الفصل الدراسي الأول من سنة الحادي عشر بدأ شغفه يفتر. لاحظت بثينة سهوه المتواصل، صمته المتقطع، شروده، ورغبته بالشرب والسكر تفوق اشتهاءه لها. بدأ لسانه يردد جملاً وقصائد ومقاطع لم تفهم منها شيئا، ومزاجه أقرب للملل. لم يعد ذاك المراهق الشبق المليء بالفحولة الصخرية، صار ودوداً ومخدوشاً بالكلمات، واحتارت معه، وكلما ابتعد عنها، ازدادت لهفتها إليه. حتى أيقنت أن مصيبتها تكمن في اعتيادها حب مأفون خاسر. كانت واثقة أنه سيكبر ويفر يوماً. تتوقع فتاة مراهقة في مثل عمره تلحس عقله، أو تشتت جسده بخمائلها، ولكنها لم تكن تحسب حساب أن غريمها سيكون رجلاً عفناً غامضاً يتفوه بتفاهات. أسمه أرثر رامبو.

بينما أمه تقترب من دخول مدار أخر، فيعرض عليها أحد الشيوخ المتبحرين في أسرار كتب الحكمة "زواج النظر"، وهو حالة زواج تعقد بين رجل وامرأة درزيين، يكونا زوجين بكل شيء ولكن بدون الجسد. يتقاسمان أعباء الحياة ويتبادلان أسرار التوحيد والغوص في معانيه الربانية، مع التجرد من الحواس الجسمانية، وقهر النفس وحرارتها ببرود العقل، وصولا إلى معرفة المنفرد بذاته، وملامسة للعقل الكلي في رحلة سرمدية باتجاه المطلق القابع في داخل الإنسان.

وجدت إن عليها استشارته، ضحك بسخرية من فكرتها، وأضاف بلا مبالاة:

- **مثل ما بدك أعملي. مش فارقة معي!**

وانغمس في غياهب إشراقاته الخاصة. هاله المعنى المشع في كلمات المراهق الفرنسي المتوحش، ودعوته لعطب الحواس، كي تخلق

رؤية جديدة. عبارات غامضة مترجمة بروح مرجوجة من هول المعرفة، أشعرته أنه يحتاج إلى أبجدية جديدة، لغة جديدة، متفجرة، مغايرة، مغموسة بأراض شاسعة الغرائز؛ يريد معرفة هذا الكائن الذي يمشي به، يريد العودة لروحه وجسده إلى ما قبل التدجين.

شَعر بروح رامبو المترجمة، تخترق بقوة سفسطة العبارات المبهمة، وتبرق في أصقاع جوانيته الخام الطرية، تلامس أضواء ستنفتح به عبر خيالات خاصة على شكل ديكة ذهبية تغني لصباحات موعودة تتدفق بها السماء بفيوض من "الأنبذة". شعر بغنى وامتلاء هائلاً يدفعه أبعد من حدود ضيقة، وعوالم سرمدة الرتيبة، وعرف أنه سيحتاج إلى لغة أخرى ليدرك بغيته، فبدأ بتعلم الفرنسية؛ الأحرف لم تكن بها انحناءات الحروف العربية، ولا طاقتها المتفجرة على استحضار التنقيط، فالعربية حروفها مقوسة طيعة لينة، فيها من القدرة على الالتواء والاستدارة ما لا طاقة لباقي اللغات عليه. بينما الفرنسية حروف مفتوحة لا تحمل قداسة وأسراراً عظيمة لكنها تفتح سموات أخرى وأراض لم يكن يصدق بوجودها، وتجعله يبتسم حين يتهجاها. يصبح شكل فمه مفتوحاً يبدو وجهه المتجهم وقد انفرج قسرا؛ ثم إن هذا النغم الغاوي الاستعماري البعيد، هاله أن الاستعمار الفرنسي لم يترك في سورية سوى أسماء تسللت إلى الخطاب اليومي، بعكس لبنان ودول المغرب. وحين بدأ يردد الكلمات الفرنسية وراء مسجل الصوت، عرف أن اللغة الفرنسية تجعل متكلميها يبدون وكأنهم يبتسمون طوال الوقت، أو يسخرون على الأرجح لا يمكن أن تثق بجديتهم أبدا.

العبارة لآرثر رامبو، أم له؟ اختلطت الأمور: "الجسد كنز للتبذير؟" لم تفهم بثينة معناها، وعدتها زائدة عن الحاجة، فكل ما تبتغيه هو جسد هذا المراهق المشمس ليطفئ بعضاً من ظمأ جسدها الفذ وارتجاجاته

المثيرة لكن لوثة أخرى بدأت تلوح في حياته وتقذفه بعيدا عنها.

الكلمات التي تعلم حروفها على جسد بثينة الحار وهو طفل، ظلت تحمل شهوة ودبساً لا مثيل له، فهو المتعلم الوحيد على وجه الأرض الذي أتقن الكتابة والقراءة بحواسّ أخرى. الكلمات نفسها صارت تسحره وتسرقه من أحضان بثينة. لم تكن تدري أن غلامها العاشق سيغرق في أتونها مضمخا بغبار الكتب، ويبدأ بترديد أحرف غريبة على مسامعها. حتى فاجأها مرة بهوس لم تتوقعه، فشعرت بأنها قد بدأت تفقد السيطرة، فلم تكن المرشدة الأكبر سنا التي غرر بها مراهق مجنون فحرق هشير قلبها، بل أراحها شعور غامض بأن أية امرأة على وجه الأرض ما كانت لترفض الذهاب إلى أقاصي الجنون إذا ما قابلت هذا الصبي الأزعر الفاتن. فهو كتلة متفجرة من الشبق الشرير المدمر، والشغف الشيطاني الذي لا يقاوم.

فكرت بذلك وهي مستلقية بكامل عريها وسط دغل من الهواجس، وهو يسيّح ألواحا من "الشوكولاته" على موقد غاز فائر بالوهج الأزرق، بعد أن وضعها في ركوة قهوة.

أمسك الركوة واقترب منها، وبدأ يغمس سبابته بالسائل الداكن الحار، ويشرع بتنقيطه على بياض بطنها المشع، فينقبض جسدها من الألم واللذة معا.يرسم الحروف الفرنسية الغامقة المشوية على جلدها المتحفز المصقول. وما أن انتهى من رسم حروف العلة الفرنسية حتى انحنى ليلحسها، كان كل شيء يعيد بناء الذاكرة ويضيف عليها؛ همس لها وهو يلعق شوكولا جسدها: **أتعرفي أن للحروف روائح وأصوات؟**

ضحكت من أفكاره اللغوية القادمة في غير وقتها، وأخرجها مزاجه من متعتها، فتوقف عن اللعق وبدأ يردد كلمات رامبو التي حفظها مترجمة من قصيدة حروف العلة.

(A) سوداء بيضاء، هي بطن الذبابات الأسود تطن متألقة حول نتانات فضيعة، خلجان من ظلال أو نقاوة الأبخرة، والخيام رماح المَجالد الشموس، ملوك بيض، ارتعاشات خيميات.

(E) أنسجة أرجوانية، دم منفوث، ضحك شفاه جميلة في الغضب أو السُّكر التائب.

(I) دوائر ارتجاجات آلهةٍ لبِحَارٍ خُضر، سلام المراعي الملأى بالحيوانات، التي تطبعها الخيمياء على الجباه المجتهدة العظيمة.

(O) بوق عملاق مترع بصرير شائق، سكنات تعبرها عوالم الملائكة.

(O) هي الأوميغا، شعاع عينيه البنفسجي.

يقرأ - وهو ممدد بجوارها - كيف حاول شاعره أن يعطي الأحرف دلالة أخرى، صوراً، ونكهاتِ توابلٍ، وأنوارَ ألوان محتشدة في دواخل رسومها.

- مش فهماني شي..! قالت متأففة ولكن بغنج، واقتربت لتعض أسفل رقبته وتلحس شفتيه.

أبعدها بعصبية، وأتخذ وجهاً حازماً:

- بتعرفي، بس ننام مع بعض، أنتِ كل مرة، بتستعملي صوت من هل الأصوات وخاصة لما توصلي للذروة:

آآآآآآ، وأحياناً: إي إي إي. ومرات كثير بتقولي: أيواا أيواا أيواا... طيب فيك تعرفي شو معناتا؟

- بس ولاه، عيب عليك.. خجلتني.

- عن جد قولي لي... ليش هالأصوات مش غيرن. مش غريب أنو أنتي بتشهقي مثل أصوات هل الحروف، وما عندك مشكلي أنو تفهمي؟ أما لما نكتبهن ونقرأهن على جسمك.. بتصيري مش فهماني شي! أصلا

بحياتك ما راح تكوني فهماني أي شي!؟

خبت الضحكة التي أطلقتها، حين رأته جادا تماما في تساؤلاته ساخرا من قصور معرفتها.

حاولت إيقافه، لكنه كرع كأس العرق دفعة واحدة. وقف عاريا وصار يفوح وينهمر بكلام أكبر منه مستخدما يديه وتعابير وجهه وكأن جمهورا افتراضيا أمامه.

إنها الأصوات الأولى، السوناتة النقية للطبيعة، اسمها حروف علة، لأنها العلل لكل معلول، منها بدأت الصرخة الأولى للحياة، وبها تنتهي الصرخة الأخيرة للذة. منها الصفاء والنقاوة، ومنها الذعر والخوف والشبق والألم والرغبة بالبقاء.. الشيفرة الصوتية للتناسل، إذا استطعنا فك معانيها، سندخل أسرار الوجود البشري، وعمق اللغة الأولى، حين كان كل الناس يستعملون نفس الأصوات، ليحكوا عن أشياء واضحة دقيقة، غالبا لا تسمى ولكنها تحس، يُشعر بها.

رامبو، حاول أن يقبض عليها، يصنفها، يعيد للأبجدية بهاءها، ولكن الفكرة هي أن لغته لم تساعده "الفرنسية" أضيق مما حمل في وجدانه، لذلك فجرها. نعم فجر لغته؛ حاول أن يخترع لغة من خلالها تصبح للكلمات فيها روائح وملامس. يغدو لها شكل ولون لم يعهدا من قبل. ولكن الفرنسية لم تساعده؛ أصلاً، هذا سر صمته.. روحه أضخم من لغته.

ما حصل معه بعد تدميره لحواسه، لا يتسع له منطوقه. لو أنه يتقن العربية في حينها، لكان ابتدع أبجدية مقدسة جديدة وأضحى نبيا في الشرق. فرامبو أراد أن يكون ابنا للشمس، فوجد حكمة الشرق. المنبع والأصل. فراح يبحث عن طاقة متفجرة أخرى، مكنونة في اللغة. في الأحرف. يحدس أنها هنا في شرقنا، في لغتنا، في سحرها وسرّها وألوانها،

لذلك هجر الشعر بعد أن بث فيه كل السموم التي شربها من أسلافه عبر آلاف السنين، ومشى خفيفا ليبحث عن معنى آخر، أقل خطورة من خطر الكلمات.

أخرج للعلن ما حاولت البشرية طمسه، تهذيبه، خنقه. أخرج كل الرغبات الكبرى بالحرية، بالصدق الهائل بين الذات والحياة، بالاتصال المباشر مع الكائن الشعري الكبير.. خالق العالم...

فغرت فاها، تراقب عينيه الغائمتين، وقد أصبحتا كحليتين، وهو يخرج سيولاً من الكلمات والأفكار. خافت عليه وهو يتصبب عرقا، ويتكلم - لا ليُسْمِعَها - بل وكأنه يخاطب أناساً آخرين. بدا بجسده الناحل العاري وهو يلوب في أرجاء الغرفة، ويتكلم بسرعة خارقة وكأنه يقرأ ألواحاً أو أفكاراً غير مرئية أمام عينيه المشختتين بالحزن والإصرار. كانت لحظة إشراق مذهلة، بدأ يعي بها خيوط حياته.

صعقها منطقه، أربك حساباتها، جردها من ذكائها وأنوثتها، شعرت برغبة بصفعه أو صرعه، لإيقاف هذه المهزلة.

ولكن قبل أن ترد عليه، تركها في عراتها،المرصع بأحرف العلة الفرنسة المرسومة "بالشوكولا". وحمل كتبه ودفاتره وغادر.

شعرت بالندم الممزوج بالإثم على الساعة التي جعلته يتعلم بها رسم الحروف بلسانه ويتذوقها بشفتيه، وأحست أنها وصلت إلى الفصل الأخير من تلك الخطيئة التي ما برحت تعذبها. أقرت أن عليها - سريعا - أن تسترد حياتها الواقعية، وتعود لرشدها، ولكن ظل شيء غامض يعذبها ويرهقها، فهي تريده أن يعود للمرة الأخيرة، لترتب معه مبادرة نهائية تأخرت أكثر من اللازم.

بدأ يتوه ويبتعد، يتهرب منها، وانعكست المشاكسات القديمة، فبدلا من هروبها المستمر من تحرشاته صار يفلت من بين يديها، يغرق

في عالم مثير من الكلمات الهلامية المرسومة على صفحات كتب الشيطان الذي يدعى رامبو. هل يعقل أن تكون للكلمات كل هذا القدر من القوة؟! فهي تعرف أن المشعوذين يستخدمون الطلاسم، لإرضاخ الجن وجعلهم في خدمتهم، وأن ترديد بعض الكلمات يجلب البلاء أو يحمي منه، لكنها لم تكن تؤمن تماما بهذه الخزعبلات، حتى حين زارت عرافة كناكر، إلى أن رأت صغيرها، حبيبها، مؤنس وحدتها، مطفئ عطشها، معطي المعنى والمبنى لحياتها، رأته ينزح من فردوس جسدها إلى جهنم كلماته. حينها بدأ يتملكها خوف رهيب على صبيها؛ شعرت بذنب لا يوصف. بمزيج من الخوف والخطر، باضطراب انعكس شحوباً على وجهها الوسيم، فقررت بذكاء نادر أن لا تعارض، بل تجاري هذه اللوثة، فما هي سوى نزوات مراهق، سيعيده طعم الدبس الأول من نزوة "الشوكولا".

قرت عيناً باستنتاجها: يجب أن يذوق طعماً آخر ليعرف قيمة ما لديها، ولكن بعيداً عن الجسد وحساباته، كان قلبها قد امتلأ ولهاً بهذا الصبي ذي السادسة عشر عاماً وعينيه التي أضحت الكحليتين.

ليس من الحق أن تهترئ سراويلنا على مقاعد الدراسة.. نعم "رامبو" من هداه - على الأرجح - إلى أن المدرسة نقيض ما يعتمل ما في قلبه. كان يريد فرصة مواتية ليهرب بعيدا، خارج هذا الدغل الممعن في كسر الرغبات، وجد في هذه التراتيم المترجمة لأشعار "رامبو" خلاصته وهدايته. ستقوده عبر ممرات الحياة، في بحثه المنتشي للأجوبة الكبرى. نسخ عبارة رامبو بالفرنسية **(أجل، إن عيني مغلقتين عن أنواركم، وأنتم عبيد مزيفون)..**

طاقة عجيبة امتلأت بها روحه والمدرسة هي المكان الأكثر رثاء في حياته، والبيت قبر واسع، والبلدة - على تخوم الجبل - مكان غارق

في صمته وذهوله الأبديين يتواطأ على تاريخه ويتحول إلى قن دجاج في المزرعة الوطنية. لم يعد هنا ما يستطيع البقاء من أجله.

في الصباح الباكر، استيقظ بهدوء حذر. دخل غرفة أمه فسرق ألف ليرة من حقيبتها. جهز كيسا صغيرا وضع بها حاجيات سخيفة.انتعل حذاءه، وسار خارجا من سرمدة إلى دمشق ليقع هناك في لوثة جنون هستيري لن يعرف أحد عنها شيئا.

و لم يعد إبدا إلى سرمدة حتى مساء اليوم الذي دفنت فيه فريدة متعكزا على ساق اصطناعية ووجه موسوم بالشحوب مدموغ بخلان قاهر لا يمكن لبشري أن يتحمله.

* * *

إذا كان علي ان أوقف أنهراق ذاكرة سرمدة وألملم كل ذلك معا. أنا رافي عزمي الذي جئت سرمدة قبل أيام، لأجد بلدة لا أعرفها وحكايات لم اسمع بها من قبل أو لنقل لم أكن أصغي لها جيدا. صار علي أن أختم كل ذلك. أوقف تحبير الحكايات لا لشيء سوى لأنها لن تنتهي يوما. وأمر سريعا على الجميع. أتأكد أنهم أتموا أدوارهم وغادروا أو ما زالوا يستعدون لتمثيل دورا ما.

بثينة التي انكسرت برحيله، زارت حوش فريدة وزوجها بعد أسابيع. طلبت الدخول إلى غرفته. استنشقت روائحه، وأخذت بعضاً من ثيابه.. بكت غيابه وعرفت تماما أنها فقدته إلى الأبد.

قبل أن تخرج، لمحت ذلك الصندوق الذي جلبته يوما من عرافة كناكر. أنزلت عنه أكوام الكتب، وطلبت من فريدة استرداده، ودون أن تنتظر جوابا، خرجت حاملة الصندوق.

بعد مناحة ثانية في بيتها، وهي تتشمّم ملابسه، كسرت القفل، وأخرجت الصحف كتاب "العزيّف" تتفقدها، وتنظر إلى الرسوم

والعلامات والأحرف والكلمات؛ شعرت أن الكلمات قد دمرتها، فانتابتها موجة من الغضب. حملت الصحف وأوقدت بها نارا، لم تنفع معها محاولة البلدة لإطفاء الاضطرام وألسنة اللهب التي ظلت تشتعل طوال الليل محيلة البيت إلى رمادٍ لم يعثروا فيه على أثر لجثتها. كانت النار والاشتعال بمثابة الرسالة التي ستحرق المكان وتعيد بعثه من جديد ولا أحد يعرف متى؟ في تلك الليلة المشتعلة سطع قمر سرمدة الكامل الاستدارة متشحا بالاحمرار المتوهج. يبدو وكأنه ثقب أو عين ساحرة لبوابة السماء.

فريدة أقفلت الحوش على نفسها بعد طلاقها من الشيخ الذي لم يتحمل أن يكون زواجهما زواج أخ وأخت.ففر إلى خلوات الجبل ليحفظ عهده مع ما نذر نفسه له، يرهق جسده بأعمال شاقة ويجلد ظهره بسوط صنعه من كبل كهربائي علّ الألم والعقاب يميت الرغبة الجائرة التي فشل في ردعها.

أغلقت الباب على نفسها كما فعلت حماتها أم سلمان قبل سنوات. وصار ثدياها يتضخمان تتحول الرغبات المكبوتة إلى حليب أخضر في صدرها، لتكتشف فجأة أن معظم الحشائش السرية التي تدر الحليب وتعالج الأسى لم تكن سوى، أفيون وخشخاش مجفف.

وهنا أمسكت بحلمتيها وجرحتهما سال الدم ممزوجا بالحليب الأخضر عبأت به القناني الفارغة، ووضعتها في مستودع التبن.

وتفرغت تماما للتأمل والصمت والعبادة. فسقطت في جب النسيان حتى مساء هذا اليوم.

وجد العم السلامة، القناني فحملها معه إلى بيته وطفق يستشيرني ماذا يفعل بها؟

اليوم سمعت المنادي ينعيها، وأهل سرمدة يتراكضون لارتجال

جنازة مختصرة، والشيوخ لا يصلون على جسدها! شعرت أنني استعدتُ سرمدة، وانتهيت منها بنفس الوقت، وعلي المغادرة.

ودعت العم سلامة دون أن أجد له جوابا حول قناني الحليب وهممت بالذهاب، فتحت خطي الخليوي. وتكلمت مع مديري في دبي وأخبرته بأني سأكون في دمشق غدا. واعدا إياه أن أعوض له ما فاتني. تفقدت باحثا عن أي رسالة من باريس.فلم أجد شيئا. اتصلت بالدكتورة عزّة عدة مرات وجدت هاتفها مغلق. وشعرت إني لا أريد أن أراها مرة أخرى. أو حتى بأن أكلمها. سأكتفي بنشر كل ما دونته وأبعث لها بنسخة عنه. فلا شيء يمكن لي أن أقوله لها.

وبينما أنا منسجم مع هذه النتيجة المباغتة. تقدم رجل هادئ يتعكز على رجل اصطناعية، يشبه سيلفر في مسلسل الأطفال جزيرة الكنز. كدت أبتسم وأنا أجد المقاربة تطرق رأسي وأفكر إن ما ينقصه هو الببغاء. حدثت نفسي وأنا أحدق به وجدت أنه محترف تجاهل لا يعبأ بالعيون الفاحصة المتسائلة ينتمي لتلك الفصيلة النادرة من البشر. الغموض والمهابة الممزوجة بالخفة معا.

سلّم على العم سلامة بالاسم وسأله: **أين دفنتوها؟**

دلّه العم على مكان القبر خارج البلدة، فأخبره الرجل المهيب الغامض أنه سينقل الجثمان إلى المنابيع بلدة فريدة الأصلية.وتركه ذاهبا إلى الحوش.

في الخارج تجمع حشد من أهل البلدة. تحلقوا بصمت مشحون بفضول، يقطعه همس يردد: **إنه بلخير!..ابن فريدة.**

خرج بعد وقت قصير يحمل صرة قديمة مربوطة بعناية، تقدم من العم سلامة. سأله بمرارة:

– هل كفنتوها يا عم؟

أطرق العم سلامة بحزن دون إجابة، وانحنى إلى الأرض أمسك بمجرفته ومشى مبتعدا.

فتح بلخير الصرة أمام الجمع الصامت، أخرج منها لعبة خشبية مكسوة بقصاصات ثياب قديمة، مِكْحلة، زجاجة عطر، فرشاة أسنان، تعويذة على شكل حرز مثلث، صابون مطيَّب ماركة "فا" ولفة قماش بيضاء مطويَّة بعناية. أخرج اللفة من طياتها، فلشها أمام الجمع كانت مطرزة بأزرار ملونة من كل الأحجام أزرار قمصان من مروا على حوشها مرة واحدة، تحت كلِّ زرٍّ طرّزت اسم صاحبه. بعضها بثقبين وأخرى بأربعة مصفوفة بفوضى على كفن ناصع البياض أخذت تتلاصف وتلمع تحت أشعة شمس هذا اليوم. فانطلقت الأصوات خافتة بالبداية، راحت تعلوا رويدا رويدا

– الله يرحمها.. الله يرحمها. الله يرحمها.

تمت

10-11-2010